إذا كان الانسان يستلب مالاً وجسداً ان وقع في أيدي غزاة او قطاع طرق فانه يستلب ايضا نفسا وروحا ان تعرض لعملية استلاب منظمة لا كفرد فحسب بل كجماعة وامة ايضا ، وما عمليات التتريك والفرنسة التي قام بها الاستعمار التركي ومن ثم الاستعمار الفرنسي ضد امتنا في مشرقها ومغربها، وكذلك عمليات تقسيم الوطن وتجزئته واقتطاعاته وهباته الا امثلة على الاستلاب الذي تعرضنا له في تاريخنا الحديث كامة ذات هوية متميزة واحدة .

ولعل الاعلام الديماغوجي والدعاوة الموجهة وغسل الأدمغة تدخل كلها في باب الاستلاب اذ تهدف فيما تهدف الى : تجريد الانسان من مفاهيمه وزرع مفاهيم جديدة عوضا عنها ، محو قيمه الاخلاقية الاصيلة وخلق قيم اخرى بديلة ، تفريغه من الداخل لاملائه بالغث من الافكار والباطل من القناعات ، بحيث يتحول الى انسان يأخذ دون ان يعطي ، يستهلك دون ان ينتج ، يتلقى دون ان يبدع ، هابط الروح ، مثبط العزيمة ، عديم الثقة بالنفس ، عديم المبادرة ، يقلد ويحاكي ، خاو اجوف كاولئك الرجال الجوف الذين تكلم عنهم الشاعر البريطاني ت. س. إليوت في قصيدته « الأرض اليباب » .

إن عصر الانحطاط الطويل الذي عاشته امتنا بكل ما يعنيه ذلك الانحطاط من تراجع ثقافي وانهيار قيمي وتخلف علمي وفكري انما كان البؤرة التي مهدت لممارسات الاستلاب حتى اذا ما جاء الاستعمار الحديث وجد التربة خصبة فبذر بذوراً تعهدها بالرعاية والنماء لتصبح فيما بعد عقداً نفسية للنقص والدونية والحرمان .

كما ان عمليات التجويع والافقار والاذلال التي مورست طويلا على انساننا انما كانت تهدف الى استلابه لتتركه خاضعاً مقهوراً يقبل كل شيء واي شيء وهذه هي غاية الاستلاب .

امثلة دخلت الى التداول فيما بيننا ، اقوال صارت مأثورة في تاريخنا ، كلها تتحدث عن القبول بالامر الواقع والخضوع له « فمـا كتب

على الجبين لا بد ان تراه العين » و « من اخذ امنا صار عمنا » و « امش الحائط الحائط وقل يارب الستر » ما عساه هذا ؟ اليس هو التجسيد الكامل للاستلاب ، إذ على الانسان ان يكون مسلوب الارادة ، مسلوب الشخصية ، يؤمر فينفذ وينهى فيطيع وكفى الله المؤمنين شر القتال .

مئات السنين من تاريخنا لا تكاد تقع فيها على عالم مبتكر او اديب مبدع أو مفكر أصيل وليس ذلك لاننا أمة عاقر ، الامر الذي يريدون بل يوشكون ان يقنعوا معظمنا به ـ نحن الامة التي حملت مشعل الحضارة الانسانية قروناً طويلة واعطت هذه الحضارة الكثير من العلماء والادباء والمفكرين ـ بل لان هذه الامة تعرضت لعمليات منظمة من الابادة والاستلاب حتى كادت ارضها تغدو يباباً وانسانها خراباً ...

يقول ابن خلدون في مقدمته : المغلوب يقلد الغالب والفقير يقلد الغني والصغير الكبير والحقير الأمير .. الخ . وهذا ما يفسر تراجع الابداع وانحسار الاصالة ليحل محلهما التقليد والمحاكاة ، فالمستلب ، عادة ، يود ان يسلخ جلده ليستبدل به جلداً آخر هو جلد سالبه او ما يشبهه ، فيقلده ويحاكيه بل ويجعل منه مثلا اعلى ، الامر الذي جعل البعض منا ينكص ايضاً ، راغباً في الرجوع اربعة عشر قرناً الى الوراء لكاننا امة مستقبلها في ماضيها ، امة عاجزة عن مواكبة الحضارة والتقدم .

هنا مسؤولية الكلمة الا وهي معالجة هذا الاستلاب معالجة موضوعية شافية ، والداء ، عادة ، يسهل علاجه ما إن يتم تشخيصه : انساننا يعاني الاستلاب داء مزمناً لا بد من اجتثاثه والاستلاب لا يعالج الا بمضادات قد تتوفر لدى الانظمة السياسية ، والتكنولوجيا لكنها تتوفر اكثر ما تتوفر لدى الكلمة . بالكلمة ، تربية ومنهجاً وأدباً ، يمكننا ان نعيد الثقة لانساننا العربي ، ان نرسخ قيمه الاصيلة ، إن نكرس لديه المبادرة والابداع ، ان ننهي ذلك الخواء العجيب الذي جعله تربة صالحة للاستلاب .

المطلوب من صاحب الكلمة اليوم أن يتحمل المسؤولية كاملة ، فكل كلمة يكتبها ، لا تصب في هذا المنحى ، انما هي امتداد لعهود طويلة من الاستلاب . والمطلوب من صاحب الكلمة اليوم أن يبذل كل ما في وسعه لصنع الانسان العربي الجديد بما يغرس في نفسه من حب للقيم الرفيعة، وتعلق بالمثل العليا وتمسك بالحرية والكرامة ، إذ يعلم علم اليقين ان لا ابداع بلا حرية ولا تقدم بلا كرامة ...

فهل يقوم بتلك المسؤولية ؟

رئيس التحرير

الدراسات والبحوث

- الفصام الثقافي العربي ، والفراغ المجتمعي

د. جمال الدين خضور

- الاقتصاد العربي وتقسيم العمل الدولي في التسعينات

د. عارف دليله

- الفروق بين الجنسين

تأليف : لاورا شيرو

ترجمة : محمد جمول

- الحكاية الشعبية والاستلاب العقائدي

يوسف اسماعيل

- رحلة الحَسَن كما يرويها حُمَيْد بن ثور الهلالي

خالد محيي الدين البرادعي

الدراسات والبحوث

الفصام الثقافي العربي والفراغ المجتمعي

د. جمال الدين خضور

لقد حاول الكثير من المفكرين مقاربة مفهوم المثقف ، وربط هذا المفهوم بالتحولات الاجتماعية . لكن كل تلك المحاولات ، كانت احادية الجانب في تناولها للمسالة ، او سطحية ، باخذها لمعيار واحد ما ، مفترض مسبقاً (معيار التعليم ... المشاركة ... الوظيفة ... الخ) . وكلها ، تضع المثقف خارج الموضوع ، وتفرضه قسراً ضمن خلق آلية تفرد خاصة . ولو كان الامر كما قورب فعلا ، لكان بالإمكان استيراد مثقفين ، تماما ، كما نفعل مع العطور والسيارات .

المثقف ، هو وحدة البناء الحية لعملية النتاج الثقافي (اداة العقل الجمعي) ، تلك الوحدة العضوية المتطورة ابدا في وضع صيرورتها ضمن الكتلة الاجتماعية، والتي لا يعتبر نتاجها الثقافي المجموع الحسابي العام لنتاج افرادها، بل ، تنتج قيمها الثقافية عبر تاريخية معينة ، تحدد ابعاد تطورها ، ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، وعبر تجليات ومظاهر معرفية ، تاخذ قنواتها الخاصة في التعبير عن الواقع النمطي الواسع للتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية ، او المتعددة الانماط (علما ، ان ايجاد تلك القنوات ، يدخل ضمن آلية النتاج الثقافي) ، من ثم ، يتم استقبالها عبر جملة وحدات البناء (المثقفين) ، فيجري تحليل تلك النتاجات على ارضية الوعي بشكل مستقل ، او مرتبط بالإرادة الفردية والجمعية وبانظمة الادراك المعرفي ، فيعاد تقييمها وتعالج من جديد ، وتصقل ضمن منهجية ابداعية محددة .

ومن ناحية اخرى ، فان آليات النتاج الثقافي ، ليست ذاتية الحركة والارتقاء ، بل محددة بنظام الجمل الاساسية الناظمة لاشكال الوعي الاجتماعي ، فلسفية ، واخلاقية وحقوقية وجمالية .... وهكذا فان عمليات اعادة تقييم ومعالجة وصقل وصياغة القيم الثقافية الروحية للمجتمع ، مرتبطة بموقع اجتماعي ما ، وبنظام كامل من القيم الموروثة ارادياً ولا ارادياً ، وتشكل اطارها العام خصائص النتاج الثقافي ، والانعكاس المعرفي في علاقة التأثر والتأثير ضمن الكل القيمي الثقافي ، باسسه الفكرية والاجتماعية لكل من الفرد والكتلة .

وهكذا نستنتج ، ان كل فرد في الكتلة الاجتماعية هو منتج ثقافي حتماً .

ومنتج (بكسر التاء) ثقافي ، تختلف عن مفهوم ، كل فرد مثقف ، الذي طرحه غرامشي وأيده فيه الاستاذ محمود امين العالم ، والاختلاف هنا ، لا يعني التعارض ، بل ، يعني عدم التطابق ، فالمنتج الثقافي منخرط بشكل ما بآلية النتاج الاجتماعي ، بحيث يصبح وبشكل مستقل عن ارادته ووعيه ، منخرطاً في عملية النتاج الثقافي . اما مثقف ، فتاخذ صيغة التحديد الكامل لما هو مرتبط بالوعي والادراك كحد ادنى ، ولما هو مرتبط بالارادة المحكومة باشكال الوعي الاجتماعي، كحد اقصى، وبالتالي يمكن تقسيم عملية النتاج الثقافي الى ثلاثة مستويات(٢) .

١ ـ المستوى المستقل عن الوعي :

ان ظروف انتاج القيمة الثقافية بمقطعها الزمني ، مشروطة تاريخيا . وهي غير محددة ، ذاتية جمعية أو فردية ، حاضراً ، كما أنها بموقعها الوطني (جغرافيا) واحداثيات انتاجها ، غير مرتبطة بوعي الكتلة ، بل تتم عملية انتاجها وصقلها ، ضمن السيرورة الحتمية للجماعات البشرية ، والمحددة نمطيا . وهو ما يمكن ان نسميه المقدمات المكانية ، المتداخلة في شرط ومقطع زمني محدد مع المقدمات الزمانية ، بحيث تصح تسميتها بالمقدمات الزمكانية . وهذه المقدمات ، مستقلة في بعدها الماضوي ضمن تشكيلات وانماط وملاكات روحية ، سبقت القطع المحدد حاليا ، وهذا ما يمكن ان نسميه المقدمات القبليـة للقيمة الثقافية ، على الرغم من انها حاضراً ترتبط بسيرورة النمط ، وامكانية تداخله مع انماط اخرى ، او تشكيلة اخرى معينة ، بحيث تتحدد . العوامل الذاتية والموضوعية بعوامل سابقة / والمقصود هنا بعض القيم الثقافية لان بعضها الآخر مرتبط اراديا ، او ، بسوية معينة من الوعي الاجتماعي ، أو الفردي الانتقائي ، بصيغته الموضوعية ايضا / وهذا ما يمكن ان نسميه المقدمات النمطيـة .

ومن ناحية ثانية ، فان تأثير سيكولوجية اللاوعي (الفردية والجماعية) وان كانت في بعض علامات نتاجها ، مرتبطة بالوعي ، يمر عبر ارتباطات البناء الداخلي الجزئي لتشكل الكل ، عبر صياغة الوحدة البنائية للقيمة الثقافية ، بميكانيكية مستقلة . فهي من الناحية السيكولوجية تمتلك امكانية تحليل وتركيب عناصر البناء (تجزئة العنصر المستقبل / بفتح الباء / الى وحداته البنائية الاساسية ، واعادة تركيب عنصر جديد من نفس الوحدات البنائية ، وان كانت تلك الآلية محكومة احيانا بمجموعة القيم الثقافية الناظمة / ضمنا الجمالية /) ، ومن ناحية اخرى ، تخضع لمقولة السبب والنتيجة في التحليل المنطقي ، وهذا ما يمكن أن نسميه المقدمات البنائية .

واخيراً ، فان الكتلة الاجتماعية ، ضمن حالات وعيها وافرازها لعواملها الذاتية نحو الطموح المستقبلي ، تضع مقـدمات للقيمة الثقافية الحالية والمستقبلية بشكل مستقل عن الوعي ، وهذا ما يمكن ان نسميه المقدمات المعكوسـة .

ومن تداخل المقدمات الزمكانية ، والقبلية ، والنمطية ، والبنائيـة ،

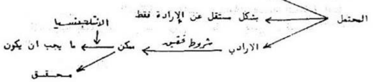
والعكوسة . . . في آلية انتاج ، وصقل القيمة الثقافية ، والتي ، يمثل محورها انخراط الجماعات والافراد بشكل مستقل عن الوعي والارادة في عملية الانتاج الاجتماعي ، يمكننا ان نجزم ، أن المستوى الاول النتلج الثقافي ، والذي يشكل جوهر كون كل فرد هو منتج ثقافي ، مستقل عن الوعي الفردي والكتلـي (الاجتماعي) .

٢ ـ المستوى المستقل عن الارادة :

ولكن مفرز النتاج واع لآليته وسيرورته ، ويمكن تبسيط هذا المستوى ، بأي ظاهرة نعيها كافراد ، وكجماعات من حيث امكانية حدوثها ، وتطورها ، ونتائجها / حتى ويمكن أن تتم ضمن الحاضنة المناقشة / ولكن ، لا يمكننا التدخل ولا على اي مستوى ، او حلقة من حلقات تطورها ، من حيث كونها كنتيجة ، او كسبب ، تشكل حلقتين في المستوى المناقش ، كالادراك المسبق لبعض التحركات العفوية الكتلية (طبقية ، قومية ، انسانية) ، ويتمتع هذا المستوى بمقومات عدة ، يغلب عليها الطابع الوصفي لإمكانية الكتلة الاجتماعية من ناحية خصائصها الاجتماعية والنمطية ضمن المقطع الزمني المحدد .

٣ ـ المستوى الارادي للنتاج الثقافي :

ويقصد بذلك جملة القيم الثقافية (مادية وروحية) المنتجة بشكل مرتبط بوعي وارادة الجماعة والفرد ، وتتحدد عمليات النتاج ، عبر معادلات العلاقة بين المحتمل والممكن ، والسبب والنتيجة ، فالادراك الواعي للانخراط ضمن آلية الانتاج ، ضمن موقع محدد من الملكية والعلاقات الاجتماعية ، مما يدفع الى وجود صيغ الاحتمالات الرياضية للمفرز (بفتح الراء) . نستثنى منه ما يقع ضمن المجموعتين (١) و (٢) الواردتين اعلاه ، فتزداد قيمة المحتمل الباقي ، بحيث تقدم الجماعة (أو الفرد) فعلها الواعي ، والارادي ، باتجاه توفير شروط تحقيقه ، فيتحول الى ممكن ، فمحقق :



وتتوافق شروط التحقيق مع سمات التمايز الانساني ، الوطني ، القومي، الطبقي . اما تحويل الممكن الى محقق ، فيتحدد بطبيعة الطبقات والشرائح السائدة ، أو ، مدى تمايز العامل الوطني (القومي) ، فقد تتوافر شروط التحقق لثقافة ما ، لكن تلك الثقافة تبقى مقهورة ، وهذا مرتبط بقدرة العوامل الذاتية لكل امة أو طبقة ، على نقل المحتمل الى ممكن ، والممكن الى محقق . يضاف الى الحالة الفرديةلهذا المستوى من النتاج الثقافي عامل الصقل الجمالي اما على مستوى الطبقة او الامة ، فيضاف عامل التمايز الايديولوجي .

وهنا يبرز دور الانتلجنسيا التي تعبر عن وجوب الممكن القومي / او الطبقي .

انطلاقا مما سبق،مع الاقتران بالثقافة كمجموعة القيم الروحية والمادية التي تخلقها الانسانية او الامة ، او الطبقة ، في سيرورة العملية التاريخية الاجتماعية، والمميزة للمرحلة التي وصلها المجتمع في تطوره ، وهذا يعني ، ان الشق الروحي / المعرفي / بما يحمل من امتلاك شامل ، وابداع متطور ضمن حقائق الموضوعات الطبيعية والاجتماعية والانسانية ، لا يمكن ان يكون معزولا عن الشق المادي (العلاقات الاجتماعية ، النعوت النمطية ، التطور التقني ... / جملة القيم المفروزة من خلال عملية الانتاج الاجتماعي /) يمكننا أن نميز ثلاثة مفاهيم ، او معان للمثقف ، كوحدة البناء الحية العضوية ، لعملية النتاج الثقافي .

١ ـ المعنى العام للمثقف :

وينطوي تحته كل فرد من الامة ، او الطبقة ، لان الثقافة ، لا بد ايضا ان تترجم الى فعلمادي منتج ، يغير العلاقات المادية الاجتماعية ، ويحقق معنى التملك الفعلي للوطن بحيث يتداخل وجوده كمنتج ثقافي لمجموعة القيم المادية (مثقف عام بتعبير غرامشي) مع وجوده كحاضنة استقبال تعمل على اعادة انتاج ، وتطوير ومعاملة النتاجات ضمن شكلها كقيمة روحية ، ونقلها الى مرحلة الفعل المادي .

٢ ـ المعنى الخاص للمثقف :

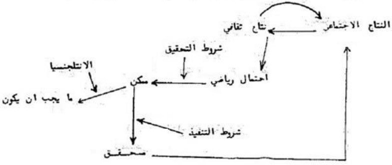
وهو الذي يتدخل في عملية انتاج الثقافة بشكل فعال / وهو هنا يختلف تماما عن المثقف المتخصص عند غرامشي ومحمود امين العالم / فاذا كان

عندهما يعني المتخصص في مجالات الادب او التعليم ، فهو هنا كل من يتدخل بشكل فاعل في نقل سويات النتاج الثقافي من مستوى الى آخر ، وبكل قيمه المادية والروحية :

آ ــ من مستوى النتاج المستقل عن الوعي ، الى حالة الوعي المستقل عن الارادة ، اي ، ادراك المستوى الاول ، اما بالمفهوم الجماعي او الفردي .

ب ــ من المستوى المرتبط بالوعي ، لكنه مستقل عن الارادة الى المستوى الارادي ، ايضاً حسب المقولة الجماعية والفردية .

ج ــ وضع العفوي المستقل عن الوعي ضمن دائرة الاحتمالات ، اي نقله الى حالة الادراك ، ومن ثم نقل الاحتمال الى الممكن ، فالمحقق . وهنا يبدأ انتعارض بين ما هو قائم ، وما يجب ان يكون / اي ، بين ما هو محقق ، وما يجب ان يكون محققا / وذلك عبر المنظومات المعرفية للطبقة او الامة او حتى الشريحة التي ، تكمن مصلحتها في ما يجب ان يكون . وتتمثل تلك المنظومات المعرفية في علاقة تكامل وتداخل عضويين ، كحالة خاصة من المعنى الخاص للمثقف ، يمكن ان نطلق عليها تسمية الانتلجنسيا ، ولا يمكن تقزيم هذا المصطلح بان نعرف الانتلجنسيا بتوفر معياري التحصيل العلمي والعمل الذهني ، او بتحقق شرط العمل الذهني ، بل ، على الرغم من شغلها لوضع انتقالي وسيط في البنية الاجتماعية للمجتمع الانتقالي ، وبالتالي ، تعتبر حلقة انتاجية ثانية في البنية الاجتماعية ، لان ارتباطاتها بعلاقة الملكية وبتوزيع الثروة الاجتماعية في البنية الاقتصادية المتعددة الانماط ، يحمل طابعاً غير مباشر ، ويأتي في مرحلة تالية(٤) الا انها تشغل الموقع المقرر لعلاقات التناقض القائمة .



اي ، يمكن تبسيط ذلك بما يلي :

ــ المثقف بالمعنى العام : هو كل فرد ينتمي الى جماعة بشرية ، ومنخرط في عملية الانتاج الاجتماعي .

ــ المثقف بالمعنى الخاص : باني القيم والتقاليد الثقافية .

ــ الانتلجلسيا : صاقلة القيم والتقاليد الثقافية .

والسويات الثلاث متداخلة فيما بينها ، كما انها متداخلة عضويا وموضوعيا مع الكتلة .

والتمييز المطروح هنا ، لا يتطابق ولا يتقاطع مع مفهوم النخبة المعزولة عن كتلتها ، والتي ، لا يمكن ان تكون موجودة في واقع الحال والمجتمع . وهكذا فان سلاحها ووسائطها في النضال القومي والاجتماعي مرتبط عضويا وموضوعيا باسلحة ، وبرامج ، ومناهج ، الامم والشرائح والكتل ، الاجتماعية المنتمية لها . واذا كان بعض المفكرين قد اقترح بعض المعايير لقياس مدى ارتباط الانتلجنسيا مع كتلها المتداخلة معها ، الا ان تلك المقاييس سقطت امام عضوية الترابط وكشف، وتعميم الانتلجنسيا لكل كتلة اجتماعية وعياً لدورها وسماتها، عبر السيرورة الخاصة لها نفسها ، وذلك في كل المجالات .

ب ــ الفراغ المجتمعي وازدواجية العلاقة ــ

ادت الظاهرة النفطية ، وضمن علاقة تطوير وسيلة الانتاج ، والعلاقة الاجتماعية ، الى تفكيك البنى التقليدية للعلاقات الاجتماعية ، بتحليل روابطها، ليس فقط في الاقطار العربية المنتجة للنفط ، بل ، وفي الاقطار الاخرى التي، اما لاسباب ، او لاخرى ، تلقت مساعدات مالية ضخمة ، او ، عبر انتقال اليد العاملة العربية عبر الحدود ، فظهرت في الاقطار النفطية :

١ ــ الشريحة الانتاجية . اي ، التي تبيع قوى عملها / وهي قوى وافدة بمعظمها / ، لا يلعب موقعها بالنسبة لملكية وسيلة الانتاج ، أو مدى تطورها التقني ، اي دور في شكل العلاقات الاجتماعية . وعلى الرغم من تراكمها الكمي ، لكنها بقيت دخيلة على الروابط المجتمعية (علما ان الدور الاجتماعي لهذه الشريحة ، هو الذي يسم الروابط المجتمعية بسماتها ، وبموقعها من ملكية تطور وسائل الانتاج ، وذلك ، في المجتمعات التي تكون فيها هذه الشريحة من صلب الكتلة المجتمعية ، وليست وافدة بالمفهوم البنائي للكتلة الاجتماعية) .

٢ ــ الكوادر التكنوقراطية : وهي وافدة ايضا ، ولكن ليس من الدول العربية بمعظمها ؛ وليس من احياء التوتياء والجوع فيما شابهها من دول العالم الثالث . بل ، من اكثر الدول الصناعية الغربية تطورا . وبالرغم من أنها كانت تحصل على القسم الاكبر من فائض قوة العمل ، الا ان دورها ، اقتصر على التسيير التقني ، دون التدخل في العلاقات المجتمعية .

٣ ــ الكوادر الادارية : وهي إما وافدة من خارج الوطني العربي او مزيجة ؛ او محلية . وشكلت مع سماسرة قوة العمل الوافدة ، ضمن تأمين الحماية القانونية للعمال المستوردين ، وسماسرة شركات التقنيات المتطورة ، شريحة طفيلية محلية ، غير مرتبطة تاريخيا باي إرث مجتمعي ـ انتاجي ، فاحدثت داخل المجتمع ، شكلا من اشكال انفجارات الثراء الكاذب ، غير المرتبط بتطور قوى انتاج مواز ، فاحدث خللا فراغيا في بنى العلاقات المجتمعية، مفككا إياها ، مدمرا التواصل التاريخي لآليات انتاج القيم الثقافية ، بشقيها الروحي والمادي : فمن الناحية التقنية وقيمها ، لا تملك تلك الشريحة الطفيلية غير القدرة على امتلاك التقنيات بدون انتاج ، حالة فكرية موازية ، تقنيةخالصة او ثقافية ناتجة ، فكل ما يهمها ، الربح السريع الهائل ، الذي ، قد يصل الى (٨٠ ٪) في بعض الحالات(٥) .

٤ ــ **الشريحة الكومبرادورية** : ان الزبد النفطي الثرائي ــ فائض العمولات الضخمة ، والذي ، لم يستثمر في بناء ثورة تقنية ؛ مع توظيف انتاجي استثماري واسع يشغل القوى المنتجة في عموم الساحة العربية ضمن صيغة توازن وحدوية استراتيجية ، دفع الى امتلاك كل ما انتجته الماكينة الصناعية من سلع استهلاكية من اوربا الغربية وامريكا وحتى اليابان وغيرها ، مما ادى الى مطر سلعي يبدأ باحدث السيارات (حتى تلك التي لم تكن قد استخدمت في بلد التصنيع) وحتى العطور ، وانواع العلكة ، والمياه الغازية، مرورا بالمفروشات والاطعمة والادوات الكهربائية والالبسة ..... الخ . كل ذلك انشأ ما يسمى شريحة الكومبرادور (توكيلات الاستيراد ، وسطاء الاحتكارات العالمية ....) بسوياته الكبير والمتوسطة والصغيرة .... اما موظفو الادارات والاجهزة الحكومية ، فقد تلقوا الفائض النفطي بزيادة الاستهلاك السلعي ، وحتى اولئك الذين ينتشرون في مواقع الرعي والانتاج الزراعي .

وهكذا تفككت البنى الاجتماعية ، بدءا من العلاقة مع وسيلة الانتاج ،

وانتهاء بارقى اشكال وقيم التعبير الثقافي ، وذلك ، بسبب سيادة الشكل الطفيلي اقتصاديا .

اما الدول العربية اللانفطية ، فلم تترك بمعزل عن تاثيرات الظاهرة النفطية ، فصدرت قوة العمل التي ، عايشت آلية الانتاج ، وعاملت وسائله انطلاقا من مواقع الاغتراب الاجتماعي / اي ، بدون التاثير على العلاقات الاجتماعية / في الدول النفطية . اما في بلدانها ، فقد حققت ثراء غير مستند على آلية انتاجية مرتبطة به (جيوسكانيا) ، اي ، غير مستند على علاقات انتاج موازية ومماثلة ؛ فتركت قوة العمل المصدرة ، خارج التعريف والتاثير النمطي للاقطار المصدرة لها ، ودفعت بعمولة غير مستندة على ارضية انتاجية، الى سوق استهلاكي واسع في موقع غير ذاك الذي ، انتج وسائله ، ووظفت خارج استثمارات انتاجية ، ضمن آلية طفيلية نموذجية ، بحيث وزعت رؤوس الاموال على الشرائح الوهمية للهرم الطفيلي في البلدان غير المنتجة للنفط ، وذلك ، بما يلائم قدرتها على الدخول في امتصاص الفائض الاقتصادي الناتج عن فوضى الانتاج الراسمالي . فالواقع في هذه الاقطار انتج الهرم الطفيلي ، الاسفنجي القوام ، الذي ، يمتص ويتشرب من كل الشرائح الاجتماعية ، بدءا من الراسمالية (الصناعيـة !!!) التي ، اتجهت نحو الراسمال الطفيلي ، وانتهاء بحثالة البروليتاريا ، وحفارة الريف والمدينة ، ومنادي العلكة والدخان المهرب ، مرورا بالكومبرادور ، ومكاتب السمسرة العقارية والمقاولات ، والشرائح التكنوقراطية العسكرية والمدنية .

فاذا كانت كل الاقطار العربية تتصف وقبل الظاهرة النفطية بالتعددية النمطية(٦) ، مع عدم وجود غلبة وهيمنة لنمط على آخر (الانماط القديمة التقليدية / اقطاعية ، رعوية، عشائرية / الانماط البرجوازية / المانيفاكتورية وحتى الراسمالية / وملامح نمط القطاع العام ، وراسمالية الدولة / الا انها افترقت في بعض السمات مع بداية الحقبة النفطية ، فاذا كان التمركز النمطي يسير في الاقطار النفطية باتجاه مركزة بورجوازية بيروقراطية اكثر استقرارا ، وتعتمد على بلعمة الراسمال المحلي وشرائح الاقطاع التاريخي مع فئات رؤوساء العشائر والقبائل في جبهة البرجوازية الاحتكارية الاجنبية ، فانها اتسمت بصعود عناصر من القاع الجماهيري المتعدد الانتماء للانماط المتعددة ، استطاعت انجاز غلبة نسبية ولمرحلة محددة فقط لنمط ملكية راسمالية الدولة . لكن ذلك

سرعان ما انتج شكلا من البرجوازية الطفيلية ، عاد وفكك كل اشكال التوازن وأوجه التطابق التي ، كان يمكن أن تتم بين علاقات الانتاج ، وقوى الانتاج ، عبر قطاع عام ، كان يمكن ان يشكل التعبير النمطي لثوورة اجتماعية تصنع العلاقات الاجتماعية في حالة توازن ما . أما المرحلة النفطية ، والتي ، مررنا على ذكر بعض سماتها فقدتميزت بصعود البرجوازية الطفيلية الهرمية الشكل في الاقطار العربية النفطية واللانفطية ، والتي ، تتميز بأنها :

١ ـ ناتج الفائض السلعي للسوق الاحتكارية العالمية ، وبالتالي ، فهي جزء من المنظومة الراسمالية العالمية ، وليست منظومة مستقلة بحد ذاتها .

٢ ـ تضم كل عناصر الراسمال الطفيلي من الاحتكارات الكبيرة ، وحتى مهربي العلكة والسجائر وجياع المدينة والريف ، وبداوة التهريب عبر الصحراء .

٣ ـ ليست ذات بنية افقية ، كما هي كل البرجوازيات التقليدية والشرائح الاجتماعية ، بل ، ذات بنية هرمية مكونة من تداخل شريحات افقية يصعب تحديدها .

٤ ـ لا تملك وسيلة انتاج ، فهي تعتمد على فائض الراسمال الطفيلي ، وبالتالي ، لا يمكن تحديد وضعية ما ، لعلاقة طبقية اجتماعية بالنسبة لوسائل الانتــاج .

٥ ـ تنقل الصراع من مواطن × عدو قومي وطبقي ، الى مواطن × سلعة .

٦ ـ تحمل سمات من كل الانماط التي انحدر عناصرها منها ، وقد تكون من اكثر الانماط تاريخية ، كالنمط الرعوي ، والابوي مثلا ، وحتى اكثر الانماط معاصرة ، بل ، وحتى الملامح الشعاراتية المتطرفة جدا من النمط الاشتراكي .

٧ ـ تسحق كل اشكال التمايز الاجتماعي ، حتى البرجوازي التقليدي ، التي ، تطمح لاعادة انتاج رأس المال ، هادفة الى الابقاء على خلخلة كاملة وفراغ زمني من العلاقات المستقرة ، والتي ، توازن بين وضعية نمطية محددة ، أو ، تشكيلاتية ، وبين الشكل . الموازي لها من العلاقات الاجتماعية .

وهذا الهرم الطفيلي ، وانطلاقا من الارضية المدروسة اعلاه ، اصبح الاسفنجة التي تمتص عناصر من كل الانماط والشرائح الموازية في الاقطار النفطية ، وغير النفطية ، وبدأ يفرض (منظومة) من (القيم) الطفيلية الثقافية على الرغم من تواجد عدة انماط متداخلة عضويا مع هذا الهرم الطفيلي :

آ ـ نمط راسمالية الدولة ، ويدخل الآلية الطفيلية باتجاهين ، الاول : ان سلعته المنتجة تعامل ضمن آليـة الإحتكار السائد العام في فضل القيمـة السلعي ، الثاني : تشـكل الكوادر التكنوقراطية والادارية في هـذا النمط ، المدافع والباحث القانوني للبرجوازية لطفيلية .

ب ـ الراسمالية الزراعية : وهو نمط ما يزال في مرحلة اليفاعة ، تشكل كنتيجة لدمج مجموعة من رؤوس الاموال الاستثمارية ، وبدون ان يكون وضعا كميا متراكما ، خشية ظهور طبقة العمال الزراعيين ، وهو ذو مهمات قصيرة ، وهشـــة .

جـ ـ نمط الانتاج البضاعي : وهو من النمط الصغير في مجموعة من المؤسسات (المنتجة !!!) لبعض السلع الاستهلاكية اليومية ، مع شبكة توزيع في المدن والريف ، وهو غير مستقر في وضع سلمي ، بل ، ينتقل حسب حاجة السوق (فقد يهتم بتصنيع وتصريف الالبسة اليومية ، لينتقل غدا الى الادوية ، والى معاجين الاسنان والعطور بعد غد ......)

د ـ نمط الانتاج نصف الاقطاعي .

اما استثمارات القطاعات التجارية والصرفية ، والعقارات والمقاولات وتوظيف الراسمال الاجنبي ، فجميعها تشكل نقاط ارتكاز اساسية في الهرم الطفيلي ، وعلاقاتها (الانتاجية !) بكل سماتها ، جزء من علاقات الراسمالية الاحتكارية العالمية ، ولا تشكل نمطا متمايزا مستقلا .

نستنتج مما سبق ، ان المرحلة النفطية فككت الروابط المجتمعية ، والتي بحد ذاتها كانت هشة ، تفتقد للتوازن المجتمعي بسبب التعددية النمطية بدون التمايز ، اي ، ان المنظومات المحددة ، لآليات النتاج الثقافي بقيمه الروحية والمادية ، تفككت ، وتحللت الى بنى بدئية تخدم الآلية الطفيلية .

فعلى المستوى الفردي نلاحظ ان الفرد يتصف بما يلي :

١ ـ ازدواجية التجاذب :

فالفرد المنتمي للهرم الطفيلي مباشرة ، لا يتمتع بسمات ثابتة ، لوضعية ما ، ضمن علاقـات مجتمعية ، وبالتالي ، سـيكون مفرزه الثقافي ، وتلقيه التاريخي ضمن الوضع المنسجم معه ، فهو يحمل في داخله السمات ،والروابط الاجتماعية للشريحة التي شرقه منها الهرم الطفيلي . ومهما كانت هذه الشريحة،

فان هذا الهرم يحاول فرض النقيض ، بهدم والغاء ما يحمله العنصر المشروق ، وليس لهدف فرض مجموعة نظم ثقافية محددة ، فهو لا يحمل نظما ثابتة ، فنلاحظ أن الفرد من حيث العلاقات النمطية ، ووسائط التعبير عنها ، يعاني من حالة / الشيء والنقيض / على كافة سويات البنى النفسية ، فهو يعاني من ازدواجية التجاذب على مستوى بناء النظم الضابطة لسلوكه .

٢ ــ الازدواجية الطبقية :

نلاحظ ان نفس الفرد ينتمي الى شريحة العمال من جهة ، والى الفلاحين من جهة اخرى ، فما يكاد ينتهي من عمله في المصنع ، حتى يعود لممارسة الاعمال الزراعية ، ولكل من الانتمائين سماته المجتمعية المختلفة والنقيضة مع الآخر. وحتى عناصر الجيش ، فاما يمارسون أعمالا زراعية بعد انتهاء خدمتهم اليومية، أو اعمالا تجارية متنوعة في تصنيفاتها ، بدءا من قيادة سيارات التاكسي ،وحتى الانخراط في اعمال مكاتب العقارات والمقاولات .

٣ ــ الازدواجية النمطية :

ويقصد بذلك ، انتماء الفرد الى نمطين متميزين ، يتعايش معهما يوميا ، ولكل منهما صفاته وخصائصه .

٤ ــ الازدواجية المجتمعية :

ويتمتع بها فقط حملة قوة العمل الوافدة ، فهم ينتقلون من مجتمع يشكلون فيه قوة العمل المباعة دون الارتباط بوضعية انتاجية وعلامات اجتماعية محددة / أي ، من القاع المجتمعي / الى مجتمع يكونون فيه سادة السلعة الاستهلاكية ، فهم يستطيعون شراء اي سلعة ، والتزود بآخر معطيات الحضارة التقنية ، في حين يعودون بعد فترة الى القاع ، من القصر الى الغرفة الوحيدة المأهولة بأكثر من ستة عمال .... وبعد فترة تعود الكرة نفسها .

اذن ، الكتلة المجتمعية العربية تتميز بازدواجية انتماء افرادها ، وتتصف بالاضافة لذلك بما يمكن ان نسميه / الفراغ المجتمعي / والمقصود بذلك ، عدم وجود علاقات اجتماعية مرتبطة بعلاقات انتاجية ، وهذا الفراغ ذو مستويين، الاول : في الاقطار النفطية ، فيعاش الشراء دون علاقات انتاجية مرتبطة بقيم مجتمعية موازية لها . أما المستوى الثاني ، فيلاحظ في الاقطار اللانفطية ، وتخلقه قوة العمل المهاجرة التي تعيش بعد عودتها ، ظروفا مماثلة للشراء

النفطي ، وبنفس الموقع المجتمعي ، وهذه الظاهرة تحتاج للدراسة ، لان البنية المجتمعية بالاساس محكومة بمدى التوازن بين تطور وسائل الانتاج ، والعلاقات الانتاجية ، فاذا كان احد الطرفين منفيا بالمفهوم الرياضي والفلسفي ، واكدت عملية نفيه البرجوازية الطفيلية المشروحة سماتها أعلاه ، فعن أي بنى مجتمعية متوازنة يمكن الكلام اذن ؟! فـاذا كانت البنية الاساسية المكونـة لقوة العمل في الاقطار النفطية وافدة ، وعناصر قوة العمل ، هي التي تشكل قاعدة النتـاج الثقافي وساحة خلقه ، وتاثيره والتاثر به ، وهـي التي تعطي السمات الثقافية قيما (مادية وحضارية) لاية مجموعة بشرية ، فاذا كانت كذلك ، فما هـي المكونات الثقافية التي يمكن ان ينتجها الفراغ المجتمعي ؟ وكيف يمكن لاي فرد كمنتج ثقافي في هذه الحالة ان يكون منخرطا في آلية النتاج الثقافي وافراز المثقف بالمعنى الخاص ؟ وقد تكون ظاهرة الفراغ هذه ، غير واضحة في بعض الاقطار ، وبينة في بعضها ، أي انها تتراوح بين الخلخلة والفراغ . وهذا ما قد يوصل الى صيغة ما من الانهيارات ، وذلك ، اذا لم يتم بناء شكل ما للتوازن بـين القوى المنتجة والعلاقات الاجتماعية .

المواصفـات التكوينيـة

اكدنا سابقا ازدواجية انتماء الفرد ، فكيف تتعامل الكتلة مع مواصفات تكوين المثقف العربي ؟

١ ــ **ازدواجية اللغة :** اللغة ، هي المكون الاساسي للفعل الثقافي الناظم لعملية التفكير ، وحامل النتاج الثقافي بعناصره الجزئية وكليته . ذلك الحامل المتداخل عضويا مع المحمول ، بحيث لا يمكن عزلهما عن بعضهما . وبالتالي ، فان اللغة العربية شرط لازم ، ولكنه غير وحيد لتحديد المثقف العربي بالمعنى الخاص والانتلجنسيا ، فاذا قلنا بأن اللغة من حيث قدرتها الحدثية والدلالية، تصف الفرد المنخرط في النتاج الاجتماعي كمنتج ثقافي ، فانها بقدرتها التوالدية، يحملها المثقف بالمعنى الخاص ، الناتج الثقافي .

نلاحظ أن اللغة العربية لتعليم التراث والطقوس الدينية وادوات التعبير اللحظية ، اما اللغات الاجنبية فتستخدم للعلوم التقنية والاجتماعية .... منهم من يعاملها على انها عناصر موميائية ، وأجزاء من حصنٍ مقدس لا يجوز الاقتراب من مكوّناتها . وآخرون ، يعاملونها على انها متخلفة جدا ، لا يمكن ان تستوعب

نتاجات الحضارة العالمية ، فلقد خلقت للابل والصحراء ، فلا يمكن لها ان تستوعب الطائرة والبحر .

علما أن كل المهتمين بموضوع اللغة العربية ، يؤكدون على انها قادرة على استيعاب كل نتاجات الحضارة العالمية والعلوم الاجتماعية والانسانية ، وليس ذلك فقط ، بل انها قادرة على الخلق والابداع بهما بما تحمل في داخلها من قدرة دلالية وتوالدية وتصويرية ، لا تتمتع بها اية لغة اخرى ، لاية جماعة بشرية ، شريطة ان نعاملها كقدرتها على التطور والاحتواء والتفاعل والتوالد ، وليس كحصص مقدس ، والا ، فستبقى اللغة بازدواجية مرضية تشارك في تكويننا . وهذا لا يعني الغاء الآخر ابدا ، لكن الكتلة الاجتماعية المتلقية ، يجب الا تعاني من هذه الازدواجية ، ويجب ان تحسم المسألة لصالح لغة عربية نصحى ، متطورة ، قادرة على السبق والخلق ، وان يبقى المتلقي المزدوج في حالات خاصة لابد منها ..... وازدواجية اللغة في التكوين لا يعني ازدواجية التكوين ، بل ، يعني جزءا من كل . يطرح عبد الله العروي رأيه قائلا : «تحافظ جل البلاد العربية على منهجين مختلفين : منهج تقليدي يلقن بالعربية ويحفظ التراث في جامعات دينية ، او مدارس الحديث او معاهد الوعظ والارشاد ..... الخ ، ومنهج مهني متخصص يلقن جزئيا بالعربية ، وجزئيا أو كليا ، حسب الدولة ، بلغة اجنبية ، خاصة عندما يتعلق الامر بعلوم مستحدثة كالاعلاميات(٧) .

صحيح ان الانسان يجمع تجاربه السابقة بواسطة اللغة كمايقول سكونتيز في الانتربيولوجية الثقافية ، وبالرغم من انها ليست الوحيدة ، الا انها العنصر الرئيسي في التكوين ، وبغض النظر عن نقاط التقاطع والاختلاف ، الا انه من الواضح ، ان التراكمات المعرفية المرتبطة بارادتنا والمستقلة عنها ، والمستقبلة بشكل لا شعوري ، بالاضافة الى سيل المنبهات اللامحدودة ..... تحمل عبر حدثية اللغة ، والتحميل المزدوج، يخلق اكثر من هيكلية محورية في نمط التفكير .

وهذا لا يعني العداء للتحميل عبر اللغات الاخرى ، بل ، على العكس ، شريطة ان تتم صياغة منهجية العقل من خلال اللغة العربية ، كمكون اساسي للفعل الثقافي ، وذلك بما يخص الفرد والكتلة . لان الفرد هو منتج ثقافي كما قلنا وليس حاملا ثقافيا (كما يسميه الاستاذ عبداللهالعروي)(٨) ، فالحامل في هذه الحالة جزء من المنتج والعكس غير صحيح ، فالفرد والجماعة منتجون

ثقافيا ، ثم تتم صياغة هذه النتاجات بشكل قيم عبر السويات الثلاث المذكورة سابقا ، وتحمل بشكل ارقى على نفس عناصر النتاج بسوياتها ايضا ، بعد معالجتها ، وتعود الى الكتلة الاجتماعية التي تستقبلها بآليات ارقى من سويات النتاج نفسه وتدخلها متأثرة ومؤثرة ضمن الحلقة التاريخية لحلزون التطور الصاعد ؛ اي ، ان الكتلة التي تنتج القيم الثقافية ، تعود فتستقبلها بصورة ارقى بعد ان يعالجها « المثقفون بالمفهوم الخاص » فتجري عليها صقلا ومعالجة جديدة ، منتجة قيما ثقافية (روحية ومادية) جديدة ، والا ، لما تركت الجماعات البشرية في النسق الانتربولوجي في تطورها المعروف ، ولبقيت ضمن اطر الحيوات الحيوانية ذات الوضع الجمعي الغريزي (كالنحل ، والنمل . . .)(٩). ومن البديهي جدا ملاحظة دور اللغة في عملية الانتاج الاجتماعي التي ، دفعت الجماعات البشرية صعودا في النسق الانتربولوجي .

٢ ـ ازدواجية العروبة / الاسلام ، العروبة / البربرية . . . :

حاول بعض المفكرين العرب(١٠) ، اتهام المشرق العربي ، بازدواجية العروبة الاسلام كعنصر مكـون لمواصفات المثقف العـام والخاص . وكيفما ترتبت هذه العلاقة (العروبة / الاسلام) فستبقى مكونة فاعلة مزدوجة ، وليست ذات منحى واحد ، مادامت لم تتحرك هذه العلاقة باتجاه الاحتواء وضمن الصياغة الوطنية ، لان ذلك هو الكفيل بنقل هذه الازدواجية الى قوة مكونة واحدة ، ذات اتجاه واحد ، وبالغاء التأثير المزدوج ، حتى اذا وافقنا ذلك الراي نحو مشرقية تأثير هذه الازدواجية ، الم تطرح بدائل لها في المغرب العربي لاتقل عنها خطرا ، العروبة / البربرية ، العروبة / الفرنسة . . . ؟؟

على الفعل هنا ان يتناسب مع الطموح المستقبلي ، انطلاقا مما هو قائم ، ومما تم التأثير من خلاله في بناء المواصفات التكوينية للفرد والجماعة . فعندما تكون العروبة مجموعة القيم الروحية الواسمة للفرد والجماعة العربيين ، المميزة والضابطة لسلوكهما ، من خلال اللغة العربية ، وطرائق التفكير وعبر الطموح لتحقيق واقع مادي وروحي يعطي هذه القيم امكانية التطور والنمو نحو المطلق اي الممكن ، انها الهوية الوطنية الحضارية لمجموعة بشرية ضمن الكتلة الانسانية، تسمها منذ تشكلها ، ومتطورة ابدا / اما الدين ، فهو احد اشكال الوعي الاجتماعي اي ، ان المقولة الاولى مكونة مرتبطة بكل تاريخية الجماعة البشرية ، وما حملت في داخلها من انماط ، واشكال معرفة ووعي اجتماعيين ، في حين ، ان الدين هو احد اشكال الوعي الاجتماعي الواسع لمرحلة ما ، اي انه

احد اشكال النتاجات الثقافية الضابطة لسلوكية الفرد والمجموعة البشرية ، بما يتناسب مع بنى تحتية محددة . لكن الواقع ، وضمن سيرورة تاريخية طويلة ، وعبر مميزات السلطات الشرقية / اكثر تمايزا في مرحلة الاحتلال العثماني / وضع الاسلام بشكل مواز ونظير للعروبة ، بدلا من ان يكون عنصرا مكملا ، فبدلا من أن يكون العنصران ضمن مجموعة احتواء واحدة ، بحيث يحتوي الاسلام في الحالة الاشمل ـ العروبة ، وفي آلية مكونة ذات اتجاه واحد ، طرحا كعنصرين متناحرين بشكل تأثيرهما ازدواجية مكونة ، اما في المناطق التي لم تنطرح فيها هذه الازدواجية بشكلها السابق (إن وجدت تلك المناطق) فقد طرحت بنماذج جديدة كالعروبة / المسيحية ، العروبة / المارونية ، العروبة / البربرية . . . الخ .

٣ ـ ازدواجية البداوة / المدنية :

ليست البداوة تداخلا للنمط الرعوي والابوي فقط ، ينسحب بشكل ثابت على كل المراحل التاريخية ، بل ، هي من ناحية ثانية ، جملة ناظمة مسلكية محددة ، تتقاطع في داخلها عدة عناصر ثقافية ووسائط تعبير ، وبنى فوقية متكاملة ، واشكال وعي اجتماعية ، تشكل بمجموعها منظومة متكاملة واسعة لنمط محدد .

اما المدنية ، فهي بدورها منظومة واسعة لتمركز النتاج الاجتماعي ،المتمتع برقي تقني عال ، ونتاج ثقافي متطور .

المدنية في تأثيرها التكويني على الفرد العربي ـ كمنتج ثقافي ، ذات بنية استهلاكية مباشرة (واستهلاكية هنا ، لا تتطابق مع طفيلية) ، أي اننا نعيش المدنية كتوسع اسمنتي ، وتقنيات كمبيوتر متطورة ، لا نملك من قيمتها الا احتوائها ، كل ذلك على ارضية من البداوة التجهيلية ، وليس البداوة الانسانية المؤصلة لقيم ثقافية تضع الانسان قيمة اولى فوق كل القيم . وبنفس الوقت نقل البداوة الى مدنية استهلاكية ، تناقضات بنائية متناحرة تشارك في تكوين الفرد والفرد المنتج (بفتح التاء) المتناقض في بناء الثقافية ، ينتج مؤلوات متناقضة وهكذا .

٤ ـ ازدواجية الاصالة / المعاصرة :

لا اقصد بهذه الازدواجية ، السوية الداخلية المقولة كما يطرحها المفكرون بل ، اقصد النتاج الاجتماعي ـ الثقافي المرتبط بطرفيها ، والمشارك في تكوين الفرد ـ المنتج الثقافي ، والذي ، تتعامل شخصيته مع المؤثرات عبر كل المستويات بحيث يبدو هذا الفرد المنتج واقعا تحت تأثير فعل ماض مضيء ببعض جوانبه ،

يسقط كل مقولاته على حاضر اكثر تعقيدا ، وفعل حاضر متعدد المهمات والوجوه فقد يرى بعضهم أن في حياة السلف الاجابات الكاملة على كل اسئلة الواقع الحاضر والمستقبل ، وقد يرى آخر ، أن الاجابة على اسئلة الواقع الحاضر قائمة في الحاضر نفسه ، أو ، في الغير . وتطرح هذه الازدواجية ، ثنائيات أخرى متعددة ، كما يسميها الاستاذ محمد عابد الجابري ، ثنائية السلفية / الليبرالية الماضي / الحاضر ، ... الخ . وهذه الازدواجيات ، بما تحمله من جزئيات ضوابط مسلكية (عناصر ثقافية) ، وبحث عن أجوبة تساؤلات الواقع المادي (القيم المادية للثقافة) ، فانها تقوم بتكوين متناقض بنائي يشارك في خلق العنصر الشيء ونقيضه ، كغيره من الازدواجيات التي نتطرق اليها .

٥ ــ ازدواجية الشرق / الغرب :

اقتحمت هذه الثنائية عملية التكون عند الانسان العربي منذ بداية الثورة الصناعية ، وعندما اندفع كي يلحق بها ، واكتشف عجزه الذاتي ، عبر آليات التغييب والقمع ، رفع شعاره المعروف ، في أن الغرب العقل ، والقلب الشرق. وعلى الشرق أن يدخل في زواج كاثوليكي كقلب مع العقل الغربي ، كي تبق الارض دوارة حول محورها وحول الشمس . وطرح لاحقا ، بعد ظهور الكنوز النفطية / المال والقلب من الشرق والعقل من الغرب / ... وكاننا امة تستطيع ان تبكي ، وتفرح ، وتحب ، اكثر من غيرها لا اكثر ، أو ، أن تملأ جيوبها بنقود النفط ، أما أن نصنع حضارة تقدم قسطنا الجديد للانسانية من خلالها ، فنحن اعجز من ان نفكر بذلك ، لاننا نملك القلب فقط ... !!؟ . من الواضح ان الوضعية النمطية السائدة تاريخيا ، وعمليات التدنيف القسري للكتلة العربية ، دفعت العقل الحضاري العربي ، كقيمة جمعية ، الى الوراء ، نسبة للعقل الاوروبي . لكن تجاوز تلك الاسباب عبر نقلة موضوعية تعيد لهذا العقل (كقيمة جمعية) ، ليس فقط امكانية اللحاق بركب الحضارة العالمية ، بل ، وامكانية التجاوز أيضا ، لا تتم الا عبر النفي المطلق للجانب الاخر من المزدوجة في الفعل الثقافي ، من خلال جوانبه المتعددة ، ودفع هذه المواصفة التكوينية باتجاهالتاثير الاحادي (وليس المزدوج) .

٦ ــ ازدواجية العقل / التسليم (العقل / النقل) :

يقال بأن طبيعة العقل العربي (والعقل هنا ، هو مقولة جمعية ذات صياغة محددة لتفاعلات العناصر الداخلية للجماعة البشرية ومعالجاتها فيما بينهما ومع

البيئة المحيطة ، بحثا وراء ارقى النماذج في التعامل والمعالجة لمشاكل ومسائل الفرد مع الجماعة ، والجماعة داخليا ، والفرد والجماعة مع الطبيعة واسئلتها) تتميز باكتسابها لصفتي ، التسليم مأخوذة من الديانات الشرقية (الهندية ، الصينية ... الفارسية) والمنطقة / التفكير / مأخوذة من الحضارة اليونانية ، وبانه استطاع ان يمزج بينهما بعد ظهور الاسلام . يقول د. زكي نجيب محمود (... اهم المعالم التي تميز الثقافة العربية وحدها ، وهي درجة الدمج بين العملية العقلية ، والنبضة الوجدانية في كيان واحد)(١١) . فازدواجية طرائق مقاربة المشاكل المطروحة امام الفرد العربي بينة تماما ، بين ما يجب ان يأخذه كمسلمة غير قابلة للمنطق ، وكمنطقة تضع مقدمات وسيرورة ونتائج متجانسة ، والتسليم ، مهماكانت خدمته للفرضياتالمحددة ، الا انهلا يسمح بدخول مفهوم المنطقة . وقد قالوا (من تمنطق تزندق) ... اي أن هذه الازدواجية تترك الفكر مخلخلا ، غير ثابت القوائم ، لان العقل البشري ، وضمن قدرته التطورية الجمعية ، يخضع حتى ابسط المسلمات لمقومات المنطق ... فكيف لا تكون النبضات الوجدانية جزءا من العملية المنطقية ؟؟!! وكيف استطاعوا شرخ هذا العقل الى عقلين ، من خلال ازدواجية تأثير لا يمكن ان تفرز الا لصالح التسليم والنقل ؟؟ .

٧ ــ ازدواجية القطر / الدولة ، التجزئة / الوحدة :

ان اي قطر عربي ، مهما كبر او صغر ، يفتقد الى مقومات الدولة الاساسية ورغم ذلك ، تحاول كل دولة ، حتى ، وهي في حالة نزاعها المستمرة ، ان تظهر بمظهر الدولة المتكاملة . فتبدو كفزاعات الحقول ، اي انها تشكل وهم الدولة على الساحة الدولية . اما من الناحية العملية ، فلا يتعدى وجودها الشكل المعقد من اشكال التنظيم الاداري ، وفي معظم الاحيان ، الشكل القسري لتجمعات بشرية لا تمتلك اكثر من مقومات الدول البدئية . واذا كان هذا الواقع المرئي معاشا ضمن صيرورة تاريخية ، يعبأ فيها الفرد على ضرورة الانطلاق نحوالدولة الاوسع (دولة الوحدة) مع تدمير كل عناصر الانطلاق المادية ، بحيث تخضع لتأثير ازدواجية واقع التجزئة / واقع الطموح ، امكانية القطر / امكانية الطموح ويتلو ذلك مجموعات ضخمة من النظريات المؤدلجة لكل من طرفي المزدوجة .... فيبدو الفرد من حيث الطموح ، يعيش دولة متكاملة لها اسسها ومقوماتها الحضارية ، ومن حيث الواقع ، فهو يتعامل مع كيان قسري لدولة وهمية .

٨ ـ ازدواجية الوطن / المذهب ، الطائفة ، القبيلة :

يتميز واقع الفراغ المجتمعي الذي افرزته البرجوازية الطفيلية اللامنتجة ، بصيغها واشكالها المختلفة ، بطرح الصراعات العمودية ، وتعميقها ، لتغطية الصراعات الاجتماعية ، ذات المستوى الافقي ، او ، لتغطية ودفن معالم الصراع مع العدو الوطني والقومي ، فظهرت بالتالي طريقتان في المقاربة التربوية ، الاولى وتعتمد على باطن خاص باولوية المذهب او القبيلة ، أو الطائفة ، وتطرح هـذه الاولوية بشكل فاشي ، وسري وشبه فردي . اما الثانية ، فتعتمد على اظهار اولوية المعنى الوطني العام .... وكلما كانت معالم الفراغ المجتمعي أكثر وضوحا كلما بدت بينة علامات الطريقة الاولى من الازدواجية ، بحيث قد يطمح البعض ضمن ذلك الفراغ الى اسقاط مقولة الوطن على القبيلة ، او ، المذهب .... بحيث يصبح الوطن هو الطائفة ، جغرافيا وبشريا ، او العائلة او ، القبيلة ، او ، المذهب .

ـ مفاهيم اولية للمعالجة ـ

نلاحظ مما سبق ، ان الانتماء الاجتماعي ذو نمطية مزدوجة ، ضمن البنى المتحركة لعلاقات اجتماعية متوازنة مع تطور وسائل الانتاج ، اما في الحالات الاخرى ، فهو يعاني ازدواجية في فراغ مجتمعي .

بالاضافة الى ذلك ، لاحظنا ان العناصر المكونة للفـرد المنخرط في الالية الانتاجية ، هي عناصر ، ذات فعل ثنائي تناحري احيانا ، فاذا كان الواقع هكذا كيف يمكن ان نخرج كمثقفين في المفهوم الخاص ، وان نخرج الامة ، ومن خلالها كل فرد من حالة الفصام المشخصة التي يعاني منها كل منا ؟؟

للاجابة على هذا السؤال ، لا بد من ادراك الجانب التابع ، حتى ضمن الشخصية الازدواجية وعناصرها البنائية ، والذي ، يدركه ويبحثه الدكتور عبد الخالق عبد الله(١٢) ، حيث يستنتج اربعة عناصر في التبعية الثقافية هي : العنصر الاول للتبعية الثقافية ، هو الجانب الفكري والايديولوجي المبني على المذهب التنموي ، وما يعنيه هذا من تأقلم ، وليس التحرر من واقع التبعية . العنصر الثاني : هـو الجانب السلوكي المتمثل في نشر النزعة الاستهلاكية الترفيهيـة ، التي ، تؤدي الى زيادة استيراد السلع المصنعـة من الدول الرأسمالية . العنصر الثالث ، الجانب العلاقاتي الاجتماعي المتجسـد في تحكم

الطبقات الحاكمة المحلية في عملية الانتاج الثقافي ، وتسخير المؤسسات الرسمية لنشر الثقافة التنموية والاستهلاكية .

اما العنصر الرابع ، فهو العنصر التقني الخارجي ، والذي ، يعني تعاون الشركات الاحتكارية المتحكمة في مصادر المعلومات والانباء ، ومراكز التعليم ، مع الطبقات الحاكمة المحلية في نشر ثقافة راسمالية تجارية وتغريبية .

وهنا يبدو واضحا تماما ، ان الوضع الفصامي الذي يعاني منه الفرد العربي ــ المثقف ، ليس مستقلا في تطوره ، بل ، ان فصاميته جزء من البنية المقصودة في طموح العالم الامبريالي الاحتكاري ، لايجاد الحلول والمخارج الدائمة من مآزقه التاريخية المتتالية .

اذن ، فرضت التحولات المجتمعية التي حدثت في الوطن العربي منذ الحرب العالمية الثانية ، وحتى الآن ، وضعا فصاميا كاملا على مستوى الافراد ــ المثقفين ، في بناهم الذاتية ، وعبر ازدواجية تابعة ، اي ، فصاما على مستوى الانتماء في الوحدات العالمية ، وفصاما على مستوى الانتماء في الوحدات الوطنية .

فكيف يمكن للانتلجنسيا الاكثر ادراكا لهذا الوضع المرضي ان تصفه وتشرحه ، من ثم كيف يمكن للمثقف (بالمفهوم الخاص) ان يدرك واقع النتاج على ارضية الشيزوفرينيا ، فيشغل كل آلياته في الصقل والمعالجة ، واعادة انتاج المفرز الاجتماعي . وهنا ، تبدو المهام موزعة على مستويين اساسيين :

الاول ، ويقصد به اقامة نظم مفاهيم جديدة ، تنتقل من حيز الطرح العام ، الى الفكر المنطقي النقدي ، فصيلغة النتائج ، وتحويلها الى بدهيات في سلوك الجماعة ــ ويشمل ذلك محاور مركزية في مقاربة المسائل التي تخص مباشرة الارضية التي تقف عليها الازدواجيات الفصامية .... (الخاص والعام ، الوطني والقومي ، الذاتي والموضوعي ..... الخ) .

اما المستوى الثاني ، ويقصد به الوسيلة اللازمة لاقامة نظم ومفاهيم المستوى الاول ، وتتعلق هذه الوسيلة بتداخل عدة عوامل وعناصر يمكن تعدادها :

آ ــ الانتلجنسيا والمثقفون بالمعنى الخاص .

ب ــ التمايزات والتداخلات الطبقية،وسرعة انجاز البناء الطبقي المستقر .

جـ - تكون البنية الشعبية العربية الواحدة النظيرة للنظام العربي الواحد.

د - المخارج المتاحة لازمات العالم الاحتكاري الرأسمالي .

هـ - استقرار الخطوط البيانية للتناقضات الداخلية في حركة التحرر .

اما بالنسبة للمستوى الاول فيتم عبر مراحل عدة ، اولها أزمة الفكر : اي ، عندما يفقد الفكر كمكون جمعي منطقية السياق ، بما يتناسب مع طموح ونمو الجماعة البشرية ، والمقصود بذلك ، تجانس الفرضيات والمقدمات مع السيرورة والنتائج ، وتجانس النتائج مع البعد الهدفي للجماعة البشرية (الشعب العربي) عبر موقعها الحضاري . ومن الواضح تماما ، ان هذه المرحلة ، ان لم نقل أنها معاشة في قمتها ، فالفكر العربي يعيش بداية أزمته ، تتلوها مرحلة السؤال التاريخي ، لأن مهام الفكر ، الدفاع عن وجود الجماعة البشرية ، ومحاولة ايجاد الوسائل اللازمة للتلاؤم والتأقلم مع الوسط المحيط والطموح الحضاري .

من داخل السؤال التاريخي تنشق المفهومية ، ومنها الافكار المجردة ، فلسفة الفكرة ، ومنطقتها ، اسئلة الفكرة ، مرحلة النقد ، تبسيط الايصال . من ثم تتحول الى عنصر في السلوك الاجتماعي .

بشكل عام ، يجب على الفكر العربي ، وعبر ازمته التاريخية ، ان يحدد الاشكاليات والمسائل القائمة ، من ثم عليه تحديد وصياغة الاجابة ، التي يعبر عنها بنظم مفاهيم جديدة .

١ - الذاتي والموضوعي :

على الفكر العربي أن يوضح ويحدد الذاتي الخاص بالنسبة للفكر ، وان يحدده ايضا بالنسبة للحركة المجتمعية . فالذاتي الخاص هنا ، ليس المجموع الجبري او الحسابي لمنهجيات التفكير المنفصمة اساسا ، وليس المجموع الحسابي لاعمال المفكرين ، وليس الذاتي ، هو تكديس طرائق مقاربة الواقع . الذاتي الفكري الخاص هنا ، هو المنهجية النقدية المقاربة (بكسر الراء) لواقع موضوعي ، افرزها وأنتج اسئلتها ، انه التداخل العضوي النقدي الجدلي لمجموعة اساليب التفكير ، وصولا الى برنامج واحد متكامل ، يحدد ذاته الخاصة كمنهجية تفكير تعتبر موضوعها اسئلة الواقع والفكر العربيين ،

والتغييرات المجتمعية ، وصولا الى حل اشكالياتها في بناء الدولة العربية الواحدة ، ذات الموقع الحضاري المتميز انسانيا .

اما الذاتي العام ، فيحدد شروط انتاج الفكرة من الواقع ، اي موضوعها ، عبر العلاقة الجدلية ، من ثم البحث عن اداة التنفيذ ضمن الكتلة الاجتماعية . وعلى الاداة هنا ، الا تعالج الواقع بنفس اعراضه المرضية .... مثلا ، ما هو ذاتي بالنسبة للواقع المجتمعي في الجزائر ، ليس موضوعيا لما هو ذاتي في تونس ، فعندما نقارب العوامل الذاتية في تونس على انها موضوع لما هو في الجزائر ، ونحاول ايجاد عناصر التطور ضمن هذا الواقع ، فهذا يعني ، اننا نبحث عن الدواء في مفرزات الداء ومظاهره ، ان ما هو ذاتي في قطر عربي ما ، هو ذاتي لقطر آخر ، وليس بمنظور الاسقاط التاريخي للمقطع الزمني الحالي، لان الذاتي الراهن مرضي ، او هو ناقص بأقل تقدير . والموضوعي لأي قطر ضمن تداخله عبر شروطه مع العوامل الذاتية ، هو موضوعي للقطر الآخر . ومن هنا يبدأ الفكر بطرح اسئلته ، ما هو الذاتي ؟؟ وما هو الموضوعي ؟ لان الخلط بين ما هو ذاتي ، وما هو موضوعي يفقد فكر ادواته ومنهجيته ......

فلا يمكن ان نخلط الذاتي كحامل لفعالية التأثير والمعرفة ، وكمصدر لقوى الفعل على الموضوع ، مع ساحة عمله التي هي الموضوع نفسه . وهو هنا ليس الواقع الحقيقي بكل سماته ، بل ، بالجانب الذي يؤثر ويتأثر بالذاتي . في واقع نقاش المثقفين في تونس ، مثلا ، لظاهرة التبعية الثقافية / كصفة موضوعية / عبر ازدواجية تكون اللغة ، منهجية المثقفين في التأثير على الموضوع ، هو ذاتي أيضا بالنسبة للمثقفين ، حتى في الامارات العربية . اما الفراغ المجتمعي العربي المناقش فهو موضوع .

٢ ـ الخاص والعام :

من المقولات الاساسية في نظام المفاهيم الواجب بناؤه فكريا ، مقولة الخاص الواسم لعنصر ما ، او ، لجملة ، في معزل عن العلاقة بالنظيرة ، وقد يصبح عاما بالعلاقة مع نظير آخر . وهذه المقولات يثبتها الواقع المرضي عبر الغاء الخاص للعام احيانا ، ودخول العام مكان الخاص بشكل كامل احيانا اخرى ...... فرنسي مثلا ، هي سمة عامة (عام) لكل فرنسي ، ولكنها تصبح خاصة (خاص) بالنسبة للاوروبيين ، واوروبي ، التي تدخل بموقع العام

بالنسبة للفرنسي ، تصبح (خاصا). بالنسبة للبشر بشكل عام . والخاص لا يتطابق مع الذاتي ، بل ، هما مفهومان مختلفان ، ولا يشتركان في شيء . فالخاص مثلا ، قد يكون مجموعة الصفات الواسمة لعلاقة الذاتي بالموضوعي والسمات الذاتية ، وآلية إنتاجها عبر تأثرها بشروط الموضوعي . والخاص في البنى المجتمعية يأخذ سمته ضمن علاقته بالعام ...... وبالنسبة للتطبيق على الواقع الفكري ، فان الواقع الثقافي المرضي المعاش ، يشير الى ان ما هو قطري يعتبر عاما بالنسبة لخاص مرضي ، كالمذهب ، والعائلة ، والعشيرة... والعام القطري خاصا بالنسبة لعام أشمل ، هو حدود النظام العربي بمقوماته ، والذي ، يعتبر خاصا بالنسبة لدول العالم الثالث ، او الدول الافريقية ، والآسيوية ...... الخ .

يجب على الفكر العربي ، وعلى منظومته المرجوة أن تحل اشكالية الخاص عبر العنصر الثقافي العربي ، بتعدد سماته ، متداخلا ومكونا خاصا ، هو العنصر الاصفر ، والذي ، لا بشكل عاما ، الا ، عبر تداخل القوى والشرائح المجتمعية العربية في صراعاتها وتداخلاتها الافقية وهذا الخاص ، ذو مقومات موضوعية موجودة ، ولكنه يحتاج الى صقل ومعالجة . وهو ليس نقيضا للقطري ، بل ، ينسفه ويلغيه ، بحيث يحدد الخاص بمنهجية جديدة ، ويصبح مكونا جديدا . وهذا لا يعني القفز فوق الواقع / القطري / ، لكن هذا الخاص ينتج من معالجة ومعاملة ، وصقل مقولات ومقومات الواقع ، فيدخل (العربي) خاصا جديدا على انقاض الخاص المرضي الحالي ، ويفقد موقعه كعام بالنسبة لاي عامل داخلي آخر ، لان « العربي » حاليا هي العام بالنسبة للقطري « الخاص » ، والقطري ، عام بالنسبة لانتماءات متشعبة مرضية أخرى .

هذه هي بعض السمات الاساسية للفصام الثقافي ، وتلك بعض اسباب الفراغ المجتمعي العربي فهل تستطيع الثقافة العربية تجاوز ازمتها وحل اشكاليات التوازن المجتمعي ــ الثقافي المطلوب ؟

د ــ جمال الدين خضور

حمص ــ ١٩٩٠

الهوامش :

(١) دراسة من عدة فصول ، تناقش الاسباب الطبقية لظهور الثقافة الطفيلية ، وسمات هذه الثقافة ، وتتمحور مقدمة هذا الفصل ، الذي يشكل الخامس منها ، حول شرح بعض النقاط في دراسة نشرت في مجلة « الناقد » اللندنية ، العدد /٢٤/ الصفحة /٥٦/ وهي بعنوان « الحداثة والثقافة الطفيلية » ويكملها فصل اخر نشر في دورية عربية اخرى « مجلة الهدف » وهو بعنوان (الحداثة و ...... بؤس الثقافة) رقم /١٠١٤/تموز ١٩٩٠ .

(٢) تفصيل لمقدمة مقتضبة ، نشرت في الفصل الاول من الدراسة المذكورة وهو بعنوان (الثقافة الطفيلية ... و « طفيلية الثقافة ») ، مجلة الهدف ، العدد /٩٧٠/ تاريخ ١٩٨٩/٨/١٢ ، د. جمال الدين خضور .

(٣) د. يمنى العيد ، في معرفة النص ، دار الآفاق الجديدة ، ص ـ ٢٥٩ .

(٤) ترجمة شوكت يوسف ، المثقفون والتقدم الاجتماعي ، عدد من المؤلفين ، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ، ص /١٨/ و /٢٠/ .

(٥) تركي علي الربيعو ، ملف النفط والمجتمع العربي ، مجلة « الوحدة » العدد /٣/ الفكر العربي في عصر الثروة النفطية ، ص /١٠١/ .

(٦) علي شاش ، البنية الاجتماعية ـ الاقتصادية في البلدان المتخلفة ، مجلة دراسات عربية العدد /١٢/ ، السنة ٢١ ، ص /٤٨/ .

(٧) عبد الله العروي ، ثقافتنا في ضوء التاريخ ، دار التنوير ص /١٧٢/ .

(٨) المصدر السابق .

(٩) ترجمة د. رباح النفاخ ، اسس الانتربولوجيا الثقافية ، ميليفيل وسكوفيتز ، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ص /٢٣/ .

(١٠) محمد عابد الجابري ، المثقف العربي والسلطة ، وقائع حلقة الرباط ، الدراسة ٤/٥ ص/ ١٢٢ ، ايار ١٩٨٥ .

(١١) د. زكي نجيب محمود ، حول العقل العربي والثقافة العربية ، المستقبل العربي العدد /١١٤/ ص /١٢١/ .

(١٢) د. عبد الخالق عبد الله ، التبعية والتبعية الثقافية ، مناقشة نظرية ، المستقبل العربي ، العدد /٨٣/ ص /١٥/ .

* * *

الدراسات والبحوث

الاقتصاد العربي وتقسيم العمل الدولي في الثمانينات

د. عارف دليلة

يقول برتولد بريخت ، الكاتب المسرحي ، في مسرحيته « دائرة الطباشير القوقازية » :

« كل شيء ملك لمن يجعله افضل ، الود للقلوب المحبة لكي ينمو سعيدا ، والسيارة للسائق الماهر ، لكي لا تحيد عن الطريق ، والوادي لمن يرويه .

لكي تتفجر الارض حواليه عن فاكهة طيبة » .

هذا القصد الجميل عند هذا المفكر الانساني التقدمي يتحول الى قصد قبيح شرير لدى القوى المهيمنة على النظام الاقتصادي العالمي الذي نعيش محكومين بشروطه الوحشية ،

فلــان حال الراسمالية العالمية يقول : « لا تفرط بشيء مما تملك واقتسم مع غيرك ما يملكه » (١) . هذا هو المبدأ الذي تتمسك به البلدان الغنية في تعاملها مع البلدان الفقيرة بخصوص جميع منجزات الحضارة الانسانية ، وبالاخص منجزات الثورة العلمية ــ التكنولوجية المعاصرة .

الثورة الصناعية الاولى وتشكل التقسيم الراسمالي الدولي للعمل :

حتى الثورة الصناعية الاولى التي تميزت باختراع الآلة وانتشار الانتاج الآلي في اواخر القرن الثامن عشر ــ الربع الاول من القرن التاسع عشر ، لم تكن هناك فجوة نوعية في التطور بين بلدان آسيا وشمال افريقيا والبلــدان الاوربية . ففي عام ١٧٧٠ كان الناتج الوطني بالنسبة للفرد الواحد في أوربا حوالي ٢١٠ دولارا ، بينما كان في ما يسمى اليوم بالبلدان النامية بحدود ١٧٠ دولارا .

وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر قاد محمد علي تجربة تنموية نهضوية جادة في مصر . لكن سيطرة أوربا الغربية ــ انكلترا بالاخص ــ على الثورة الصناعية احاطت محاولة محمد علي ومثيلاتها بقيود التبعية واجهضتها ، « لان كل مشروع تم اعتماده وكل اقتراض مالي قد عمل على زيادة التبعيــة والاعتماد على اوربا » كما يقول الدكتور انطوان زحلان (٢) . فالمشروعات المنفذة لم تفعل اكثر من توطين المنتج في المنطقة العربيــة مع تركيــز العلــم والتكنولوجيا المرتبطين بهذا المنتج في ايدي الشركات الاوربية . وحتى احتلال مصر عام ١٨٨٢ يرجعه انطوان زحلان الى افلاس السياسات التكنولوجية التي اتبعها الذين تولوا تحديث الوطن العربي . والامر نفسه ينطبق على تجربــة التصنيع التي قادها طلعت حرب وبنــك مصر ما بين ١٩٢٠ و ١٩٤٠ مــن هــذا القــرن .

(١) محمد بجاوي ، مراحل نظام اقتصادي دولي جديد ، تحديات جديدة للقانون الدولي ، اليونسكو ، ترجمة الدكتور جمال مرسي وابن عمار الصغير ، الجزائر ١٩٨١ ، ص ٣١٤ .

(٢) انطوان زحلان ، البعد التكنولوجي للوحدة العربية ، طبعة ثانية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٩ .

بعد اقل من قرن من بدء الثورة الصناعية ، اي في عام ١٨٧٠ وصل نصيب الفرد من الناتج الوطني في اوربا ٥٥٠ دولارا ، بينما انخفض في العالم الذي يسمى اليوم بالعالم الثالث الى ١٦٠ دولارا . وبمضي قرن آخر ، اي في عام ١٩٧٠ ، اصبح الناتج للفرد في العالم الاول ٢٥٠٠ دولار ، وفي العالم الثالث ٣٤٠ دولارا فقط .

ان الانفجار الاخير للفجوة بين العالمين يعتبر نتاج احتكار الغرب للثورة العلمية ـ التكنولوجية المعاصرة . ونستطيع القول ان العقدين الماضيين قد ضاعفا من نصيب الفرد من الناتج الوطني في اوربا اكثر من اربعة اضعاف ، مقابل اربعة اضعاف خلال القرن السابق كله ، بينما لم يتضاعف نصيب الفرد من الناتج الوطني في العالم الثالث مرة واحدة .

يقول الاقتصادي الهولندي البارز ، حائز جائزة نوبل ، يان تنبرجن في التقرير الثالث لنادي روما « ان كافة القارات النامية كانت تصدر الحبوب قبل الحرب العالمية الثانية اما اليوم فهي جميعها تستوردها » ويضيف تنبرجن « اذا لم يتم اتخاذ اجراءات في الوقت المناسب في هذا المجال فان حزمة متواضعة من القمح ستغدو على ما يبدو اداة جبارة للنضال الاقتصادي . اما ملايين الجائعين في افريقيا وآسيا فسيكونون بيادق في اللعبة السياسية الدولية . وفي تقرير لوكالة المخابرات المركزية ... يشار الى ان الفوائض الغذائية الاميركية تضمن الحق في التحكم بالحياة والموت وتتيح سلطة فعلية على مصائر الجماهير البائسة »(٢) .

ولنعرف معنى تحذير تنبرجن نذكر بان حوالي ٧٠٠ مليون انسان في البلدان النامية يعانون الجوع ، من ضمنهم ٣٠ ٪ من الاطفال دون العاشرة ، ويشكل هؤلاء ٣٢ ٪ من السكان في الشرق الاوسط و ٣٠ ٪ في امريكا اللاتينية و ٥٤ ٪ في افريقيا ، ويصاب بالعمى سنويا ربع مليون طفل بسبب نقص الفيتامين (آ) في غذائهم اذ ان ٧٠ ٪ من اطفال العالم الثالث يعانون من سوء التغذية الذي يودي بحياة ٤٠ الف طفل يوميا في العالم . ويعاني مليار انسان في العالم من الامية . « ونجد امامنا ملايين الناس في العالم الثالث يعملون عملا

(٢) يان تنبرجن ، اعادة النظر في النظام الدولي ، التقرير الثالث لنادي روما ، موسكو ، ١٩٨٠ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

شاقا تحت أشعة الشمس الحارقة من الصباح حتى المساء لقاء اجور زهيدة لكي يموتوا قبل الاوان دون ان يدركوا لماذا عاشوا على هذه الارض» كما يعلق تنبرجن ايضا ، وبالمقابل ، فان الفرد الواحد من البلدان الراسمالية المتطورة يستهلك ما يزيد ٢٠ مرة على ما يستهلكه الفرد في البلدان النامية (٤) ، وتستهلك الولايات المتحدة لوحدها ، اكثر من ٤٠٪ من الموارد الطبيعية العالمية بينما لا يزيد سكانها عن ٥٪ من سكان الارض . وتتفاقم المشكلة البيئية لتزيد وضع الفقراء سوءا . فالصحارى تهجم على السهوب والسهوب على البراري والبراري على الغابات . وتتشكل سنويا صحارى اصطناعية نتيجة نشاط الانسان تزيد مساحتها عن ٩ مليون كم٢ . وفي آسيا يدمر سنويا ١٥ مليون هكتار من الغابات . وتواصل الاحتكارات الغربية نشاط المستعمرين السابق ليبلغ ما اهلكته من الغابات ما بين ١٩٣٠ ــ ١٩٧٠ حوالي ٣٠ ٪ من مساحة الغابات في آسيا . وفي ساحل العاج في افريقيا انخفضت مساحة الغابات من ١٥ مليون هكتار في مطلع القرن الى ٤ر٥ مليون هكتار عام ١٩٨٢ . ومع انحسار الغابات تتزايد الفيضانات في مناطق العالم الثالث المتكوبة . ومع قيام الاحتكارات الدولية بنقل الصناعات الملوثة الى العالم الثالث تحل محل السماء الصافية غيوم الدخان ، وتباع ارض الوطن مدافن للنفايات التي تهدد امكانية الحياة للاجيال القادمة .

فما هي الاسباب والعوامل ، ومن هي القوى المسؤولة عن ايصال العالم الى شفى الكارثة ، والقاء شعوب العالم الثالث في هذا الجحيم المستعر ؟ وهل كان ذلك كله نتيجة تطور عفوي وطبيعي ام كان بشكل اساسي نتيجة نشاط منتظم توجهه قوى معينة لتحقيق مصالح شريرة خاصة على حساب المصالح الانسانية ، عامة ، وعلى حساب مصالح الشعوب والجماهير المستلبة في كل مكان من العالم ، بالدرجة الاولى ؟ وكيف ، وبأية آليات جرى تقسيم العالم الى سادة اغنياء واتباع ضعفاء ؛ وما هي العلاقة بين هذا التقسيم داخل المجتمع الواحد وعلى النطاق العالمي ؟ وهل هناك مخرج من هذا التقسيم ، وبالاخص في ظروف انهيار كتلة النظم التي كان يطلق عليها اسم العالم الاشتراكي ؟

(٤) حسب رئيس البنك الدولي : « فاننا نجد في صناديق القمامة (للدول الغنية) ما يكفي لانقاذ المليار من الفقراء الذين يولدون ويترعرعون ويموتون في ظروف لا انسانية » (لوموند ، ١٩٧٧/٥/٢٨) .

كان روبرت مالتوس وديفيد ريكاردو وجون ستيوارت ميل قد ادركوا في النصف الاول من القرن التاسع عشر ان النظام الرأسمالي القائم لا بد ان يصطدم بحدود للنمو والتطور ، وحاولوا البحث عن مخارج للنظام من مآزقه ، اما ان تكون عفوية فتكون كارثية (الحروب والامراض والكوارث الطبيعية عند مالتوس) ، او مخططة فتؤمن السير الامين للنظام (الامتناع الطوعي عن الزواج او الانجاب والتكاثر من قبل الفقراء ، والاسراف في الاستهلاك من قبل الاغنياء حسب مالتوس وبعض الكينزيين ، او وصول الرأسمالية الى الحالة السكونية التي يتوقف عندها الربح ونمو الانتاج حسب ريكاردو وجون ستيوارت ميل ، وقد اصبح ذلك مطلبا في تقارير نادي روما وبعض المفكرين الغربيين الذين ينادون بوقف النمو ، او النمو صفر) .

ولئن كانت الحربان العالميتان الاولى والثانية افظع تحقيق للكارثة المالتوسية ، الا ان النمو الرأسمالي لم يتوقف ، واستطاعت الرأسمالية ان تتجاوز مخاطر الوقوف في الحالة السكونية وذلك بواسطة انتشارها وهيمنتها عالميا ، وبالاخص بواسطة النهب الوحشي للموارد الطبيعية وللثروات المنتجة في العالم الثالث على مدى قرون عديدة من الاستعمار ، هذا النهب الذي تزايد كثافة بعد سقوط النظام الاستعماري العالمي .

قدرت خسائر البلدان النامية في مطلع الثمانينات مع البلدان الرأسمالية المتطورة كما يلي :

ـ تدهور حقيقي في شروط التجارة	٣٠ ـ ٣٥ مليار دولار
ـ تدفق الارباح من الاستثمارات	٢٠ ـ ٢٥ مليار دولار
ـ خسائر ناجمة عن اسعار التحولات فيما بين الشركات التجارية	٣٥ ـ ٤٠ مليار دولار
ـ ثمن التكنولوجيا وبراءات الاختراع	١٢ ـ ١٧ مليار دولار
ـ مدفوعات فوائد واقساط الديون	٢٣ ـ ٢٨ مليار دولار
ـ نزيف العقول والعمال	١٥ ـ ٢٠ مليار دولار
ـ خسائر اخرى	٥ ـ ١٥ مليار دولار

مجموع خسائر الدول النامية في سنة واحدة ١٤٠ ـ ١٨٠ مليار دولار

ويمكن ان نضيف الى الخسائر السابقة ما يلي :

- الخسائر الناجمة عن الرسوم الحمائية التي يضعها الدول الغربية على المنتجات المصنعة في البلدان النامية ؛ وقدرت عام ١٩٧٩ بـ ٦ر٥ مليار دولار .

- خسائر الدوول النامية الناجمة عن تدهور قيمة العملات ، وقدرت عام ٧٩ — ٨٠ بـ بـ ١٢ مليار دولار .

وفي مطلع الثمانينات اصبحت البلدان النامية مصدر تدفق مالي صاف للدول الرأسمالية المتطورة ، وقد بلغ في عام ١٩٨٨ حوالي ٤٠ مليار دولار ؛ وفي عام ١٩٨٨ بلغت مدفوعات الديون من البلدان النامية ١٦٠ مليار دولار ؛ وذلك حسب تقديرات منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية .

ان النهب الاقتصادي يحل محل النهب الاستعماري المكشوف .

وتتحول شعوب العالم الثالث الى اجير لدى الرأسمالية الاحتكارية الدولية وهذا العمل المأجور هو اسوأ اشكال العبودية . انه عبودية متسترة بالاستقلال الاجوف ، وتبعية ذليلة كاملة وراء المظاهر الخداعة للعلاقات المتكافئة بين الدول .

في بحث سابق(*) كنت قد صنفت اشكال النهب الاستعماري الى ثلاثة اشكال متتابعة تاريخيا :

الاول هو النهب المباشر المكشوف الذي كانت جحافل الغزاة الاستعماريين تستولي عليه بالعنف والمتمثل بالثروات الجاهزة . فالاقتصادي الالماني ارنست كومل يقدر بانه خلال الفترة ١٥٠٠ — ١٨٠٠ انتقلت الى القارة الاوروبية كمية من الذهب المنهوب من المكسيك والهند الغربية وبيرو ونيوجرينادا وتشيلي والبرازيل تعادل ٦٢٢٨ مليون مارك ذهبي ، وهي الكمية المنهوبة من المناجم والمغتصبة من الاهالي والمسروقة من المعابد .

اما الشكل الثاني للنهب الاستعماري فقد اسميته النهب التبادلي . فمع نضوب الثروات الجاهزة للنهب المباشر انتقل المستعمرون الى اسلوب النهب التبادلي ، وذلك لتحفيز الشعوب المستعمرة على انتاج وتقديم ما يحتاجونه من سلع وذلك مقابل اشياء لا قيمة حقيقية لها الا اشباع شهوات الفئات

المهيمنة على هذه المجتمعات . ولكن تطور النظام الاقتصادي الراسمالي في المركز اصبح يطرح ضرورة اقامة علاقة منتظمة مع المستعمرات فنشأ التقسيم الاستعماري للعمل ، والذي يمثل الشكل الثالث للنهب الاستعماري ، حيث اصبح المركز هو الذي يحدد ماذا يجب ان تنتج المستعمرات وتصدر ، وماذا يجب ان تستهلك وتستورد ، ووذلك من خلال التدخل المباشر في العملية الانتاجية في المستعمرات والاشراف المباشر على التجارة الخارجية وتوجيه الاستهلاك .

ولقد شبهت هذه المراحل الثلاث في تطور النظام الاقتصادي الراسمالي العالمي من حيث طبيعة علاقات الانتاج العالمية بمرحلة العبودية ، ومرحلة الاقطاعية ، والمرحلة الانتقالية من الاقطاعية الى الراسمالية ، فيتطور منظومة علاقات الانتاج الاجتماعية(١) .

في نظرية النظام الاقتصادي العالمي وتقسيم العمل الدولي :

كانت روزا لكسمبورغ ، المفكرة الماركسية الالمانية ، تعتقد ان استمرار نمو الراسمالية وتحقيق توازنها الاقتصادي غير ممكن الا من خلال توسعها وسيطرتها على بيئات غير راسمالية ، وذلك يتطلب جعل المناطق غير الراسمالية مناطق تبادلية ، ومن اجل ذلك فهي تعمل على تحطيم الاقتصاد الطبيعي واجبار السكان على دخول نطاق العلاقات النقدية ــ السلعية ، وتحويل الاقتصاد الى اقتصاد تصديري ، وتدعيم الملكية الفردية في هذه المناطق واغراقها بالمديونية الخارجيــة .

ويرى المفكر العربي المصري سمير امين بان التناقض الرئيسي في النظام الراسمالي هو التناقض بين المركز والمحيط ، وبما ان تاريخ الراسمالية يوحي بقانون تطور لا متكافىء ، فان تجاوز النظام لا يتحقق في مركزه وانما انطلاقــا من محيطه ، فالى اي درجة يعيش المجتمع على فائض ناجم عنه او على فائض قادم من مجتمع آخر ، وكيف يتوزع هذا الفائض ، هذا هو الذي يحدد الوجه الحقيقي للتشكيلة الاجتماعية ، بحسب سمير امين . وبما ان الفائض الاساسي للعالم العربي كان يأتي عن طريق التجارة البعيدة المدى ولم يكن يتولد داخل المجتمع ، فان تقلبات هذا الفائض كانت تترافق بتقلبات الحضارة والامة العربيــــة .

(*) (٦) انظر للمؤلف : بحث في الاقتصاد السياسي للتخلف والتقدم والنظام الاقتصادي العالمي، طبعة ثانية ــ دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص ٢١ .

ويرى الاقتصادي السوفييتي تشيبريكوف ان انتاج القيمة الزائدة لم يعد ممكنا الا في النطاق العالمي ومن خلال العلاقة بالعمليات الاقتصادية العالمية . واذا كانت البلدان النامية غير قادرة على تحقيق القيمة الزائدة من الخارج ، فيصبح مستحيلا بالنسبة لها تحقيق التراكم ، وفق هذا الرأي ، الذي لا يستند الى اسس متينة ، حسب رأينا .

كنا قد عارضنا هذه المواقف في مناسبة سابقة ، انطلاقا من مفهومنا للنظام الاقتصادي العالمي ، كنظام مستقل عن الانظمة الاقتصادية الجغرافية ــ القومية الملموسة ، معتبرين ان هذا النظام يتطور بقوانين موضوعية خاصة به ، ويمتلك مؤسساته الدولية التي تخضع لقوانينه ، وطبقاته العالمية ، وبالتالي يجب التمييز بين تناقضاته وتناقضات الانظمة الراسمالية القومية الملموسة القائمة في قاعدته ، ومؤكدين ، بالتالي ، على ان التناقض الرئيسي سواء بالنسبة لكل من الانظمة الملموسة او للنظام الاقتصادي العالمي يبقى تناقضا داخليا(٧) .

ان التقسيم الدولي للعمل شكل الاساس لنظام اقتصادي نوعي جديد يقوم فوق الانظمة الملموسة ولكنه يتشكل من العلاقات التي تقوم فيما بينها . واذا كان قانون القيمة هو القانون الموضوعي الذي يحكم الانظمة الاقتصادية البضاعية ، فكيف يعمل قانون القيمة في النظام الاقتصادي الراسمالي العالمي ؟

قدمت النظرية الكلاسيكية اهم المحاولات الاولى لتفسير التبادل الدولي وفق قانون القيمة . فعند ادم سميث يصبح التبادل الدولي ممكنا ومحققا لمصالح مختلف الاطراف عندما تتخصص كل دولة بانتاج المنتجات التي تكون الكلفة المطلقة لانتاجها لديها هي الاقل مقارنة بالبلدان الاخرى ، مما يؤدي الى زيادة الانتاجية ، وبالتالي الثروة والرفاه على النطاق العالمي ، ويحقق هذا التخصص تكافؤ المنافع بين اطراف التبادل .

اما ريكاردو فلم يكتف بنفقات الانتاج المطلقة لكل سلعة على حدة كأساس للتخصص الدولي ، بل طورها الى نفقات الانتاج المقارنة او النسبية ، والقائلة بان التخصص ممكن ويحقق مصلحة الطرفين حتى لو كانت النفقات المطلقة لكل السلع عند احد الطرفين اعلى من مثيلاتها عند الطرف الآخر ، وذلك اذا ما كانت التكلفة النسبية للسلعة المراد التخصص بها نسبة الى تكاليف السلع الاخرى عند الطرف الاول اقل من نسبة تكلفة انتاج هذه السلعة الى تكاليف

(٧) انظر كتابنا المشار اليه سابقا : الفصل السادس « حول مفهوم النظام الاقتصادي العالمي ».

انتاج السلع الاخرى عند الطرف الثاني . وفي هذه الحالة يحقق التخصص وفرا اجماليا لكل من الطرفين .

ان هذه النظرية ، بقدر ما هي مفيدة عند تطبيقها في اقتصادات في مستوى واحد او متقارب من التطور ولم تصل بعد الى المرحلة الاحتكارية ، بقدر ما هي كاذبة وضارة عند تطبيقها على اقتصادات ذات مستويات متفاوتة من التطور ، او اقتصادات ذات طبيعة احتكارية . ومقياس التطور هنا هو مستوى انتاجية العمل الاجتماعي . ان التخصص وتقسيم العمل بين الدول المتقدمة يحقق وفرا عاما في العمل الاجتماعي ويوزع منافع ارتفاع الانتاجية وانخفاض التكلفة بالتكافؤ ، بينما يؤدي في حالة العلاقة بين بلدان متقدمة وبلدان متخلفة الى نزيف مستمر للاقتصاد المتخلف يكرس ويزيد تخلفه ، لكي يتحول هذا النزيف الى تراكم لدى الاقتصاد الاكثر تقدما .

وعلى اساس نظرية القيمة القائلة بان القيمة تقاس بنفقات العمل الضرورية اجتماعيا فقد طرحت النظرية الماركسية مفهوم القيمة العالمية . وتقاس القيمة العالمية بنفقات العمل الضرورية عالميا لانتاج السلعة ، وهي متوسط كمية العمل المبذول لانتاج السلعة على النطاق العالمي . واخذا بالاعتبار لتفاوت انتاجية العمل بين الدول فان بعض الاقتصاديين يعترض على تفسير التبادل غير المتكافيء بانه مبادلة كميات مختلفة من العمل القومي ، حيث تتحقق خسارة بأيام العمل للطرف ذي الانتاجية الاضعف ربحا للطرف ذي الانتاجية الاعلى ، وانما يفسر التبادل غير المتكافيء بانحراف مستوى اسعار بيع البضائع القومية عن قيمتها العالمية . فالتكافؤ ليس كميات متساوية من العمل لمختلف البلدان وانما كميات متساوية من وحدات العمل العالمي(٨) .

وتبقى المسالة الاساسية هي : هل يمكن للدولة ان تحقق تركيبة معينة لمبادلاتها الخارجية تحقق لها اعلى مردود اقتصادي يمكن تحقيقه من عوامل انتاجها الداخلية وتحول دون نزح القيمة من داخل البلاد الى الخارج عبر التصدير او الاستيراد ؟ ان التناسبات القيمية والكمية للتبادل تقود الى انتقال القيمة بين البلدان على اساس تناسب مستوى انتاجية العمل ونفقات العمل الضرورية اجتماعيا لانتاج البضائع المتبادلة .

(٨) الاقتصاد التشيكي ، ميرفارت ، تشكل الاسعار في التجارة الدولية ، موسكو ، ١٩٦٢ .

لكن البعض ينكر ان يؤدي عمل قانون القيمة على النطاق العالمي الى تشكل الربح الوسطي على راس المال ، وذلك بسبب القيود على حركة رؤوس الاموال وقوة العمل بين الدول بخلاف ما هو عليه لامر داخل الدولة الواحدة . يضاف الى ذلك نشاط الشركات متعددة الجنسية التي تحرك رؤوس اموالها بين فروع الانتاج والبلدان على شكل عوامل انتاج او اموال او منتجات دون التاكيد على ربحية كل عملية على حدة ، وانما على الربحية الاجمالية النهائية للعملية او لمجموع العمليات .

ويلعب سعر الفائدة وسعر الصرف دورا هاما في التبادل الدولي . ففي ظل سيادة النقد الورقي يتحول النقد الى عامل نشيط في السياسة الاقتصادية يستخدم من اجل الحفاظ على تناسب معين بين مستويات الاجور ومستويات انتاجية العمل . فاذا ارتفعت انتاجية العمل في بلد ما بمعدل يزيد عن معدل تزايد الاجور فهذا يرفع القدرة التنافسية لصادراتها نتيجة انخفاض تكاليف الانتاج لديها عن تكاليف الانتاج لدى منافسيها . وهذا يؤدي الى ارتفاع التصدير والحد من الاستيراد وتحقيق فائض على حساب شركائها التجاريين واذا كانت الاجور ترتفع بمعدلات اعلى من معدلات ارتفاع انتاجية العمل فيمكن عن طريق تخفيض سعر صرف العملة الوطنية المحافظة بشكل مصطنع على القدرة التنافسية للصادرات .

لقد منع التقسيم الاستعماري الدولي الدول النامية من امتلاك ناصية الصناعة وفرض عليها تخصصا احاديا يرتكز على الخامات الطبيعية وبعض انواع المنتجات الزراعية وفقا لحاجاته ، وادام هيمنته على تحديد اسعار صادراته الى المستعمرات التي استقلت شكليا ، واسعار صادراتها اليه ، فكان يستولي على الفائض الاقتصادي الذي تخلقه هذه الشعوب من خلال نقص الاسعار : الاسعار التي تزيد عن القيمة بالنسبة لصادراته الصناعية ؛ والاسعار التي تقل عن القيمة بالنسبة لصادرات الدول النامية الى الدول الراسمالية . وبالفعل فان هذا التبادل كان يعوّض انخفاض معدل الربح في الاقتصادات الرأسمالية ويؤمن فرص الاستثمار المربح لرأس المال الفائض وفرص تصريف للانتاج الفائض .

ومع التطور المضطرد لقوى الانتاج الراسمالية والتمركز الهائل لراس المال والانتاج الذي يتخذ طابعا احتكاريا تحل النزعة التنافسية بين الاقتصادات والاحتكارات الراسمالية محل التنافس المحلي بين وحدات انتاجية متقاربة

كدافع لتطور قوى الانتاج . ويتأكد من جديد دور الدولة والسياسات الاقتصادية في حماية نظام الانتاج الرأسمالي وتأمين شروط استمراره ونموه . ولكن بمقدار تدويل الانتاج الرأسمالي بمقدار ما يتعمق الطابع التناقضي في السياسات الاقتصادية الرأسمالية بين المصالح القومية والمصالح فوق القومية .

الحماية الاقتصادية تعمل ضد البلدان النامية :

ان الاوضاع الحالية في التجارة الدولية هي نتاج التدخل الحكومي للدول الرأسمالية في الخمسينات والستينات في مواجهة نهوض البلدان النامية لانجاز تحررها الاقتصادي . وتبين الارقام التالية مقدار الدعم المقدم من الدول المتقدمة لانتاجها الزراعي ومقدار العبء الذي تتحمله البلدان النامية لمجاراة ومواجهة هذا الدعم بدعم انتاجها الوطني الزراعي ، الذي كان يفترض ان يحقق لها فائضا في التبادل الدولي لولا الدعم الذي تقدمه دول المركز الرأسمالي .

	الدعم (بالدولار للطن) ١٩٥٦ – ١٩٥٧	١٩٦٣ – ١٩٦٤
السوق المشتركة	٣٦	٥٣
بريطانيا	٤٧	٣١
الولايات المتحدة	٢١	١٨

وكان مقدار الدعم المقدم لكل طن من القمح في عام ١٩٦٩ – ١٩٧٠ كما يلي:

– الولايات المتحدة	٤٥ر٩	دولار اميركي
– كندا	٤٧ر٧	دولار اميركي
– استراليا	٦٠ر٣	دولار اميركي
– الارجنتين	٤٧ر٠	دولار اميركي
– السوق المشتركة	٩٤ر٨	دولار اميركي
– البرازيل	١٠٩ر١	دولار اميركي
– الهند	٧٤ر٦	دولار اميركي
– المكسيك	٧٣ر١	دولار اميركي
– المغرب	٨٧ر١	دولار اميركي
– تونس	٩٩ر٢	دولار اميركي

وفي عام ١٩٨٣ بلغ ما دفعته الولايات المتحدة لمليوني مزارع امريكي ٢٢ مليار دولار (١٠ آلاف دولار لكل مزارع كدعم مالي . ويقدر (كيميكل بنــك) الاميركي اجمالي الدعم المالي المقدم للمزارعين الاميركان عام ١٩٨٤ بحوالي ٦٠ مليار دولار ، اي ٣٠ الف دولار لكل مزارع بالمتوسط . وتقدم السوق الاوروبية المشتركة دعما لمزارعي دول السوق ، اضافة الى الدعم الذي تقدمه الحكومات . وتضمن الدولة اليابانية للمزارعين اسعارا لمنتجاتهم تزيد ٤٥ ٪ عن الاسعار العالمية . ويعتبر نصف سعر المنتجات الزراعية في دول السوق الاوربية المشتركة من الدعم الحكومي . وتعتبر هذه المشكلة احدى اهم المشكلات التي تناقش في اطار الاتفاقية العامة للتجارة والتعرفة الجمركية (الغات) .

ويكفي معرفة ان الحماية الموفرة للانتاج الزراعي في الدول الراسمالية تعادل ثلاثة اضعاف مستوى الحماية الموفرة للانتاج الصناعي والتي تقدرها منظمة الامم المتحدة للتجارة والتنمية (يونكتاد) بحوالي ٢٠ ٪ . وقد قدرت المنظمة ان تحرير ٤٦ سلعة زراعية مستوردة الى منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية يمكن ان يزيد تصدير البلدان النامية لهذه البضائع عن مستواهـا عام ١٩٧٧ بنسبة ٣٥ ٪ ويحقق لها ٣ مليار دولار من العملات الاجنبية ، وان الغاء التعرفة على استيراد عشر سلع زراعية يزيد الناتج المحلي في الدول النامية المصدر لها بحوالي ٥ ٪ .

ويمكن التاكيد بكل ثقة بانه لا توجد تجارة حرة بين البلدان الراسمالية المتقدمة ، هناك حيث يفترض ان الشروط اكثر توفرا لقيامها .

ويقدر انه في عام ١٩٨٤ كان ١٠ ٪ من التجارة الدولية يجري بموجب اتفاقيات(٩) تنص على تقييدات تجارية ، ويشمل ذلك ٣٨٪ من تصدير اليابان الى السوق المشتركة و ٣٢٪ من تصدير اليابان الى الولايات المتحدة ، وقدر في عام ١٩٨٧ بانه لو لم تكن اتفاقيات القيود على استيراد الولايات المتحدة للسيارات من اليابان لكانت اسعار السيارات اقل بـ ٥ر٤ ٪ وبالتالي فان الاتفاقيات حملت المستهلكين انفاقا اضافيا على شراء السيارات بحدود ٣١ مليار دولار بين عامي ١٩٨٠ ــ ١٩٨٤ ، وقدر ارتفاع اسعار السيارات في الولايات المتحدة بحدود ١٠ ــ ١٥ ٪ اذا قيد الاستيراد من اليابان بـ ٣ر٢

(9) Economics, A Biannual collection of recent german Contributions to the field of economic sciences. Volume 41, P. 14.

مليون سيارة ، و ١٥ — ٢٥ ٪ اذا كان اقل من ٢ مليون سيارة . لكن هذه القيود لم تحقق الاهداف المرجوة منها ، فلم تستطع مع عدد المشتغلين في الصناعات المحمية من الانخفاض ، اذ بلغ هذا الانخفاض في صناعة الفولاذ في السوق المشتركة ٤٢ ٪ وفي الولايات المتحدة ٤٥ ٪ ما بين ١٩٧٣ — ١٩٨٤ . كما ان حماية مكان العمل الواحد في صناعة السيارات الاميركية كلفت ما بين ٩٣ الف و ٢٥٠،٠ الف دولار . هذا اضافة الى ان الحماية من الاستيراد من بلد معين قد يستغل فورا من قبل بلد آخر .

ففي عام واحد (١٩٧٧) عندما اجبرت الولايات المتحدة اليابان على التوقيع على اتفاقية تسويقية بشأن تقييد تصدير التلفزيونات الملونة اليها ارتفع نصيب كوريا وتايوان من الاستيراد الاميركي من التلفزيونات دفعة واحدة من ١٥ ٪ الى ٥٠ ٪ . وتلجأ الدول التي تضطر لقبول تقييد صادراتها الى تعويض المستهلكين عن ارتفاع السعر الناجم عن التقييد بتحسين في النوعية أو الشكل ، لالغاء اثر ارتفاع السعر على الطلب على هذه المنتجات .

نظام راسمالي عالمي ذو وجهين واصلاح ذو اتجاهين :

يتسم النظام الراسمالي العالمي الراهن بسمتين : **التدويل والاستقطاب** . وبينما التدويل يوحد العالم فان الاستقطاب يقسم العالم الى اقسام متجابهة . والاستقطاب ناجم عن الطابع الراسمالي الاحتكاري للتدويل . فالاستقطاب والتدويل وجها عملة واحدة .

ان المستوى التقني ودرجة التركز التي بلغها الانتاج الراسمالي تفرض كضرورة موضوعية ادارة العمليات الاقتصادية العالمية ادارة مركزية .

ان التدويل المتعاظم يتخذ شكل توحيد النظام العالمي على اساس احادي الجانب وهو السوق . وهذا التوحيد « يضر بالمصالح الحيوية لجميع الشعوب ، آخذا بالاعتبار الصراعات الحامية التي ستنتجها بالضرورة هذه النظرة « الداروينية » للمنافسة من خلال السوق . فهو اذن يمثل حلا همجيا »حسب سمير امين . ويستنتج سمير امين من ذلك ان « احتمال صحوة اشتراكية على صعيد عالمي امر ممكن » .

واذا كان التدويل هو عامل قوة النظام الراسمالي العالمي فان الاستقطاب هو عامل ضعفه . يرى سمير امين « ان الاستقطاب خلق الشروط الموضوعية

التي جعلت من انتفاضة شعوب المحيط الرأسمالي ضرورة تاريخية لا مفر منها ... فالخيار بين الاشتراكية والهمجية يفرض نفسه هنا بأقصى قوته ... وبالتالي يتوقف مستقبل الاشتراكية على صعيد عالمي الى حد كبير على مدى قدرة شعوب الجنوب على مواجهة تحدي التوسع الرأسمالي (غير التكافيء بالضرورة) مواجهة ايجابية » . ويعرف سمير امين الاستقطاب بكون « اغلبية جيش العمل الفاعل تتواجد في المراكز بينما اغلبية احتياطي هذا الجيش تتراكم في المحيط ... حيث الانتقال من الجيش الاحتياطي الى الجيش الفاعل من خلال التصنيع لا يتم الا ببطء شديد وفي حدود ضيقة » . فالاستقطاب الذي يرافق التدويل الرأسمالي « لا يمكن ،حسب سمير امين : ان ينتج في المحيط الا الهمجية التي من تجلياتها غياب الديمقراطية ، وهو ناتج ضروري لمقتضيات التوسع الرأسمالي ... والتصنيع والتحديث في امريكا اللاتينية لم يؤديا الى دمقرطة النظم بل تحديث الديكتاتورية فيها » .

والحل لظاهرة الاستقطاب عند سمير امين هو « فك الارتباط ، اي الخروج من منطق التوسع الرأسمالي العالمي واعطاء الاولوية لمقتضيات تنمية وطنية واخضاع العلاقات الخارجية لمقتضيات هذه الخطة على عكس استراتيجيا « التكيف » التي تقوم على الانخراط في الاتجاهات السائدة عالميا ومحاولة الاستفادة منها »(١٠) .

لقد عرضت وجهة نظر سمير امين هذه باعتبارها تمثل النظر الاكثر راديكالية وشمولية لحاضر ومستقبل الرأسمالية والاشتراكية ، في عصر يتسم بالتهالك الاستهلاكي الآني ؛ يهرب فيه الناس من النظريات الكبرى والتصورات الشمولية والمستقبلية ليبحث فيه كل فرد عن حلول خاصة لمشكلاته الحياتية على حساب الآخرين ، ولتبحث فيه كل دولة عن حلول خاصة لمشكلاتها على حساب بقية الدول والشعوب .

ولا يخلو الفكر البرجوازي الغربي من البحث عن حلول للمشكلات المستعصية في النظام الاقتصادي العالمي ، وان كان يغلب على هذه الحلول الطابع الاصلاحي والجزئي . يدعو كل من المفكرين الفرنسيين فرانسوا والبرتيني(١١)

(١٠) سمير امين ، مستقبل الاشتراكية « الطريق » ، نيسان ١٩٩٠ .

(١١) فرانسوا بيرو ، « اقتصاد القرن العشرين » و « فلسفة لتنمية جديدة » البرتيني » التخلف والتنمية في العالم الثالث » .

الى اصلاح النظام الاقتصادي العالمي ، من خلال اجراءات اتفاقية معينة تشرف عليها هيئات عالمية ، لتقوم مثلا بتثبيت سوق المنتجات الاساسية ، بشراء هذه المنتجات وتخزينها او التعهد بشراء الانتاج المقبل ، وذلك مقابل خطط طويلة الاجل لتوفير مواد التجهيز للبلدان النامية تؤمن الاستقرار لانتاجها .

ويؤكد البرتيني « ان شروط النجاح من الصعب ان تتحقق بالارادة الطيبة للدول المعنية وبدون سلطة فوق الدول » والمخرج الوحيد من الصعوبات بالنسبة للعالم الثالث ، مادام لا يمكن وقف التقدم التقني الذي يجعل الدول المتقدمة اكثر استغناء من الدول المتخلفة ، يكمن بالنسبة لالبرتيني في « تنويع الاقتصاديات المتخلفة الآن بواسطة التصنيع وفي الارتقاء الى طراز جديد من التقسيم الدولي للعمل » .

ويرى البرتيني انه « ينبغي عدم الركون الى المبادلة الحرة ، بل بناء اقتصادات متكاملة توزع الاستثمارات والصناعات باتفاقات . . . فمن اجل حماية المصالح المشروعة للجميع وتجاوز المصالح الخاصة من الواضح تماما ان من غير الممكن تصور سياسة كهذه للتنمية العالمية في ظل حرية فوضوية للمبادلات . . . هذه السياسة تفترض بداهة ومقدما السيطرة على الآليات الاقتصادية وتجر بالنتيجة الى تقوية التخطيط » . ان البرتيني يدعو لبناء « اقتصاد دولي ذي طابع وظيفي » . . و « الاقتصاد الدولي الوظيفي لا يقوم اذا لم تتحقق اولوية السلطة السياسية على السلطات الاقتصادية » .

ويؤكد الاقتصادي راؤول بريبش انه « مع وجود قوى سوق غير مقيدة وسياسة تجارية ليبرالية تسمح لهذه القوى باللعب الحر لا يمكن تامين التوازن والمنافع المتبادلة في التجارة والنظام الامثل للتقسيم العالمي للعمل »(١٢) . وحسب جونار ميردال : « يلازم اللعبة الحرة لقوى السوق نزوع الى توليد التفاوت بين المناطق وكلما ازداد هذا النزوع ازداد البلد فقرا وهذان هما اثنان من اهم قوانين التخلف الاقتصادي والتنمية في ظل عدم التدخل الحكومي في الشؤون الاقتصادية » .

ويرى آرثر لويس ان كل المنفعة المستمدة من ازدياد كفاءة الصناعات التصديرية تذهب عمليا الى المستهلك الاجنبي ويعزو ذلك الى عرض العمل الريفي غير المحدود وتدني الانتاجية في القطاعات التقليدية .

ويلقي فرانسوا بيرو على الهيمنة الاجنبية المسؤولية عن تدهور مستويات المعيشة في البلدان النامية ، ويرى مينت ان التجارة لم يكن لها سوى تأثير

(١٢) راؤول بريبش ، نحو سياسة تجارية جديدة للتنمية ، تقرير مقدم الى السكرتارية العامة لمؤتمر الامم المتحدة حول التجارة والتنمية ، ١٩٦٤ .

حضاري ضئيل جدا على شعوب البلدان المتاخرة ما عدا خلق حاجات جديدة « ذلك » لان تبني عادات استهلاك الافضل هي دوما اسهل من تبني طرائق الانتاج الامثل » . والازمة ، حسب جوزيف كي زيربو ، ليست ظرفية كما يقول الاختصاصيون ، انها ليست بالدودة داخل الثمرة ، بل هي ثمرة الشجرة الراسمالية ، وهي ثمرة مرة » .

هذه بعض من الاراء التي تؤكد استحالة اصلاح تقسيم العمل الراسمالي الدولي ليخدم التنمية في البلدان النامية او يوقف تدهورها ، وذلك بالركون الى العفوية وقوى السوق الحرة ، وانما بالسيطرة الواعية على العمليات الاقتصادية وتفند هذه الاراء النظرية الكلاسيكية القائلة « بان التقسيم العالمي الحالي للعمل قد تطور على اساس الاختلافات الطبيعية في تكاليف الانتاج وليس كناتج مصطنع للكولونيالية حيث يتخصص كل بلد بانتاج تلك المنتوجات التي يستطيع انتاجها بادنى مستوى من التكاليف النسبية ، وان تقسيم العمل الدولي الحالي هو التقسيم الامثل وليس من الصحيح احداث اي تغيير فيه ، وعلاقات التجارة الخارجية التي تمثله جيدة بالنسبة لجميع البلدان ، بما فيها البلدان المتخلفة » . وتستخدم القوى الراسمالية المسيطرة ، وعلى راسها الولايات المتحدة الاميركية هذه النظرية للدفاع عن هيمنتها واحباط اي محاولة لاصلاح تقسيم العمل الدولي القائم ... وقد نجحت خلال العقدين الماضيين بافراغ فكرة النظام الاقتصادي الدولي الجديد من المحتوى الذي شحنت به في اواسط السبعينات .

عندما شعرت الدول النامية بانها تستطيع النهوض لاصلاح مواقعها في النظام الاقتصادي العالمي ونجحت في اصدار قرارات هامة من الجمعية العامة للامم المتحدة والمنظمات الدولية الاخرى تدعم حقوقها وتدافع عن مصالحها .

لقد بدات مطالب البلدان النامية بالتبلور منذ المؤتمر الاسيوي — الافريقي الذي انعقد في باندونغ عام ١٩٥٥ بمبادرة من خمس دول وحضور ٢٩ دولة ومن اهم ما جاء في البرنامج الاقتصادي والمطالب السياسية الصادرة عن ذلك المؤتمر : تطوير التعاون للحد من تقلبات الحركة التجارية واسعار المواد الخام ، وزيادة تصنيع المواد الخام وتوسيع صادرات السلع الصناعية ، وتشجيع التعاون المتبادل في مجال التجارة والعلوم والتكنيك ، وقد انعكست هذه المطالب في المبادىء العامة للتجارة الدولية التي تم اقرارها عام ١٩٦٤ في الدورة الاولى لليونكتاد ، ثم في بيان وبرنامج العمل حول اقامة نظام دولي اقتصادي جديد

الذي اقرته الدورة السادسة الخاصة للجمعية العامة للامم المتحدة المنعقدة عام ١٩٧٤ .

ومن اهم بنود برنامج النظام الدولي الاقتصادي الجديد المذكور :

« مساواة الدول في السيادة ، وحق تقرير المصير لجميع الشعوب ، وعدم جواز اغتصاب اراضي الآخرين بالقوة ، والسلامة الاقليمية وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الاخرى ، وحق كل بلد في اعتناق النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي يتناسب على افضل وجه مع تطوره الخاص ، وادانة التمييز العنصري ، والسيادة الكاملة لكل دولة على مواردها الطبيعية ومجمل النشاط الاقتصادي بما في ذلك التأميم ، وحق سائر الدول والشعوب الواقعة تحت نير الاحتلال والاستعمار والتمييز العنصري في الحصول على تعويض كامل لقاء الاضرار التي لحقت بمواردها الطبيعية ، والاشراف على نشاط الشركات العابرة لحدود عن طريق تدابير لمصلحة الاقتصاد الوطني على اساس السلامة الكاملة لكل بلد ، وتقديم المساعدة بدون اية شروط سياسية او عسكرية ، والتناسب العادل لاسعار الخامات والمنتجات الصناعية ، واعطاء حق الافضلية للبلدان النامية في جميع مجالات التعاون الاقتصادي الدولي ، واعادة بناء النظام النقدي الدولي بحيث يسهم في تطوير تدفق الموارد الى البلدان النامية ، وتامين وصول الدول النامية الى انجازات العلم والتكنيك المعاصرين وتشجيع نقل التكنولوجيا وانشاء التكنولوجيات الوطنية المناسبة لاقتصادات هذه البلدان ، وحل مشكلة المديونية . »

واذا اردنا ان نحدد جوهر هذه المبادىء فانها تتركز حول احداث تحولات ديمقراطية معادية للامبريالية في العلاقات الدولية ، والتاكيد على العلاقة المتبادلة بين ما هو سياسي وما هو اقتصادي ، وتقليص مفعول قوى السوق العفوية ، ومراقبة نشاط الرأسمال الاحتكاري الدولي ، والحد من الاستغلال الاستعماري الجديد للبلدان النامية . ولقد اصدرت الجمعية العامة « ميثاق حقوق الدول وواجباتها الاقتصادية » كما اصدرت « مدونة سلوك للشركات المتعددة الجنسية » ، وانشات مركزا خاصا بمتابعة نشاط هذه الشركات ...

هذا بعض من الانجازات الهامة في السبعينات ، ولكننا نجد انفسنا وقد ودعنا الثمانينات ان كل شيء قد انقلب راسا على عقب ، وان ما يتحقق اليوم يناقض على طول الخط كل المبادىء التي جاءت في هذه الوثائق الهامة ....

وان الهجوم المضاد يؤكد على مبدأ آلية الحركة الحرة للسوق رغم كل الدعوات السابقة الى التنهيج العقلاني الواعي للعمليات الاقتصادية الدولية ، كما يؤكد على مبدأ عدم انتهاك الملكية الخاصة ، بل بيع الملكية الحكومية ، والالحاح على حق رؤوس الاموال الاجنبية في الدخول الى البلدان النامية بدون قيود والتوسع غير المحدود للاحتكارات .

ولقد حاولت الدول الراسمالية كسب الوقت بانشاء منتديات للحوار مثل حوار الشمال ــ الجنوب ، الذي تحول الى مفاوضات لارغام البلدان على فتح الابواب على مصراعيها امام الرساميل الاجنبية والشركات عابرة الحدود وتقليص دور الامم المتحدة وزيادة اهمية صندوق النقد الدولي والبنك الدولي في التدخل في الادارة المباشرة لاقتصاديات الدول النامية كما كان يفعل المفوض الاستعماري . لقد اخمدت كليا دعوات العقول النيرة وتحذيراتها في السبعينات وصمت الآذان عن سماع يان تنبرجن ، مثلا ، وهو يقول ، « ان الازمة الاقتصادية التي حلت بالعالم الغربي ليست ظاهرة مؤقتة ، وليست سلسلة من الاضطرابات الاقتصادية تؤدي الى ثروات اكثر ... ان هذه الازمة تكمن في بنية وآليات العلاقات الدولية التي خلق العالم الغربي القسم الاعظم منها بنفسه » .

ولا بد هنا ان نتذكر ان سمير امين يضع امله في انتفاضة العالم الثالث ، وكل شيء يبرهن ، ولم يكن في الاصل يحتاج الى برهان ، ان دعوات تنبرجن وامثاله قد ذهبت ادراج الرياح لانها توجهت الى القادة السياسيين للبلدان المتطورة صناعيا بهدف اقناع العالم الراسمالي بضرورة اعادة بناء النظام الدولي بواسطة عدد من الاصلاحات المؤسسية والتي تخدم خلق آفاق اكبر رحابة للتطور الراسمالي . الا تذكرنا الاصلاحات المطلوبة « من فوق » للاحتواء والحيلولة دون الانفجارات الخطيرة « من تحت » بدعوات شارل فورييه وروبرت اوين وسان سيمون وغيرهم من الطوباريين العظام للسادة الراسماليين بضرورة المبادرة لاصلاح انفسهم ؟ ثم اذا ما اثبت التاريخ استحالة حدوث ذلك افلا تتحول مسؤولية الاصلاح الى من يقع عليهم الاضطهاد . وهم الذين توجه اليهم كارل ماركس من مضطهدي النظام الراسمالي البروليتاريين ، والذين يتوجه اليهم سمير امين من مضطهدي النظام الراسمالي الدولي من الشعوب المتخلفة ؟ واذا ما افلست هذه الثورة او تلك « من تحت » ، فهل يعني ذلك نهاية التاريخ ؟

ان اصلاح النظام الاقتصادي الراسمالي العالمي وتقسيم العمل الدولي لا يمكن ان ياتي من فوق . فلقد اصبح لهذا النظام قوى طبقية تديره بشكل واع ومنظم وذات طبيعة عالمية فوق قومية . وكنت قد شبهت هذا النظام بشركة مساهمة تتحدد طبيعتها ليس بعدد المساهمين بل بكيفية توزع الاسهم ، حيث تتناسب سلطة كل عضو مع نسبة مساهمته في رأس المال(١٣) . ورأس المال هنا لا يعني المال وانما القوة والفعالية . فالدول النفطية العربية قدمت لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي حتى الآن ٣٥ مليار دولار ، ومع ذلك فلم تستطع حيازة اي قوة تصويتية ، مما دعاها للاكتفاء بشيء من « القوة الصوتية » حسب تعبير الدكتور سعيد النجار المدير التنفيذي في البنك الدولي(١٤) . وانه لمن المشكوك فيه ان يكون قد اصبح لها مقابل هذه المليارات اي صوت مسموع ، باستثناء « صوت سيده » ، وهو نوع خاص من « التصويت بالتبعية » .

كان المفكر الجزائري محمد بجاوي قد حدد شكل النظام الدولي الجديد بـ « نقابة دولية »(١٥) ، واعتبر ان تحقيقه « لا يمكن ان يكون الا نتيجة العمل التاريخي للشعوب ، وان ذكاء الانسان المنظم كسلاح نقدي ووعي اجتماعي وايضا كاداة لتشييد التماسك للمجتمع يشكل احدى الوسائل السامية للتغيير ، وان هذا الذكاء هو الذي يرفض النمو الاقتصادي والاجتماعي القائم على اللامعقولية واللامسؤولية كما هو شائع حاليا »(١٦) .

لكن الذكاء الذي يرفض اللامعقولية واللامسؤولية لا يستطيع لوحده اقامة عالم بديل قائم على المعقولية والمسؤولية وبالاخص عندما يكون محاصرا بقوى عالمية تسد عليه جميع المنافذ . لقد اجهضت قوى الشر جميع اتجاهات الخير والصلاح عبر التاريخ ، ولكنها لن تستطيع الغاء ارادة الخير .

---

(١٣) انظر : حول مفهوم النظام الاقتصادي العالمي ، مقال منشور في دراسات عربية عام ١٩٨١ ، متضمن في كتابي : « بحث في الاقتصاد السياسي للتخلف والتقدم والنظام الاقتصادي العالمي » ، ص ١٧٢ .

(١٤) د. سعيد النجار ، في محاضرة في الحلقة النقاشية السنوية الخامسة وموضوعها « العرب والعلاقات الدولية » التي اقامها المعهد العربي للتخطيط بالكويت عام ١٩٨١ ، وكان كاتب هذا البحث المشرف على الحلقة النقاشية المذكورة .

(١٥) وكنت قد حددته في مقالي المشار اليه اعلاه بـ « جمعية تعاونية » تكون العبرة فيها للعضو وليس لراس المال .

(١٦) محمد بجاوي ، مراحل نظام اقتصادي دولي جديد ... مذكور سابقا ، ص ٢٥٩ .

لقد استطاعت الولايات المتحدة والامبريالية العالمية افراغ ثورة العالم الثالث الجديدة في السبعينات من قدراتها على مواجهة الهيمنة الامبريالية بفعالية ، ونحن نشهد اعادة تنظيم العلاقات الدولية للتسعينات في اتجاه شل قدرة البلدان النامية على متابعة طرق مستقلة للتنمية واختيار نظمها الاقتصادية والاجتماعية ، وتسليط الصندوق والبنك الدوليين لفرض سياسات تصحيح معينة على البلدان النامية تتلخص في تعميم الانكماش وتخفيض العملات وتحرير الواردات وتقليص القطاع العام وتسهيل أعمال الشركات متعددة الجنسية ومنح المستثمرين الاجانب والمحليين حرية مطلقة ، وجميع هذه الوسائل لا تخدم الا معالجة مشكلات النظام الرأسمالي في المركز ، وعلى حساب التدمير الشامل للاطراف .

الاقتصاد العربي في تقسيم العمل الدولي :

لم يكن تزايد وزن الوطن العربي في التجارة الدولية في السبعينات بنتيجة الارتفاع الكبير في الصادرات النفطية الذي ادى الى تزايد كبير في الواردات ليعكس اي تحسن ملموس في قدرات الاقتصادات القطرية العربية ، بل ، على العكس ، كان يشكل غطاء للمشكلات المتفاقمة ، وسببا لها في كثير من الاحيان. ويبين الجدول التالي تطور التوزيع النسبي للقطاعات الاقتصادية في توليد الناتج المحلي الاجمالي العربي خلال العقدين الماضيين :

القطاعات	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٨٧
الزراعة	١٦ر٦	٧ر٠٠	١١ر٦
الصناعة الاستخراجية	٢٥ر٥	٥٥ر٣	١٨ر٥
الصناعة التحويلية	١٠ر٧	٦ر٨	١٠ر٠٠
التجارة والخدمات	٢٢ر٢	٢٠ر٢	٣٧ر٣
الهياكل الاساسية	٢٥ر٠٠	١٠ر٨	٢٢ر٦

ان ابرز وجوه التغير في بنية الناتج المحلي الاجمالي العربي خلال العقدين الماضيين هي :

(١) انخفاض مساهمة الزراعة في الناتج الاجمالي من ١٦ر٦ الى ١١ر٦٪ . لقد كان متوسط نمو الزراعة خلال هذه الفترة منخفضا لم يتجاوز ٢ر٥٪ ، وذلك مقابل ٦٪ معدل نمو الطلب على المنتجات الزراعية سنويا . وقد نتج

عن ذلك ارتفاع الفجوة الغذائية من ٢ر١ مليار دولار في النصف الاول من السبعينات الى ٩ر١٧ مليار دولار عام ١٩٨٠ وحوالي ٢٠ مليار دولار بالمتوسط سنويا في النصف الاول من الثمانينات ، ويقدر أن تبلغ الفجوة الغذائية ٤٥ مليار دولار عام ٢٠٠٠ . ولقد كان المتوسط السنوي لارتفاع اسعار الواردات الزراعية للدول العربية ٩ - ١٣٪ خلال السبعينات وبين عامي ١٩٧٥ و ١٩٨٥ انخفضت نسبة الاكتفاء الذاتي من الحبوب من ٦٠٪ الى ٤٠٪ ، ومن الخضار والفواكه من ١٠٤٪ الى ٩٥٪ ، والبقول من ١٠٠٪ الى ٧٨٪ ، والمحاصيل الزيتية من ٦٠٪ الى ٣٩٪ ، واللحوم من ٨١٪ الى ٧٤٪ ، ويعبر عن هذا التحول بالقول ان الدول العربية اصبحت تأكل من موائدها اكثر مما تأكل من اراضيها . واخطر مظاهر هذه المشكلة انتشار المجاعات في السودان والصومال التي اطلق عليها ذات يوم سلة الغذاء للوطن العربي ، واستيراد مصر لثلاثة ارغفة من كل اربعة ارغفة تأكلها . ولقد انخفضت صادرات المواد الغذائية العربية من ٨ر٤٪ من الصادرات عام ١٩٧٠ الى ٦٣ر١٪ عام ١٩٨٤ .

(٢) ارتفاع مساهمة الصناعات الاستخراجية من ٥ر٢٥٪ الى ٥ر٥٣٪ ما بين ١٩٧٠ - ١٩٨٠ ثم انخفاضها الى ٥ر١٨٪ عام ١٩٨٧ وذلك تبعا لارتفاع اسعار النفط في اواخر السبعينات وانخفاضها بنسبة ٤٦٪ عام ١٩٨٦ وما تزال مستمرة في الانخفاض بسبب تسابق دول الاوبك على اغراق الاسواق العالمية بالنفط للحصول على المال ، وعلى راسها تلك الدول التي ما تزال تمتلك عشرات ومئات مليارات الدولارات من الفوائض المالية المهدورة في الاقتصاد الراسمالي العالمي . وقد ارتفع نصيب الوقود من اجمالي الصادرات العربية من ٨٥ر٧٧٪ عام ١٩٧٠ الى ٩٥٪ عام ١٩٨٠ والى ٨٥ر٩٠٪ عام ١٩٨٤ .

(٣) انخفاض نصيب الصناعة التحويلية في الناتج المحلي الاجمالي ما بين ١٩٧٠ و ١٩٨٧ (٧ر١٠ ٪ مقابل ١٠ ٪) ، وثبات نسبة السلع الصناعية المصدرة الى الصادرات العربية خلال هذه الفترة (٩٤ر٤ ٪ ؛ ٨٤ر٤ ٪) ، بينما بلغت نسبة السلع الصناعية المستوردة (١٨ر٦١٪) من الواردات العربية عام ١٩٧٠ و ٣١ر٦٣ ٪ عام ١٩٨٢ و ٦٧ر٦٢ ٪ عام ١٩٨٦ ، نصفها آلات ومعدات نقل والباقي كيماويات وغيرها .

وتبين الارقـام التاليـة تطور اجمالي الصادرات والـواردات العربيـة (مليـار دولار) :

	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٨٦
الصـــــادرات	١٣	٢٣٤	٨٥
٪ الى الصادرات العالمية	٤ر٣ ٪	٣ر١٢ ٪	٣ر٤ ٪
الـــواردات	٨ر٧	١١٦	٩٤
٪ الى الواردات العالمية	٤ر٢ ٪	٩ر٧ ٪ (عام ١٩٨٢)	٥ر٤ ٪
الواردات ٪ الى الناتج المحلي الاجمـــــالي	١٩ ٪		٤٠ ٪ (١٩٨٤)

ولكي لا تضللنا الارقام ، يجب ان ناخذ بالاعتبـار ان ٦٤ ٪ من الناتـج الاجمالي العربي يتولد في البلدان النفطية التي لا يزيـد سكانها عن ١٠٪ مـن مجموع سكان الوطن العربي ، حيث يتراوح نصيب الفرد ما بين ٩ ـ ١٦ الف دولار (عام ١٩٨٦) ؛ بينما لا يزيد نصيب الفرد عن ٥٠٠ دولار في سبعة اقطار عربية غير نفطية ، وعن ١٠٠٠ دولار في اربعة اقطار عربية اخرى .

وتتوزع التجارة الخارجية العربية على الشكل التالي :

- حوالي الثلثين مع الدول النامية (دون الدول العربية) .
- ٢٠ ـ ٢٥ ٪ مع الدول النامية (دون الدول العربية) .
- ٥ر٠ ـ ٢ ٪ مع الدول الاشتراكية للصادرات .
- ٢ ـ ٤ ٪ مع الدول الاشتراكية للواردات .

(٤) ومن اهم الظواهر الاقتصادية التي برزت في العصر النفطي ارتفـاع مديونية الوطن العربي تجاه الخارج من حوالي ٧ مليار دولار في مطلع السبعينات الى حوالي ٢٠٠ مليـار دولار عام ١٩٩٠ ، بينما تجاوزت اثمـان الصادرات النفطية العربية ١٥٠٠ مليـار دولار ، وتتراوح الاموال العربية المستثمرة في الخارج ما بين ٤٤٠ ـ ٦٤٠ مليـار دولار حسب مختلف التقديرات . وهي حسب تقدير الاسكوا موزعـة بين البلدان وبين اشـكال الاستثمار كما يـلي (لعـام ١٩٨٩) (١٧) :

٥٨ مليـار دولار في انكلترا
٧٠ مليـار في الولايات المتحدة
١٦٥ مليـار في بقية الدول الصناعية

(١٧) Escwa, Arab Banks, U. N: October 1989

٣٧ مليار لدى صندوق النقد الدولي والبنك الدولي
١٢ مليار سلف لغير البنوك
٥٩ استثمارات في البلدان النامية
٤٠ر٤ ودائع في بنوك الاوفشور
٤٤٤ مليار دولار

٥ ـ انخفضت المؤشرات الاقتصادية الرئيسية للاداء الاقتصادي في الدول العربية خلال الثمانينات ، ويظهر ذلك من النظرة الى الارقام المحققة للدول العربية الاعضاء الاسكوا ومن مقارنتها بالمعدلات المستهدفة حسب استراتيجية الانماء الدولية لعقد الامم المتحدة الانمائي الثالث :

	معدل النمو المستهدف للفترة ١٩٨١ ـ ١٩٩٠	المتحقق خلال الفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٧
الناتج المحلي الاجمالي	٠٠ر٧	ـ ٩ر١
نصيب الفرد من الناتج	٥ر٤	ـ ٦ر٤
الزراعــة	٠٠ر٤	٩ر٢
الصناعة التحويلية	٠٠ر٩	٩ر٥
الصادرات من السلع والخدمات	٥ر٧	ـ ٥ر١٣
الاستيراد من السلع والخدمات	٠٠ر٨	ـ ٦ر٢
الادخار المحلي الاجمالي ٪ الى الناتج	٠٠ر٢٤ (١٩٩٠)	٠٠ر١٦ (١٩٨٧)
الاستثمار ٪ الى الناتج	٠٠ر٢٨ (١٩٩٠)	٠٠ر٢٤ (١٩٨٧)

(٦) لم تتحسن نسبة العلاقات التجارية العربية البينية الى العلاقات التجارية العربية الخارجية ، ويشكل النفط والوقود القسم الاكبر من التجارة العربية البينية ، أما القسم الباقي فلا يزيد عن ٥ر١ ٪ من التجارة العربية الخارجية . وهذا مؤشر هام آخر على تعمق تزايد التفكك الاقتصادي في الوطن العربي وتعمق روابط التبعية لهذه الاقتصادات بالاقتصادات الرأسمالية المتقدمــة .

وقد تميز العقدان الماضيان بتوسع حركة قوة العمل العربية بين الحدود ، وقد ارتفع عددها من ٦٧٩ الف عام ١٩٧٣ الى ٣٧١٦ الف عام ١٩٨٠ ثم بدأت بالانخفاض ووصلت الى ٣١٤٠ الف عام ١٩٨٣ . وقد نتج عن هذه الحركة ارتفاع تحويلات المغتربين من ١ر٢ مليار دولار عام ١٩٧٦ حتى ١ر٦ مليار دولار عام ١٩٨٠ و ٠٠ر٧ مليار دولار عام ١٩٨٤ و ٨ر٤ مليار دولار عام ١٩٨٦ .

اهم التغيرات الاقتصادية في البلدان المتطورة وعلاقتها بالبلدان النامية :

اذا كانت معظم دول لعالم قد عانت من انخفاض معدل نمو الناتج المحلي الاجمالي على مدى العقود الثلاثة الماضية ، فان هذا الانخفاض كان اعلى ما يكون في الدول النامية ، وبالاخص من بينها الدول العربية ، كما يظهر الجـدول أدنـاه (١٨) :

تطور معدلات نمو الناتج ١٩٦٠ ــ ١٩٨٦ (٪)

الدول والمناطـق	١٩٦١ ــ ١٩٧٢	١٩٧٤ ــ ١٩٨٠	١٩٨١ ــ ١٩٨٦
العالم ككـل	٥ر٥	٣ر٦	٢ر٧
ــ الدول الراسمالية المتطورة	٠٠ر٥	٢ر٥	٢ر٢
الولايات المتحـدة	٠٠ر٤	٢ر٢	٢ر٤
اوربـا الغربيـة	٤ر٨	٢ر٤	١ر٥
اليابـان	٩ر٨	٣ر٨	٢ر٦
ــ الدول الناميـة	٦ر٢	١ر٥	١ر٥
في افريقيـا	٥ر٥	٤ر٤	٠ر٩-
في اسـيا	١ر٥	٠٠ر٦	٤ر٨
في الشرق الاوسـط	٢ر٨	٣ر٩	٠ر٩-
الدول والمناطـق	١٩٦١ ــ ١٩٧٢	١٩٧٤ ــ ١٩٨٠	١٩٨١ ــ ١٩٨٦
ــ اوربـا	٥ر٥	٦ر٤	٢ر٩
ــ امريكا اللاتينية والبحر الكاريبي	٦ر٧	٦ر٢	١ر٠٠
ــ دول الكوميكون	٦ر٦	٤ر٦	٣ر٣
ــ الصـين	٢ر٨	٥ر٦	٨ر٨

نلاحظ من ارقام الجدول اعلاه ان معدل النمو في الدول الراسمالية كان في النصف الثاني من السبعينات والنصف الاول مـن الثمانينات يعادل حوالـي

(١٨) U. N. Transnational corporation in world development, Trends and prospects, N. Y, 1988, P. 17

نصف ما كان عليه في النصف الاول من السبعينات ، ولكن معدلات نمو الدول المتقدمة انحدرت ثم استقرت من خلال التقلبات . امـا الدول النامية فقـد انخفضت معدلات نموها من ٦ر٣ ٪ خلال الفترة ١٩٦١ ــ ١٩٧٣ الى ٥ر١ ٪ خلال الفترة ١٩٨١ ــ ١٩٨٦ . اما دول الشرق الاوسط فقد انخفضت معدلات نموها من اعلى المعدلات في العالم (٨ر٢ ٪ في الفترة ٦١ ــ ١٩٧٣) الى ــ ٩ر٠ ٪ في الفترة ٨١ ــ ١٩٨٦ ، وهو ادنى المعدلات في العالم ، هذا بينما ارتفعت معدلات النمو في آسيا والصين .

وكما تعمق في العقدين الماضيين انقسام العالم الى عالمين متضادين في اتجاهات تطورهما ؛ فقد تعمق تحول مركز النظام الاقتصادي العالمي الى نظام متعدد الاقطاب . ويظهر تعدد الاقطاب من تطور توزيع الاستثمارات المباشرة بين الدول الراسمالية المتقدمة ، كما يبين الجدول التالي :

الاستثمارات المباشرة في الخـارج

(١٩٧٥ ــ ١٩٨٥ ، مليار دولار)

الدول والمنطقة	١٩٧٥			١٩٨٥		
		نسبة الى			نسبة الى	
	الاجمالي	الاجمالي العالمي	الناتج القومي الاجمالي	الاجمالي	الاجمالي العالمي	الناتج القومي الاجمالي
الاستثمارات المصدرة :						
الاجمالي العالمي	٢٨٢ر٠٠	١٠٠		٧١٢ر٥	١٠٠	
الدول الراسمالية المتطورة صناعيا ، منها :	٢٧٥ر٤	٩٧ر٧	٦ر٧	٦٩٢ر٣	٩٧ر٢	٨ر٠٠
ــ الولايات المتحدة	١٢٤ر٢	٤٤ر٠٠	٨ر١	٢٥٠ر٧	٣٥ر١	٦ر٤
ــ بريطانيا	٣٧ر٠٠	١٣ر١	١٥ر٨	١٠٤ر٧	١٤ر٧	٢٣ر٣
ــ اليابان	١٥ر٩	٥ر٧	٣ر٢	٨٣ر٦	١١ر٧	٦ر٣
ــ المانيا الغربية	١٨ر٤	٦ر٥	٤ر٤	٦٠ر٠٠	٨ر٤	٩ر٦
ــ سويسرا	٢٢ر٤	٨ر٠٠	٤١ر٣	٤٥ر٣	٦ر٤	٤٨ر٩

ـ هولنــدا	١٩ر٩	٧ر١	٢٢ر٩	٤٢ر٨	١ر٦	٣٥ر١
ـ كنــدا	١٠ر٤	٣ر٧	٦ر٣	٣٦ر٥	١ر٥	١٠ر٥
ـ فـرنسا	١٠ر٦	٢ر٨	١ر٢	٢١ر٦	٢ر٠٠	٢ر٤
ـ ايطاليـا	٣ر٢	١ر٢	١ر٧	١٢ر٤	١ر٧	٣ر٤
ـ السويد	٤ر٧	١ر٧	٦ر٤	٩ر٠٠	١ر٣	٩ر٠٠
اخـرى	ر٨	٢ر٠٠	١ر٧	٢٥ر٦	٣ر٦	٣ر٣

الاستثمارات المستوردة :

الاجمالي العالمي	٢٤٦ر٨	١٠٠	٤ر٩	٦٣٧	١٠٠	١ر٦
الدول الراسمالية المتطور صناعيا ، منها :	١٨٥ر٣	٧٥ر١	٤ر٥	٤٧٨ر٢	٧٥ر٠٠	٥ر٥
اوربا الغربية	١٠٠ر٦	٤٠ر٨	٥ر٨	١٨٤ر٣	٢٨ر٩	٦ر٦
الولايات المتحدة	٢٧ر٧	١١ر٢	١ر٨	١٨٤ر٦	٢٩ر٠٠	٧ر٤
اخـرى	٥٧ر٠٠	٢٣ر١	٧ر٠٠	١٠٩ر٢	١٧ر١	٥ر٧
منها : اليابان	١ر٥	٠ر٦	٠ر٣	١ر٦	١ر٠٠	٠ر٥

المصدر : U. N. Transnational corporations in world dvelopment., P : 24-25.

يظهر من الجدول اعلاه تقدم المانيا الغربية (واوربا بشكل عام) واليابان كمصدرين لـرأس المال الى الخارج .

ويبين الجدول التالي التطورات التي طرأت على التركيبة السلعية لصادرات الـدول الراسمالية المتطورة .

التركيبة السلعية لصادرات البلدان الراسمالية المتطورة
(بالاسعار الجارية ، فـوب)

	١٩٦٠		١٩٧٠		١٩٨٠		١٩٨٥	
	مليار دولار	%	مليار دولار	%	مليار دولار	%	مليار دولار	%
اجـمالي	٨٥ر٣	١٠٠	٢٢٣ر٢	١٠٠	١٢٥١ر٥	١٠٠	١٢٦٦ر٤	١٠٠
مواد خام وغذائية	٢٦ر١	٣٠ر٦	١٥ر١	٢٢ر٩	٢٩٧ر٩	٢٣ر٨	٢٨٢ر٣	٢٢ر٣
مواد غذائية	١١ر٧	١٣ر٨	٢٤ر١	١٠ر٨	١٢٨ر٩	١٠ر٣	١٠٩ر٦	٨ر٧
خامات صناعية	١١ر٠٠	١٢ر٩	١٩ر٤	٨ر٧	٨٢ر٦	٦ر٦	٧٢ر١	٥ر٧
وقـود	٣ر٣	٣ر٩	٧ر٦	٣ر٤	٨٦ر٤	٦ر٩	١٠٠ر٦	٧ر٩
منتجات مصنعة ونصف مصنعة	٥٦ر٣	٦٦ر٠٠	١٦٨ر٣	٧٥ر٤	٩٣٣ر٦	٧٤ر٦	٩٥٥ر٤	٧٥ر٤
الات ومعدات ووسائل نقل	٢٢ر٩	٢٦ر٩	٧٨ر٣	٣٥ر١	٤٢٤ر٣	٣٤ر٧	٤٩٤ر٩	٣٩ر٠٠
منتجات كيميائية	٥ر٦	٧ر٦	١٩ر٢	٨ر٦	١٢٧ر٧	١٠ر٢	١٢٦ر٨	١٠ر٠٠

منتجات جاهزة اخـــرى	٢٦ر٩	٣١ر٥	٧٠ر٨	٣١ر٧	٣٧١ر٧	٢٩ر٧	٣٣٢ر٧	٣٦ر٤

محسوبة من : U.N. Monthly bulletin of statistics N.Y.

يظهر من الجدول اعلاه ان طابع تقسيم العمل الدولي في النظام الراسمالي العالمي ازداد تعمقا خلال العقود الثلاثة الماضية . وذلك بازدياد نصيب المنتجات المصنعة ونصف المصنعة في صادرات الدول الرأسمالية المتطورة من ٥٦٪ عام ١٩٦٠ الى ٧٥ر٢٪ عام ١٩٨٥ ، وبالتالي بازدياد الفجوة بينها وبين الدول النامية .

ويبين الجدول التالي تطور مكانة الدول الراسمالية والدول النامية ، والاوبك بشكل خاص ، في الصادرات والواردات العالمية خلال العقود الثلاثة الماضية .

التجارة الخارجية للبلدان الراسمالية والنامية
(بالاسعار الجارية)

	١٩٦٠ مليار دولار	٪	١٩٧٠ مليار دولار	٪	١٩٨٠ مليار دولار	٪	١٩٨٦ مليار دولار	٪
التصدير (فوب)	١١٢ر٤	١٠٠	٢٧٩ر٢	١٠٠	١٨١٠ر١	١٠٠	١٨٩٠ر٤	١٠٠
الدول الراسمالية المتطورة	٨٥ر٣	٧٥ر٩	٢٢٣ر٢	٧٩ر٩	١٢٥١ر٥	٦٩ر١	١٤٦٨ر١	٧٧ر٣
الدول النامية	٢٧ر١	٢٤ر١	٥٦ر٠٠	٢٠ر١	٥٥٨ر٦	٢٠ر٩	٤٢٢ر٣	٢٢ر٧
منهـا :								
دول الاوبك	٧ر٨	٦ر٩	١٨ر٠٠	٦ر٥	٢٠٦ر٧	١٦ر٩	١١٤ر٨	٦ر٢
النامية الاخرى	١٩ر٣	١٧ر٢	٣٨ر٠٠	١٣ر٦	٢٥١ر٩	١٤ر٠٠	٢٠٧ر٥	١٦ر٥
الاستيراد (سيف)								
الدول الراسمالية المتطورة	٨٨ر٤	٧٥ر٠٠	٢٣٤ر٨	٨٠ر٨	١٤٠٦ر٦	٧٦ر٠٠	١٥٥٣ر٩	٧٨ر٢
للدول النامية	٢٩ر٤	٢٥ر٠٠	٥٥ر٨	١٩ر٢	٤٤٥ر١	٢٤ر٠٠	٤٢٢ر٧	٢١ر٨
منهـا :								
دول الاوبك	٥ر٤	٤ر٦	٩ر٩	٣ر٤	١٢٤ر٥	٦ر٧	١٠٢ر٠٠	٥ر٩
النامية الاخرى	٢٤ر٠٠	٢٠ر٤	٤٥ر٩	١٥ر٨	٣٢٠ر٦	١٧ر٣	٢١٩ر٧	١٥ر٩

المصدر : محسوبة من : U.N. Monthly Buletin of statistics, N. Y

يتبين من الجدول اعلاه ان التغير الاهم في توزيع التجارة الدولية هو الارتفاع الكبير في نصيب الاوبك في الصادرات العالمية على حساب انخفاض نصيب الدول الراسمالية المتطورة ، ومالبثت ان عادت النسب الى ماكانت عليه في الستينات بعد انخفاض اسعار النفط عام ١٩٨٦ .

الاقتصاد العربي على مشارف القرن الواحد والعشرين :

ليس غريبا ان تكون اكثر دول العالم تقدما وديناميةً في التطور اكثرها قلقا على وضعها في النظام الاقتصادي العالمي . بينما لا يظهر هذا القلق لدى اكثر الدول تخلفا ، حيث تحتل مكان هذا القلق اولويات اخرى تشد بها الى الوراء اكثر مما تدفع بها الى الامام .

ان المرحلة القادمة من الثورة العلمية التكنولوجية والتي اتضحت معالمها في الثمانينات تحمل معها تهميش العالم الثالث بالغاء اية ميزات نسبية كانت تمنحها له الطبيعة او قوة العمل الرخيصة . فالمواد المخلقة تحل محل المواد الطبيعية في الانتاج، والهندسة الوراثية تحقق قفزات هائلة في زيادة الانتاج النباتي والحيواني ، ومنظومات الانتاج الاوتوماتيكية والانسان الآلي تلغي ضرورة نقل بعض الصناعات الى الاطراف ، واستخدام مصادر جديدة للطاقة تسرع في اقصاء النفط عن مكانه . مع كل هذه التغيرات فان الادارة الاقتصادية في الدول العربية ما تزال تبحث عن وسائل لسد الفجوات والعجوزات الناجمة عن فساد سياساتها الاقتصادية الداخلية والخارجية اما بزيادة استنزاف الموارد الطبيعية الريعية او بالمبالغة في طلب الاموال من الخارج مقابل اي ثمن كان. ولم تستطع اي دولة عربية حتى الآن خلق اي تخصص ملائم يؤمن لها مكانة مستقرة في النظام العالمي .

وبينما نجحت دول نامية اخرى في احداث الثورة الخضراء ، فان الدول العربية تمعن في استنزاف قدرات الطبيعة الانتاجية ، ومن ابرز اوجه اللاعقلانية في هذا المجال سوء التصرف بالموارد المائية والمساحات الخضراء والاراضي الزراعية .

اما في مجال تخصيص وتشغيل وادارة الموارد الاقتصادية فان الدول العربية تعاني من سوء تخصيص للموارد الاقتصادية ومن التفريط بالفائض الاقتصادي وهدر وتدمير اثمن الموارد البشرية وهو الانسان المنتج وتحويله الى انسان غير منتج أو تهجيره خارج الحدود .

وفي مجال العلاقات الخارجية تبدو الدول العربية اعجز منها في اي مجال آخر ، بحيث تصدق عليها صفة « الدولة الرخوة » حسب وصف غونار ميردال حيث لم يعد بالامكان الحديث عن الحدود الاقتصادية للدولة في الوطن العربي

اذ ان هذه الحدود هي اما مفتوحة او مخترقة ، بصورة قانونية على الغالب ، والا فبصورة غير قانونية ، وذلك امام الاستنزاف الاقتصادي الذي يتخذ شكلين رئيسيين : اخراج المال الى الخارج ، واغراق السوق بالبضائع الاجنبية ، فتنضب مصادر التراكم من جهة ، وتنعدم السوق الوطنية امام الانتاج المحلي ، من جهة اخرى ، ويحصل ذلك كله بينما الاقتصادات العربية القطرية لا تصلح ميدانا لاي تنمية جادة .

ان الاصلاح المطلوب في الوطن العربي من اجل احتلال مكانة معينة في النظام الدولي لا يمكن ان يقتصر على العمليات الاقتصادية ، بل ان مفتاح الاصلاح الاقتصادي هو الاصلاح السياسي . فبدون الاصلاح السياسي الديمقراطي لا يمكن ضمان الادارة الاقتصادية الوطنية الفعالة والسيطرة على التراكم الاقتصادي ومحاربة الفساد البيرقراطي والاقتصادي باعتباره آفة التنمية ، وبدون السيطرة على العلاقات الخارجية واخضاعها لخدمة شروط التنمية المستقلة في الداخل لا يبقى الا التكيف لخدمة الاقتصادات الخارجية والقوى المعادية ، وبدون توحيد الاقتصاد العربي في وحدات كبرى وبالاحرى في وحدة واحدة ، لا يمكن تحقيق ادنى مكسب من التعامل مع النظام الاقتصادي الدولي هذه هي الاتجاهات الثلاثة للاصلاح الضروري انجاز في الوطن العربي من اجل اعادة بناء مكانته في النظام الاقتصادي العالمي والمشاركة الايجابية في تقسيم العمل الدولي . الاصلاح السياسي ، واخضاع العلاقات الخارجية لمتطلبات التنمية المستقلة ، والوحدة الاقتصادية في التعامل مع النظام الدولي .

١٩٩٠/٦/١٢

★ ★ ★

الدراسات والبحوث

الفروق بين الجنسين

تأليف: لاورا شبيرو

ترجمة: محمد جمول

ان اطفالنا ، للاسف ، لا يجسدون المساواة في حياتهم اكثر مما جسدناها . هل البيولوجيا هي المسؤولة ؟ ربما كان الامر كذلك كما يقول العلماء ـ ومع هذا يستطيع الاهل التاثير بشكل افضل .

ريبكا طفلة في الثالثة من عمرها . والداها يمضيان النهار في اعمالهما . وفي كل مساء يقوم والدها باعداد وجبة العشاء ـ قلما تعمل امها في المطبخ ، ومع ذلك ، حين ياتي وقت العشاء في غرفة العاب ريبكا ، تعمد دائما لاختيار اللعبة ـ الام وتكلفها باعمال المطبخ .

ولو نظرنا الى جورج ، طفل في الرابعة من عمره . ما يزال والداه يتمسكان بقيم الستينات من هذا القرن . لم يتعلم في حياته لفظة بندقية ولم يعط لعبة لها علاقة بالحروب من اي نوع كان . مع ذلك يبادر من تلقاء نفسه الى استخدام لفظة « اطلق » ثم يقبض بعد ذلك على عصا ياخذها من الحديقة ليلوح بها باعتبارها « بندقيته » .

هل يولد الصبيان والبنات مختلفين ؟ هل ياتي كل رضيع الى هذا العالم مبرمجا اما للاعمال اللطيفة او القتالية ؟ أم ان الثقافة تفعل فعلها في اطفالنا بهذا الشكل المبكر والقسري الذي يحول دون ادراك الوالدين له ؟ مثل هذه الاسئلة تكتسب اهمية جديدة في هذه الايام بالنسبة لجيل كان قد جعل المساواة بين الجنسين قضيته والآن يجد نفسه مضطرا لاعادة النظر فيها . وربما تساءل الوالدان أن كانت الادوار الجنسية ثابتة في نهاية المطاف وكأنها حكم قضائي لا رجعة فيه . تشير الابحاث الجديدة الى عكس ذلك . فمهما كان النمط المفروض راسخا ، يستطيع الافراد تحديه ، وينجحون في ذلك اذا ما تلقوا التشجيع اللازم . وسوف يشعر الاهل بالارتياح حين يعرفون أن بامكانهم التأثير في هذا المجال .

لا يزال علماء البيولوجيا والنفس والانثروبولوجيا يبحثون عن اصل الفروق الجنسية منذ اكثر من قرن ، ويتزايد الجدل حول الاحتمالات بتزايد السخط مع اضطرار الباحثين للتشكيك بنظريتهم التي ظلت مفضلة منذ عام ١٩٠٢ . في ذاك الوقت ، كان كثير من العلماء يعتقدون بوجود علاقة بين الذكاء وحجم الدماغ ، وان ادمغة الذكور اكبر حجما من النساء ــ تلك حقيقة كان يفترض بها ان تفسر تفوق الرجال في الفنون والعلوم والآداب . الا ان هذه الفرضية بدات بالتراجع حين قامت احدى الدراسات بمقارنة القدرات المتعلقة بالدماغ لدى مجموعة علماء ذكور مع مجموعة طالبات جامعيات لقد تفوق العديد من النساء على الرجال ، كما ان احدى اصغر الجماجم حجما كانت لعالم انثروبولوجيا شهير .

لقد اضبح البحث في موضوع الجنس بأمريكا اكثر تطورا واثارة للجدل في العقود الاخيرة . واكثر الاسئلة حساسية في هذا الوضوع يتعلق بهرمونات الجنس وخصوصا التستوستيرون (تفرزه الخصية) الموجود لدى الجنسين ، الا انه اكثر عند الذكور ؛ والذي يرجح ــ مع انه غير مؤكد ــ انه مصدر النزوع

العدواني . ان افتراض عامل بيولوجي حاسم في تحديد السلوك ، بمجتمع يتساوى فيه البشر من حيث المظهر ، امر يستدعي الكثير من التروي . تقول بياتريس وايتينغ المتخصصة في التربية والانثروبولوجيا (جامعة هارفرد) « ظلت الشجاعة تنقصني لبعض الوقت قبل ان اتحدث عن الهرمونات لان النساء سينهضن ويتركن القاعة . اما الآن فيبدو وكانهن اكثر ثقة بالنفس ، وان مازال بعض الشكوك تساورهن . فالحقائق لم تكتمل بعد . »

ان بعض العالمات الاجتماعيات يحاولن الابتعاد عن البحوث المتعلقةبالجنس كليا . « انهن يقلن بأن النتائج ستستخدم ضد المرأة» كما تقول جين بيركو غليسون الاستاذة في علم النفس (جامعة بوسطن) والتي تعمل في دراسة تأثير الفروق الجنسية على اكتساب اللغة . وهناك اراء اخرى تقول بانه لا مبرر لتجاهل هذا الموضوع . « لنفترض وجود اسس بيولوجية مؤكدة يقوم عليها تقسيم العمل . » تقول سنثيا فاكس ابشتاين استاذة علم الاجتماع بجامعة (سيتي يونيفرسيتي) في نيويورك . وهي غير مقتنعة عمليا بمثل هذا الافتراض . « ان ذلك لا يعني اننا لا نستطيع فعل شيء بهذا الخصوص . فالناس قادرون على استخلاص ما يشاؤون من المعطيات العلمية » الا ان نظرة واحدة على طريقة معالجة المجتمع للفروق الجنسية الموجودة غير مشجعة . ان الاولاد يتعلمون القراءة ببطء اكثر من البنات ، ويعانون من مصاعب في القراءة تزيد عن البنات ، بينما تقصر الفتيات عنهم في الرياضيات عند بلوغ مراحل تعليمية عليا . « والمجتمع قادر على تضخيم مثل هذه الفروق او طمسها » كما تقول غليسون . « ونحن عادة نحث معلمي القراءة بالقيام باجراءات علاجية لتحسين قراءة الاولاد في صفوف غالبيتها من الذكور . ودون الدخول في لب الموضوع ، نكتفي بالدوران حوله من خلال جعل الاولاد يبلغون مستوى البنات . ولكن اين المعلمون الذين يعملون لتامين برامج تقوية للبنات في الرياضيات ؟ يفترض بالبنات ان يبقين في مستوى متدن بالرياضيات . وهكذا نلاحظ ان هذا الاختلاف ناشيء عن موقفنا في الحياة . »

وبغض النظر عن موقف علماء الاجتماع من مسالة تاثير البيولوجيا مقابل الثقافة ، فان هؤلاء يقرون بأن التشابه بين الجنسين اكثر من الاختلاف بكثير ، وأن الفروق ضمن الجنس الواحد اكثر بكثير من الفروق بين الجنسين. وحتى الفروق التي اعتبرت مسلمات على مدى زمني طويل بدات بالتلاشي .

قامت الاستاذة جانيت شيبلي هايد المتخصصة بعلم النفس (جامعة وسكنسون) بتحليل مئات الدراسات حول قدرات الصبيان والبنات في الرياضيات والقدرة التعبيرية ، فوجدت ان الطرفين يتساويان في القدرة التعبيرية . اما في الرياضيات فيتقدم الصبيان على البنات بقدر لا بأس به ، اما بين طلاب الرياضيات الذين تزيد اعمارهم العقلية عن اعمارهم الزمنية تحديدا ، فقد كان الفرق شاسعا . والاهم من ذلك ان هايد وجدت ان الدراسات المتعلقة بالقدرات في الرياضيات والتعبير من فترة الستينات والسبعينات كانت تبين فروقا اكبر من تلك التي تظهر في الابحاث المتاخرة . « ربما كان الاهل يبذلون جهودا كبيرة للتخفيف منظهور الفوارق » كما تقول . يضاف الى ذلك ما يسميه الاكاديميون « ظاهرة درج الملفات » . فحين تقوم بدراسة لا تظهر اية فروق ، تفترض سلفا بانها لن تنشر . كما تقول كلير إيناو استاذة علم النفس في جامعة برادلي (الينوي) . « بل وحتى وقت متأخر ، كان ذلك يعني انك تتفق مع الآخرين ، وبالتالي ما عليك الا ان تضعها جانبا » .

وتتجلى الفروق بين الجنسين على اشدها في الدراسات الاكاديمية الامريكيةمن خلال نتائج اختبارات التاهيل المدرسية السنوية التي تواصل تفضيلها للاولاد . لقد اثبت هؤلاء تفوقهم الواضح في الرياضيات . ومنذ عام ١٩٧٢ تقدموا قليلا على البنات في القدرة التعبيرية ايضا. يمكن ايجاد تفسيرات مختلفة ، لهذه الحالة ، تبدا من الاجحاف بحق البيولوجيا ، مع أن السجل الاجتماعي — الاقتصادي للمتقدمين لهذا الاختبار قد يلعب دورا ايضا . « تتزايد شعبية هذه الاختبارات سنويا ، ولكن لا احد يشير الى ان عدد المتقدمات لهذه الاختبارات يزيد عن عدد المتقدمين ، وان هؤلاء النساء يتحدرن من اوساط اقل تقدما . » كما تقول هايد « والرجال هم عبارة عن عينات تم انتقاؤها بعناية اكبر :انهم ابناء اسر تتمتع بدخل إفضل وآباء اكثر تعليما وفرص أوفر للاستفادة من المدارس الخاصة » .

والاعتقاد الآخر الذي مضى عليه زمن طويل ولا يزال يحتفظ بصحته هو : ان الصبيان يظهرون اكثر نشاطا الى درجة ما حسب دراسة حديثة ، وهذا فرق يمكن ان يبدأ حتى قبل الولادة . الا ان اكثر الفروق المميزة وضوحا بين الجنسين لا تبدو جلية حتى سنوات ما قبل المدرسة « فلو شاهدت مئات من

الاطفال بعمر سنتين ، ان تستطيع تمييز الولد عن البنت ما لم تعتمد على نوع قصة الشعر . » كما يقول جيروم كاغان استاذ علم النفس في جامعة هارفرد . ويقول اعضاء الادارة في متحف الاطفال في بوسطن بان الاولاد والبنات الذين يتسابقون في المعارض متشابهون في النشاط والمشاكسة ، ويتماثلون في اهتمامهم بانواع السيارات والمطابخ الى ان يصلوا المرحلة الابتدائية . وفي دار حضانة شارع مصرف نيويورك ، كان معظم الاطفال ، بعمر ثلاث سنوات ، الذين تحلقوا حول طاولة الطبخ لاعداد خبز لوز ذات يوم هم من الصبيان وكانت بنت هي التي ملأت ثلاث حقائب باللاسن وأعلنت : « هيا بنا الى العمل » .

ومع بلوغ السنة الرابعة او الخامسة من العمر ، يبدأ ظهور تميز الشخصية الجنسية بشكل يجعل الآباء المتحررين يتأففون يائسين . ولا يهم مدى الاهتمام الذي يوجهه الاهل في سبيل تخفيف الاختلافات من خلال اظهار قدرة البنات والصبيان على القيام بالالعاب ذاتها . ان اطفالهم يستمتعون بالتمايز التقليدي المستمر بين الذكور والاناث في كل مكان : في التلفزيون والكتب ، والحياة اليومية ودور الحضانة والحديقة العامة ومع الاصدقاء . « ان احد الامور التي يمكن ان تكون مفيدة جدا للاطفال هو ان يعرفوا هويتهم » كما يقول كيل برويت المعالج النفسي في مركز ييل لدراسة الطفل . « هناك اسس خاصة بالتكون الانثوي واسس خاصة بالتكون الذكري . يمكنك الجدل الى آخر الوقت فيما اذا كانت هذه المؤثرات الاجتماعية سلبية او ايجابية ، ولكنك حين تنظر الى الاطفال تجد انهم يرغبون في اظهار هذه الفروق . وهذا مما يرسخ هويتهم » .

المسدس المائي :

لذلك تلعب البنات بالدمى ، ويقوم الاولاد بدور القاتلين الاشداء ، وتتجه البنات الى لعبة الحجلة ، بينما يأخذ الصبيان بلعب كرة القدم . الفتيات يساعدن الامهات في حين يعمل الصبيان على توجيه المسدسات المائية الى الضيوف ثم يصرخون « انك مقتول » . وحسب قول برويت ان المسدسات تشكل حاجة حتمية في هذه المرحلة من تطوره ، على الاقل في حضارة يوجهها التلفزيون » قد يكون هذا المسدس حاملة ملابس من الورق المقوى . وليس

من الضروري ان يكون نموذجا مصغرا لسلاح حقيقي ، ومع ذلك يساعده في تركيز خياله بالاتجاه الذي يريده في جعل نفسه قويا في هذا العالم » . ويتابع برويت « هناك القليل من البنات اللواتي يتميزن بجانب عدواني ايضا ، الا ان هذه العدوانية ما تلبث ان تتخذ صيغا مختلفة بتأثير الحياة الاجتماعية . ان الاشياء التي يحققها الصبيان بمسدساتهم تحققه البنات من خلال العلاقات ـ عبر التكيف والشراسة الاجتماعية » .

وما ان تعرف الفتيات انهن اناث ويعرف الصبيان انهم ذكور حتى يترسخ هذا التمايز الجنسي بحيث لا يمكن زواله . وسواء كان ذلك مولودا في صبغياتنا (الكروموسوم) او امكتسبا ، فان صورة الذكر العدواني والانثى الحنون تبقى فينا بقية حياتنا . « حين نرى رجلا مع طفل نقول (انهما يلعبان) » كما تقول اشتاين « ولا نقول ابدا انه يعتني به » .

ان مسالة الفروق الجنسية القائمة على اسس بيولوجية تلقى القليل من التقبل وسط الكثير من تباين الآراء الاكاديمية . وهذه النظرية تقول بأن دماغ كل من الذكر والانثى وجسدهما ينموان بطريقة مختلفة اعتمادا على كمية التيستوستيرون المتوفر عند الولادة . ومعظم الادلة المعتمدة في هذا الشان مستقاة من دراسات اجريت على الحيوانات وتبين ، مثلا ، ان شكل خلايا دماغ فار حديث الولادة تتغير اذا ما عولجت بالتيستوستيرون .

قد يكون هرمون الجنس الذكري ايضا هو المسؤول عن ردود الافعال المختلفة عند ذكور واناث قردة المكاكي التي ربيت معزولة حين وضع معها قرد رضيع في القفص . لقد كانت الذكور تميل الى ضرب هذا الرضيع ، بينما كانت الاناث تعتني به . تتباين آراء العلماء بشدة فيما اذا كان السلوك الانساني يتماثل مع السلوك الحيواني . ويأتي الدليل الانساني الاكثر اقناعا من الانثروبولوجيا حيث تتوفر دراسات عن حضارات متداخلة تبين باستمرار انه في الوقت الذي تختلف فيه المجتمعات في ميلها الى العنف ، فان الذكور في اي مجتمع محدد يتصرفون بعدوانية اكثر من الاناث « الا انه من المهم ان نؤكد بان ما نقصده بالعدوان هنا هو العنف الجسدي حصرا » . ويتابع ملفن كونر ، الطبيب وعالم الانثروبولوجيا في جامعة ايموري (اطلنطا) « اما فيما يخص الاشكال العدوانية الاخرى من التنافس حتى التعبير اللفظي ، فان الدليل على الفروق الجنسية غير قائم » . الا ان التجربة تشير الى ان

النساء ، حين يتبوان مواقع قيادية او اكاديمية او سياسية ، يتمكنَّ من تصريف مثل هذه الشؤون بعدوانية لا تقل عن أي رجل .

وبغض النظر عن حقيقــة ان النساء يلدن الاطفال ويعتنين بهم ، فان ما يدهش هو قلة الادلة المؤيدة للفكرة القائلة بان تكوين النساء البيولوجي يجعلهن اكثر لطفا ورقة او يعدهن للامومة بشكل خاص . لقد سلم الفلاسفة ــ ومعهم الامهات ــ بوجود « غريزة » امومة ، وهــذا ما لم يثبته البحث في الهرمونات الانثوية . وفي احسن الاحوال ، قد يكون هناك استجابة هرمونية مؤقتة مرتبطة بالولادة تدفع بالامهات الى العناية بصغارهن ، الا ان ذلك لا يفسر انفراد المراة بتبديل غيارات الطفل . ولا يمكن التسليم ايضا بأن سورة هرمونية مشابهة هي المسؤولة عن نزوع النساء نحو تنظيم الشؤون الاجتماعية للاسرة ، او تولي اعمال تقليدية قليلة الاجر كالتمريض والتعليم والاعمال الاجتماعية .

لقد بينت الدراسات ان المواليد الجدد من الاناث اكثر استعدادا للبكاء من الذكور استجابة لبكاء رضيع آخر . وان البنات الصغيرات يحاولن اكثــر من الصبيان مواساة او مساعدة امهاتهن حين يبدو عليهن الضيق . ولكن نتائج معظم الابحاث المتعلقة بسمات مثل التعاطف والايثار لا تعطي افضلية مؤكدة لجنس على آخر . هناك استثناء رئيسي واحد : هو ان الاناث ، من كل الاعمار ، يظهرن قدرة اكبر على « قراءة » الناس واستشفاف مشاعرهم دون الاعتماد على اي عون لغوي . (والباحثون يعتمدون عادة على عرض صورة لشخص فيها تعبير عن مشاعر قوية ، ويطلبون من المتقدمين للاختبار تحديد هذه المشاعر) وربما كانت هذه القدرة ــ التي ساعدت الاناث عبر مسار التطور على البقاء وحماية صغارهن ــ هي الاساس البيولوجي الوحيد على ايماننا الراسخ بالايثار عند الانثى .

روابط الطفولة :

لقد نجح اولئك الباحثون الذين استكشفوا اللاشعور اكثر من غيرهم في محاولة تفسير العدوانية الذكرية والحنان الانثوي . وربما يعود ذلك الى ان نظرياتهم غير خاضعة للاختبار مخبريا مما يجعلها « صحيحة » تسليما اذا كانت مناسبة لتخميناتنا . وحسب ما تقوله نانسي ج. شودورو ، استاذة علم الاجتماع في جامعة بيركلي ، ومؤلفة الكتاب الهام « توالد الامومة » ان حقيقة

كون كل من الصبيان والبنات يربون من قبل النساء لها آثار حاسمة على الدور الجنسي . فالبنات ، منذ الطفولة المبكرة ، يأخذن ادوار امهاتهن ويفعلن افعالهن . وبهذا الشكل ينشأن وتتكون هويتهن تبعا لعلاقتهن بالآخرين . وتبقى مسالة الحفاظ على الروابط الانسانية حيوية بالنسبة لهن . اما الاولاد فيتجهون في نهاية الامر الى آبائهم لتحديد هويتهم ، وهذا يقتضي كبح تلك الروابط الطفولية القوية تجاه الام والانوثة . بهذا الشكل تصبح الروابط الانسانية اكثر اشكالية بالنسبة لهم . لقي كتاب شودورو ، الصادر في عام ١٩٧٨ ، اهتماما واسعا رغم اسلوبه الاكاديمي المكثف . كما اظهر بوضوح ان رؤيتها تبدو صحيحة للكثيرين .

ويذكر كاغان (جامعة هارفرد) ، الذي يعمل في دراسة الاطفال الصغار منذ ٣٥ سنة ، مجموعة مختلفة من المؤثرات الفعالة . انه يشير الى ان الميل الطبيعي للنساء نحو الرعاية والامومة يتضح في وعيهن المبكر لدورهن في الطبيعة « ان كل طفلة بين الخامسة والعاشرة تعرف ، بشكل من الاشكال بانها مختلفة عن الصبيان وانها ستنجب طفلا . هذا امر يفهمه كل شخص بما في ذلك الاطفال على انه طبيعي بشكل جوهري » ويتابع كاغان « واذا كانت الطبيعة تمنح الحياة والرعاية والعون والحنان ــ في مجتمعنا ــ فسوف تستنتج الفتاة ، بشكل لاشعوري ، عندئذ أن هذه هي الخصائص التي يجب عليها اكتسابها . أما الصبي فغير مطالب بذلك ، وهذا كل ما في الامر .

كاغان يصف هذه الفروق الجنسية بأنها « حتمية وغير تكوينية » ثم يؤكد ــ مثل شودورو ــ بأنه لايجوز ان يكون لهذه الخصائص مضاعفات على وضع النساء القانوني او الوظيفي . اما في الواقع ، هناك بالطبع مضاعفات هائلة . نحتى الاناث اللواتي يعتبرن الفروق الجنسية من صنع الثقافة يوافقن على انها راسخة وان لم تكن حتمية . » وحتى الاسر الاكثر تحررا والتي تشعر فعلا بأنها تريد المساهمة في خلق سلوك متحرر من الحواجز الجنسية بين اطفالها . ستظل تشجع الصبيان ليكونوا صبيانا والبنات بناتا » كما تقول ابشتاين من جامعة سيتي يونيفير ستي (نيويورك) « ان الكوابح الثقافية تفعل فعلها فينا طيلة الوقت . فلو ذهبت لشراء لعبة لطفلة احد اصدقائي، سوف اتساءل : لم لا اشتري لها عربة ؟ إني اتوقع ان لاترضي والديها . ولو قدمت لها علبة أدوات تجميل لكان ذلك ضد قناعتي . إذن ساشتري بعض المكعبات . انه موقف صعب جدا ، ويجب على المرء أن يكون حذرا دوما » .

والحقيقة يجب على الآباء المتحررين ان يكونوا حذرين منذ اللحظة التي يأتي فيها مولودهم للوجود . وهذا مايبدأ باختيار البطاقات الزهرية (لوضع اسماء البنات عليها) والزرقاء للأولاد في غرفة الاطفال بالمشفى : انا صبي - أنا بنت ، بهذا الشكل يفرض طاغوت الجنس نفسه بشكل طاغ . وتلاحظ كارول ز. مالاتيستا الاستاذة في علم النفس بجامعة لونغ آيلاند (نيويورك) ان حواجب الطفلة الوليدة اكثر ارتفاعا عن عينيها وان البنات يرفعن حواجبهن اكثر من الأولاد ، وهذا ما يمنح البنات نظرة فيها استجابة اجتماعية اكثر تقبلا . وقد وجدت مالاتيستا وزملاؤها الذين قاموا بتصوير تعابير وجوه الامهات (بالفيديو) وتحليلها أثناء لعبهن مع اطفالهن ، ان هؤلاء الامهات يعبرن عن مجموعة من الاستجابات العاطفية تجاه البنات اكثر من الصبيان . وحين تعبر البنات الوليدات عن الغضب ، كن يواجهن رفضا من امهاتهن اكثر من الصبيان . وهذه الانماط من التعامل ، كما تقول مالاتيستا ، قد تكون من الاسباب التي تجعل الفتيات يتعلمن الابتسام اكثر ليظهرن بمظهر اجتماعي اكثر من الذكور ويمتلكن المهارة المذكورة سابقا ، وهي القدرة على « قراءة » المشاعر .

إن الطريقة التي يضبط بها الآباء اولادهم تؤثر على سلوكهم الاجتماعي فيما بعد أيضا . وقد وجدت جوديت ج. سميتانا استاذة التربية وعلم النفس وطب الاطفال في جامعة روشستر ان الامهات يعالجن حادثة معينة فيها سوء تصرف من الاطفال بطرق مختلفة تبعا لجنس الطفل . فلو ان طفلة صغيرة ضربت صديقتها وخطفت لعبة منها ، مثلا ، فان الام توضح لماذا يعتبر الضرب وخطف اللعبة غير مقبولين . اما حين يكون الفاعل طفلا ، فانها ستوقفه وتعاقبه وتتوقف عند هذا الحد . ان سوء السلوك كالضرب لدى الجنسين يصل ذروته في حوالي الثانية من العمر . وبعد ذلك يستمر الصبيان ليصبحوا اكثر سوءاً في تصرفهم من البنات .

وقد عرف علماء النفس منذ سنوات ان الصبيان يتلقون من العقاب اكثر مما تتلقاه البنات . وقد ظن بعضهم أن الصبيان يستطيعون ، ببساطة ، استدراج الاهل الى حالة الغضب بشكل اسرع الا ان كارولين زان - واكسلر ، عالمة النفس في المعهد الوطني الامريكي للصحة العقلية تشير الى ان الاختلاف في معاملة الاهل تبدأ حتى قبل ظهور الاختلاف في السلوك « إن البنات يتلقين اشارات مختلفة عن الصبيان » كما تقول « ويتم تشجيع البنات على الاهتمام

بمشاكل الاخرين في وقت مبكر جدا » . وعند بلوغهن مرحلة المدرسة الابتدائية، يظهرن استعدادا اكبر لتوجيه عنايتهن للاخرين وتصبح دائرة علاقاتهن الاجتماعية أوسع » .

ويلتقط الاطفال مؤشرات تسهم في تحديد موقفهم الجنسي من خلال سير عملية تعلم الكلام . تقول غليسون ، الاستاذة في جامعة بوسطن « عند مقارنة الامهات والاباء اثناء قراءة الكتب لاطفالهم » وجدنا « ان كلا الطرفين يستخدم كلمات للتعبير عن المشاعر والعواطف للبنات اكثر من الصبيان . وفي حوالي الثانية من العمر ، تستخدم البنات كلمات فيها من المشاعر اكثر من الصبيان . وحسب راي غليسون ، يميل الاباء لاستخدام لهجة آمرة اكثر من الامهات : (احضر ذلك الشيء الى هنا) ولغة تهديدية تجاه الصبيان اشد من تلك الموجهة للبنات ، في حين تبقى توجيهات الامهات ذات صيغة اكثر تهذيبا : (هل تسمحين باحضار ذلك الشيء إليّ من ، فضلك) . وفي احدى الدراسات كان الصبيان والبنات بعمر اربع سنوات يقلدون والديهم من خلال هذا النمط في الحديث بالذات . وقد بينت الدراسات حول اطفال اكبر سنا بقليل ان الصبيان في حديثهم مع بعضهم بعض يستخدمون لغة اكثر تهديدا وامرا وسيطرة من البنات ، في حين تركز البنات على الانسجام والمشاركة في العلاقة ، وسواء كان كلام البنات مهذبا اولا ، فانهن يتعرضن لمقاطعة الاهل اثناء الكلام اكثر من الصبيان حسب ما تبينه الدراسات . كما ان النساء يتعرضن للمقاطعة اكثر من الرجال ايضا .

على الرغم من التعقيد المتزايد باستمرار وكثرة تفاصيل البحث في الفروق الجنسية ، فان نقاط البحث المطروقة لم تتغير خلال قرن : كيف نفهم النساء؟ وسواء كان موضوع السؤال هو حجم الدماغ او مستويات النشاط او طرق معاقبة الاطفال ، فان المضمون التقليدي يظل يقر الذكر كنموذج للحياة في حين تبقى كينونة الانثى هي التي تحتاج للتفسير (او كما اقترح احد المحررين ان يكون عنوان هذا المقال هو : « لماذا كانت البنات مختلفات ؟ » . ربما حان الوقت اخيرا لوضع برنامج عمل جديد . فالنساء في نهاية الامر ، لسن مشكلة كبيرة . والمجتمع الحديث لا يعاني من زيادة العاطفة والغيرية او من وباء الحنان. المشكلة هي في الرجال ، او بدقة اكثر في الذكورة .

« هناك منظومة من الفروق الجنسية الحتمية وفيها القتل » كما تقول غليسون . ان الرجال يقتلون انفسهم حين يقومون بكل الامور التي يريدها

المجتمع منهم . ففي كل مراحل العمر ، يموتون بالحوادث ويتعرضون للنار ، ويقودون السيارات بشكل رديء ، ويجلسون فوق الرافعات ،ويشربون بكثرة. وفوق ذلك يزداد العنف ضد النساء انتشارا بشكل لا يصدق . قد يكون ذلك بسبب فوران هرمونات الرجال ، الا انني اعتقد ان السبب هو ان الواحد منهم يحاول ان يكون (رجلا) . ولو كنت أماً لصبي لوجهت اهتمامي جيدا للضغوط الاجتماعية التي تعلي من شأن تصرفات كهذه .

تبين الدراسات التي اجريت على حضارات اخرى ان سلوك الذكور ، وان تميز بالعدوانية ، فانه لا يصل هذه الدرجة ـ المميتة . لقد وجد وايتينغ من جامعة هارفرد ، الذي امضى نصف قرن في تحليل الطفولة عند حضارات مختلفة انه في المجتمعات التي يقوم فيها كل من الصبيان والبنات بالعناية باشقائهم الاصغر سنا ، يظهر كل من الطرفين حنانا وسلوكا أليفا « اني مقتنع ان الرضع يأخذون سلوكا ايجابيا من الناس » يقول وايتينغ « اذا كان عليك ان تعتني بشخص لا يستطيع الكلام ، فعليك ان تتعلم كيف تتلبس احاسيسه. وبالطبع يمكن ان يكون هناك كل انواع الخبرات التي تجعلك تخمد هذه القوة التلبسيه بحيث تصل الى درجة لاتعود فيها قادرا على الاستجابة الايجابية ، الا ان الوقائع المتوفرة لدينا تبين ان الصبيان قادرون على رعاية الرضع بشكل جيد » .

في المجتمع الامريكي ، يظهر الدليل على ان الآباء الذين يشتركون بشكل واضح في تنشئة اطفالهم يوجهون كلا من الاولاد والبنات باتجاه تتحدد فيه الادوار الجنسية بشكل اكثر صحة . وخلال الثماني سنوات الاخيرة ، قام برويت في جامعة ييل بدراسة شاملة لست عشرة اسرة تمثل تنوعا في الظروف الاجتماعية والاقتصادية ويتحمل فيها الآباء مسؤوليات رئيسيه في العناية بالطفل حين تنصرف الامهات للعمل طيلة النهار . وهؤلاء الاطفال تتراوح اعمارهم الان بين الثامنة والعاشرة من العمر . لاحظ برويت تطور فروق غامضة ولكن هامة بينهم وبين نظرائهم « ولا يعني هذا ان لديهم صراعات حول هوياتهم الجنسية ـ الصبيان ذكور ، والبنات اناث ، وجميعهم يهتمون بالاشياء نفسها التي يهتم بها اصدقاؤهم » ثم يتابع « ولكن حين كانوا بين الرابعة والخامسة ، مثلا ، ـ مرحلة ماقبل المدرسة حيث يترك الصبيان دماهم والبنات مكعباتهن ـ لم يتخل هؤلاء الاطفال عن بعضهم بعض . وظل الصبيان يمضون وقتهم في اللعب مع البنات بدماهم والبنات يبنين اشكالا بمكعباتهن وهم فخورون بما انجزوه » .

كـرات صغيـرة :

يلاحظ برويت أن الآباء يعملون ، بشكل تقليدي ، على تعزيز الهوية الجنسية اكثر من الامهات من خلال وقع الصبيان الى العاب تتطلب نشاطاً في الوقت الذي يهتمون فيه بامتداح البنات على جمال ملابسهن . ولم يكـن هؤلاء الآباء ممن يمكن تجاهلهم « كما يقول برويت » كما انهم لم يكونوا ممن يهمهم تخصيص الصبيان بكرات قدم والبنات بتنورات قصيرة ، وإنما كانوا يتعاملون مع الصغار بشـكل افـرادي . بـل انـي رأيـت زوجـا مـن الامهـات يتجـاوزن حدودهن في مثل هذه القضايا . فقد احضرت إحداهن حصان كاوبوي من نوع والاس لمولودها الذي لم يتجاوز الثمانية عشر شهراً ، مما جعل الأب يقول : « ما كان يجب أن نفعل هذا ، اليس كذلك ؟ » فقالت الام « وماذا فعلنا ؟ » وهكذا نلاحظ أن هـ لما اكثر من مجرد مشاركة تقوم على جهـد الوالديـن في الرعاية لتصبح انفراداً من جانب واحد .

إن مثل هذا التسـاهل في ترسيخ الدور الجنسي يجعل الاطفال اكثر تساهلا « فقد لاحظت أن الصبيان يستمتعون فعلا بمهاراتهم في مجال الاهتمام بالاطفال » يقول برويت . « كانوا يعرفون ماذا يجب أن يفعلوا للطفل الصغير . ولم ينظروا الى هذا العمل على أنه من اختصاص البنات ، بل اعتبروه عملا إنسـانياً . ولاحظت أن لدى البنات تصورات حية عن العالم الخارجي ، وعما تفعله أمهاتهن في أماكن عملهن — وهي أمور تصبح مثار اهتمام معظم الفتيات حين يصبحن بين الثامنة والعاشرة من العمر . ومع ذلـك كان هـذا يثير اهتمامهن حين كن بين الرابعة والخامسة من العمر » .

ولا يعني هذا أن برويت يريد أن يقول أن الآباء اكثر أمومة من الامهات ، وإنما يقصد أن يقول ، ببساطة ، إن اشتراك الابوين افضل من مساهمة احدهما وبقاء الآخر حيادياً . إنه لمن الصعب على الآباء أن يتركوا أعمالهم ليزيدوا من مساهمتهم . لقد بينت دراسة أجريت في عام ١٩٦٥ — ١٩٦٦ أن الأمهات العاملات يوفرن ٥٠ دقيقة يومياً لقضائها بشكل اساسي مع اطفالهن ، بينما يستطيع الآباء قضاء ١٢ دقيقة فقط . وفي دراسة لاحقة تبين ان الآباء ، في البيت الذي يعمل فيه الزوجان ، لا يمضون مع أطفالهم اكثر من ثلث الوقت الـذي تمضيه الامهات معهم . واكثر مـن ذلك ، يستنتج برويت أن الآباء يستفيدون كما يستفيد الاطفال من تزايد المسؤولية ، « فبقدر ما ينخرط الأب

يصبح شعوره مختلفاً تجاه حياته الخاصة » . ويضيف برويت » إن الكثير من الرجـال ، حين يكونون في غمرة العمـل ، يعرفون الكثير عـن العلاقات التنافسية ، إلا انهم لا يعرفون الا القليل عـن المودة في العلاقات . إن الاطفال خبراء في مجال العلاقات الودية والنساء المشمولات بدراستي هـذه سيدركن ، بعد مرور وقت كاف ، بان « الرجل اصبح اكثر لطفاً » .

إن دراسة برويت اقل شمولية من ان ترسخ احكاماً عامة حول تطور تحمل المسؤولية . وهو يؤكد ان استنتاجاته نظرية بشكل اساسي الى ان تدعم بمزيد من البحث ، الا ان ما قام به حتى الآن هو مراقبة فكرة اساسية كانت تثير حماسه « فكل طفل من هؤلاء الصغار يكبر بشكل ما » كما يقول « وهم لا يزرعون بذور البطيخ ويتركونها تموت . إنهم فعلا يدعمون تكاثر الاشياء إنهم يعدون صحن السلطة في الحديقة ، ويهتمون بتكاثر خنازير غينيا . وهـذا يعني عوالم كاملة تدعم رؤيتهم للأمور . إن الانجاب يصبح اكثر قيمـة حين يشترك ابوان في إعطاء القرار » قد لا يوافق العلماء على ما يفرق بين الجنسين ، الا ان اطفالنا ، ذات يوم ، سوف يتعلمون الاستمتاع بما يوحدهم .



الدراسات والبحوث

الحكاية الشعبيّة والاستلاب العقائدي

يوسف اسماعيل

مقدمة في المنطلقات النظرية :

بالرغم من شباب « البسيكولوجيا الاجتماعية » او ما يعرف بعلم النفس الاجتماعي ، إلا ان المؤسسين لهذا العلم أمثال هيفل (٢) وهربارت (٣) وفوندت (٤) وبعض العاملين في الحقلين « البسيكولوجي » و « السوسيولوجي » قد غدّوا « سيكولوجيا الشعوب » (٥) من اول نظريات « البسيكولوجيا الاجتماعية » لان البحث في المنتوج الثقافي ـ الشعبي ، المادي منه والروحي ، يقوم بدور خاص في توضيح بيسيكولوجيا الفئات الاجتماعية الكبيرة كالشعب والامة فهو منتوج جماعي ـ بخاصة الأدب الشعبي ـ يعكس مجمل الاراء والعادات

والمشاعر والسجايا الخلقية والعواطف والضلالات والاوهام التي تظهر لدى هذه الطبقات والأمم ، والجماعات .

وقد تفيد الاشارة هنا الى ان اهتمام البسيكولوجيا الاجتماعية بالمنتوج الثقافي الشعبي غايته التعرف على البناء الاجتماعي وعلاقات النشاط والتفاعل بين الافراد والفئات والطبقات للتوصل الى تفسير الوجود الموضوعي لنوع من وقائع الحياة الاجتماعية وليس تفسير المنتوج الثقافي الشعبي وتقييمه بحد ذاته وإن كان ذلك يحصل في إطار الدراسة العامة لمجمل النشاط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفكري الذي تهتم به البسيكولوجيا الاجتماعية اما الدراسة الادبية كموضوع بحثنا فهي تستفيد من نتائج البسيكولوجيا الاجتماعية وتنطلق من معطيات الواقع الموضوعي لتصب في النص الادبي لان الغاية تكمن في تفسير النص وتقييمه ، وتحليل معطياته الفنية والاجتماعية انطلاقا من الاعتقاد بأن الادب هو انعكاس فني للواقع الموضوعي .

ومن هذا يكتسب الفرش التاريخي ـ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والفكري ـ الذي يتصدر الدراسات الادبية ، او يندرج ضمن متنها التطبيقي اهمية خاصة في اي بحث ادبي ، إذ يربط بين جميع العناصر المؤثر في نشاط الناس الثقافي ، ويكتشف العلاقة الجدلية بين البنية التحتية للمجتمع والبنية الفوقية ، ودور كل من الفئات الاجتماعية الصغيرة منها والكبيرة ، والطبقات السائدة والمسودة ، والافراد ، في علاقاتهم الداخلية وفي علاقاتهم الخارجية فيما بينهم لتجسيد تلك العلاقة الجدلية .

ولعله بعد ذلك يمكن الادعاء بان النص في الادب الشعبي ـ بصفته الجمعية ـ هو اكثر النصوص التي يمكن دراستها على ضوء معطيات « البسيكولوجيا الاجتماعية » مع العلم انها مهمة تحتاج الى جهود عدد من الباحثين الجادين الذين يستطيعون تطوير البحوث التي وقفت عند استعراض النصوص وتلخيصها وجمعها(٧) او تحدثت عن موضوعاتها المتنوعة او درست بنيتها الفنية على ضوء المنهج البنائي او حاورت الباحثين في الادب الشعبي للوصول الى بدهيات في الادب الشعبي لا بد منها قبل الغوص في معطيات النص البسيكولوجية الاجتماعية .

ونطالب بجهود عدد من الباحثين لأن مجال البحث في الادب الشعبي على ضوء معطيات علم النفس الاجتماعي واسع ومتشعب فهو يتناول الشعب والفرد على حد سواء في وضعيات اجتماعية مختلفة ومتطورة تاريخيا ، ومؤثرة في الوقت ذاته ضمن فترة زمنية واحدة وضمن فترات زمنية متلاحقة . ويهتم بالاراء والمعتقدات والمفاهيم ، ويكشف عن اسبابها ونتائجها ومعتنقيها ، وشكل

تجليها الادبي والحياتي . أي أنه اهتمام شامل ينال بالدراسة والتمحيص الواقع الموضوعي بكل تلويناته الاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية كما ينال النص الفني بكل معطياته الشكلية والمضمونية . ولذلك فان جهود باحث واحد في هذا المجال لا تضيء الا زوايا صغيرة في المنتوج الثقافي الشعبي المتراكم ، وهي جهود تبقى ناقصة ، ولا تقدم تقييماً موضوعياً وقيماً إذا لم تتضافر مع جهود باحثين آخرين .

وعلى ضوء ذلك المنهج ستحاول الصفحات التالية الإشارة على الاستلاب العقائدي في الحكاية الشعبية بوصفه اقصى اشكال حالات التماهي بالمتسلط ونقصد بذلك تمثل الطبقات الاجتماعية المسحوقة لقيم النظام واعتناقها ، والتعلق بالانضباط والقانون وطاعة الرؤساء . وهي قيم لا تخدم في جوهرها الايديولوجي — الاجتماعي مصلحة تلك الطبقات وإنما تخدم مصلحة الطبقة المتسلطة ، وتعزز مواقعها . وتصون مكتسباتها . ولذلك نراها تدعم تلك القيم، وتعمل على غرسها بالترغيب والترهيب على حد سواء . بل انها توحد بينها وبين الاخلاق ، وتماهيها بحسن السيرة والسلوك .

وتطغى ظاهرة الاستلاب العقائدي في المجتمع ، حين تشتد التناقضات الاجتماعية والاقتصادية ، وتنهار قيم العدالة الاجتماعية . إذ يغدو المواطن في حالة رضوخ مرضية للمتسلط . يفقد خلالها توازنه النفسي ، وقدرته على السيطرة على الواقع الموضوعي ، سيطرة علمية . حينئذ يحس الانسان المقهور بوطأة وضعه ، وعجزه عن تغيير علاقة القهر بينه وبين المتسلط . فيتضخم تقديره له ، ويرى فيه نوعا من الإنسان الفائق الذي له حق شبه إلهي في السيادة ، والتمتع بكل الامتيازات . وما عليه — هو الإنسان المقهور — لكي يحل مازقه الوجودي والنفسي سوى التقرب من أسلوب حياة المتسلط ، وتبني قيمه ، ومثله العليا ، وثقافته ، وموسيقاه ، ولغته ، ووسائل لهوه ، وترفه ، وادراته ، وزي ملابسه .

وتعزز الطبقات المسيطرة استلابها العقائدي ذاك للطبقات المسحوقة خلال تبنيها المثل الشعبية الشاملة ، ثم اعادة انتاجها بما يتفق مع مصلحتها الاقتصادية — الاجتماعية والسياسية . وخلال تشجيعها للأدب الشعبي الذي عكس الوعي الاجتماعي المستلب ، ودفعت حلقاته الشعب الى الهروب من الواقع والعيش في الخيال ، بعيداً عن التفكير بواقعه ، وما يلحق به من غبن ، وما يجب عليه من نهوض من اجل التغيير ، بالإضافة الى كون تلك الحلقات تساعد

على تصريف التوتر الوجودي ، وتصريف للعدوانية المتراكمة ضد المتسلط ، من خلال (الغرق في عالم خرافي يحمل إرضاءات وهمية للإنسان المقهور) .

الحكايـة الشعبية :

إن الوضعيات الاجتماعية المتتالية التي دخلها الشعب العربي بعد تشكيل دولته الأولى وحتى نهاية العصر المملوكي ، عكست جملة من القضايا الايديولوجية والنفسية والفنية في البنية الفوقية للمجتمع ، فبعد أن تفككت العلاقات الاجتماعية القبلية في بداية العصر الإسلامي ، لم تكن العلاقات المجتمعية الجديدة قـد تبلورت بعد بما يكفل اندماج الفئـة الاجتماعية الصغيرة بالفئات الاجتماعية الكبيرة . ولذلك وجد الفرد نفسه ضائعاً في لجة ذلك التغيير ، يملؤه الشعور بالغربة في قبيلته التي انحلت في المجتمع الجديد ، وهو الإنسان الذي فشل في استيعاب الارتباط الافقي ، بين جميع الفئات والقبائل بالسرعة التي تكفـل له توازناً نفسياً ، يضمن استقراره الروحي .

وقد عكس المنتوج الثقافي الشعبي تلك السـيكولوجية الاجتماعية للفرد خلال القصص المتناثرة في أخبار اليمن وكتاب التيجان . ومثال ذلك قصة « الحارث الجرهمي » التائه الذي خاض مع رجاله معارك عظيمة ، انتصر فيها على أعدائه اليهود . ولكنه على الرغم من ذلك سقط صريعاً ، وحكمت عليه الآلهة بالتشرد والعمى ، فجاب الجزيرة العربية منفياً ، تبحث روحه عـن استقرارها في عالم الغربـة المبهـم .

و « ذو القرنين » فارس عربي ، خرج بجنوده لهداية الناس الى الديـن السوي ، ففتح البلاد ، وأخضع الكفار ، ووصل الى مشرق الشمس ومغربها ، ولكنه لم يستطع الفوز بالخلود ، ثم يقدم له الملاك عنقوداً من العنب لا يغني دلالة على حب الدنيا الذي لا يموت في الإنسان ، وجوهرة تزن كل اثقال الارض ، ولكن حفنة من تراب ترجحها ، دلالة على عين الانسان التي تملؤها حفنة مـن تراب . وحين يدرك ذو القرنين دلالة هدية الملاك يموت حسيراً في مكان مجهول .

وفي قصة « مضاض ومي » يلعب القدر دوراً بارزاً . فمضاض الذي يحب مي يسقي فتاة تطوف بالكعبة شربة ماء فينقل الواشون ذلك الى حبيبته ، فتغضب مي وتهجره على الرغم من محاولاته الكثيرة لاعادة الحياة لعلاقتهما ، فينذر أن يموت ظمأ قرباناً لاله الماء ، وحين تعلم مي بالحقيقة تموت الى جواره عطشى

وبعد صدر الاسلام دخل المجتمع العربي وضعية اجتماعية جديدة،عمقت فيها بعض الايديولوجيات جذورها . فحين ازيح الخليفة علي بن ابي طالب عن السلطة ، تحول المجتمع في ثوراته المتلاحقة من المطالبة بتغيير النظام السياسي بوصفه وسيلة لحل مشكلاته المشخصة الى المطالبة بتغيير راس النظام السياسي . ولما جاء عمر بن عبد العزيز الى السلطة باصلاحاته السياسية للنظام القائم اغتالته الارستقراطية الاموية ، ثم جاءت الثورة العباسية لتغتال خطواته الاصلاحية ايضا ، فربطت فئات المجتمع المذهبية منها والطبقية بسلطتي الخليفة الزمانية والدينية ارتباطا شاقوليا ، تكمن قوته بقوة الخليفة في بغداد وذلك ما ان دب الضعف في سلطة الخليفة المركزية حتى تفتت الدولة العربية الاسلامية الى دويلات متناحرة ، تعاني من مشكلات داخلية وخارجية خطيرة ، تجلت بشكل واضح في العصر المملوكي ، او ما يسمى بعصر الدول المتتابعة .

ومرة اخرى جاء المنتوج الثقافي الشعبي ليعبر عن المرحلة الجديدة ، وما تفرزه من مشكلات فردية وجمعية في الوقت ذاته مثل مشكلة الشعوبية ، ومشكلة الاديان في سيرة « سيف بن ذي يزن » ومشكلة الجنس واللون والعبودية في سيرة « عنترة بن شداد » ، ومشكلة الوطن وتهديد العدو لمكوناته المادية والروحية في سيرة « الاميرة ذات الهمة » ، ومشكلة الوضعية الاقتصادية ـ الاجتماعية المتردية في سيرة « علي الزيبق » .

غير أن تلك الوضعيات الاجتماعية العربية المتتالية لم تؤثر في انتاج انماط فنية معينة في الادب الشعبي كالحكاية الشعبية التي تعكس مشاكل فردية ، وكالسيرة التي تعكس مشاكل فردية وجمعية في الوقت ذاته فقط وانما كان بالغ الأثر في تراكمها التاريخي على الوعي الاجتماعي ـ الايديولوجي ، وعلى الوضعية النفسية للمواطن ، ويتضح ذلك بشكل جلي حين دراسة كل وضعية اجتماعية بشكل مستقل بخاصة تلك الوضعيات التي اثرت اكثر من غيرها في انتاج الأدب الشعبي . ونشير هنا الى الوضعية الاجتماعية في العصر المملوكي تحديدا .

عندما اعتلى المماليك عرش مصر والشام ، قاموا بخطوات هامة على الصعيدين الخارجي والداخلي . لتثبيت شرعية ما حصلوا عليه . فقد اخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن البلاد ضد الصليبيين والمغول . ونقلوا الخلافة العباسية الى القاهرة بعد سقوطها في بغداد . كما استظلوا بظل الاسلام

ودعوته للمساواة بين المسلمين سادة وعبيدا ، واظهروا التشدد في تطبيق حدوده واهتموا ببناء المساجد ودور الحديث والمدارس التي تدرس العلوم الاسلامية . وبالرغم من ذلك لم يمنحهم الشعب العربي الشرعية التي تثبت وجودهم وذلك لفقدان الثقة بينه وبين السلطة ، وذلك من جراء السياسة الاقتصادية التي كانت تقوم على النظام الاقطاعي العسكري بما فيه من نظام ضرائبي ، اعتباطي في تنوعه واساليب تطبيقه وسياسة الاحتكار التجاري . ومن جراء التنافس على السلطة السياسية وما ساد فيها من حروب جرت الى حروب اهلية مدمرة .

ان تلك السياسة بمجملها قد اغرقت الشعب بالفقر والجهل فسادت الفوضى ، وانتشرت مظاهر العنف والاعتداء على الاملاك الخاصة والعامة ، وتشكلت مجموعات العصابات والحرامية والحرافيش حتى بات المواطن في حالة ذعر شديدة على روحه واملاكه ، يخشى نظام الضرائب الاعتباطي ، ويخشى السلطة العسكرية ، ويخشى سطوة اللصوص ، ويخشى الحرب الاهلية .

وقد انعكس ذلك كله على التكوين الايديولوجي والسيكولوجي للمواطن بوصفه مجموعة من العلاقات الاجتماعية . ففي ظل قانون الاعتباط السائد اعتباط الطبيعة التي تمنع او تعطي من دون أن يدري الانسان كيف ولماذا ؟ واعتباط المتسلط الذي يبطش ويستغل من دون أن يكون هناك من سبيل الى مجابهة في ظل ذلك القانون ، وصل عجز الانسان الى مداه ، وانعدمت قدرته على توجيه الأحداث أو التأثير في الظروف ، فركن الى القدرية بوصفها محاولة ذاتية للدفاع عن النفس ، والسيطرة على المصير ، والتجأ الى الولي المنقذ ، وآمن بالمتسلط بوصفه انسانا فائقا ، وبحث في الرقى والتعاويذ عن سبيل لحل مأزقه الوجودي .. وهذا بطبيعته يبعث على الطمأنينة خلال التحلل من المسؤولية الذاتية ، وبالتالي تجنب مشاعر الذنب المتفاقم التي تصاحب بالضرورة الفشل الحياتي . كما أن ذلك العجز عن التصدي العقلاني للمشكلات والأزمات الحياتية يدفع المرء الى النكوص الى المستوى الخرافي والى الحلول السحرية ، والى ترسيخ التفكير الغيبي بوصفه محاولة للسيطرة على المصير المجهول ، وسيتضح ذلك خلال الكشف عن اشكال الاستلاب العقائدي التالية في الحكاية الشعبية :

١ ـ القدرية :

يتضح خلال الاستقراء العام للحكاية الشعبية العربية أن القدرية وما يستتبعها من قسمة ونصيب وحظ ودهرية ووعيدية بمثابة الملمح الجوهري الاول لجميع نصوصها . ويعيد شوقي عبد الحكيم جذورها الى السومريين ثم توارثتها عنهم العرب الساميون ، فانتشرت في العصر الجاهلي في الجزيرة العربية تحت اسماء آلهة متعددة مثل « مناة » و « الدهر » و « المنون » ثم اخذت القدرية في الفكر العربي الاسلامي حيزاً هاماً من الجدل والبحث بخاصة عند من عرفوا بعلماء الكلام وما تفرع عنهم . وقدر ادرك « فون ديرلاين » اثر ذلك في منتوجنا الثقافي الشعبي ، فقال ان (الحكايات الفولكلورية لا تعرف في النهاية سوى اله واحد هو الله وهذا الاله ليس له سوى رسول واحد هو محمد وهذا الرسول لم ينزل عليه سوى كتاب واحد هو القرآن ولا يعترف هذا الكتاب سوى بفكرة واحدة هي الايمان بالقضاء والقدر ، وفي هذا الايمان بالقضاء والقدر الذي يمثل الخضوع المطلق لله قوة صلبة ، كما انه يؤدي بصفة خاصة في مجموعة سلسلة الحكايات الخرافية النموذجية الى معرفة عقيدية خالصة بالطبائع الغريبة للاشياء) وقد تجلت القدرية تلك باشكال مختلفة نجد منها :

الخوف من المجهول : ان خوف الانسان من المتسلط والمجهول نابع من عدم قدرته على السيطرة على المعطيات التي يقدمها كل منهما . فالاول بتحكمه الاعتباطي والثاني بغيبيته وغموضه المبهم وتعبر عن ذلك الخوف الحكمة المأثورة « اللي مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين » وفي الحكاية الشعبية يحاول الانسان التخلص من قدره دون جدوى ، فهو مثل اوديب الهارب من قدره نحو قدره . فالرجل في حكاية « من جاور السعيد يسعد » على الرغم من محاولته الهرب من نبؤة الحلم الا انه يسقط ميتا على درج قصر الملك تعيساً وقد كتب على جبينه « نحن خلقناه ، ونحن رزقناه ، ونحن امتناه » . ومرة اخرى تتحقق النبوءة في حكاية الجمجمة بالرغم من موت حاملها . فقد كتب عليها « قتلت في حياتي اربعين وسأقتل بعد مماتي أربعين » .

البركة : ان البركة تفضي الى القدرية ، لما تحمله من استكانة وتخاذل يعيق فاعلية الانسان ونشاطه الانتاجي ، كما انها تحيل وعي الانسان الى وعي مستلب ، غيبي بعيد عن الموضوعية في تفسير الواقع وسبل التغلب على مشكلاته

ومن ذلك حكاية « السعد والبركة » . فقد اختلف فيها السعد والبركة حول ايهما انفع للانسان ، فاحتكما الى التجربة العملية . وذهب السعد الى فلاح فقير ومنحه مائة جنيه ، فاضاعها ، فمنحه مائة ثانية فاضاعها ، فمنحه مائة ثالثة فاضاعها . فكف السعد عن محاولته . وجاءت البركة واعادت للفلاح ما فقده من جنيهات بسهولة ويسر وقالت للسعد : « الم اقل لك بانه بدون البركة لا يمكن ان تكون لافعالك قيمة » . ومنها ايضاً ان فلاحاً ضاق به الفقر فذهب الى مالك واتفق معه على مشاركة محصول القمح اذا اعطاه كمية من البذار ، فاعطاه المالك . ولكن الفلاح ذهب ببذار القمح الى اولاده وبذر الارض رملا . وفي نهاية الموسم دخل الشريكان الارض ليريا المحصول ففوجيء الفقير بان ما بذره من رمل طرحت فيه البركة واثمر قمحاً .

وتتنوع حكايات البركة بين الاولياء والنساء والاطفال والحيوانات كالطيور والماعز والدجاج والابقار . ومن ذلك حكاية « البنت التي تزوجت كلبا » وقدمت لوالدها « رحا » سحرية تتدفق منها الاموال كلما اديرت يمينا او شمالا . وعندما سرقت منه قدمت له حماراً تسقط الدنانير من مؤخرته كلما قيل له « حا » . وفي حكاية اخرى ان رجلا اشترى بقرة من السوق ، وفي البيت اكتشف ان لها بزاً واحداً بدلا من اربعة كما هي حالة الابقار . ولكن — ولان زوجة الشاري بيدها البركة — حلبت البقرة بأثدائها الاربعة .

الحظ وتقسيم الارزاق : لم يستطع الانسان الشعبي الذي عانى من الفقر والجهل ان يكشف عن طبيعة الصراع الاجتماعي التي تحدد علاقته بالآخرين من جهة ، وعلاقته بالطبقة المتسلطة من جهة اخرى بل انه احال ذلك الصراع الى صراع عدمي بينه وبين عالم الغيب المبهم حيث يحدد فيه الحظ ، والنصيب ارزاق الناس على نحو غير عادل . ففي حكاية « البخت » التقى رجل هائم على وجهه برجل ينظره في الطريق . فقال الرجل الهائم من انت ؟ فقال الجالس انا حظك وعليك ان تنفذ ما اقوله لك : طلق زوجتك ، واقتل كلبك ، وهب بقرتك لاول رجل يرغب في شرائها . وقام الرجل بتنفيذ ذلك . أما البقرة فقد بادلها بقرد كان معاول راغب في بقرته . وفي طريق عودته ، ربط القرد بشجرة لبعض الوقت . وحين عاد وجد القرد يحفر في الارض ، وفي الحفرة يرقد كنز من الفضة والذهب ، فاخذه الرجل واشترى الضياع والدواب . وفي حكاية اخرى دخل رجل في عباءة شيخ المحاذيب فوجد نفسه في مدينة

كبيرة،وكان ملكها قد اعلن انه سيزوج ابنته من أول رجل غريب يدخل مدينته. فاقتيد الرجل الى قصر الملك وتزوج ابنة السلطان على أن لا يسأل عما يرى مما لا يعنيه امره . واثناء تجواله في حديقة القصر راى رجلا يتسلق شجرة صاعدا هابطا ويأكل من ثمارها الحلوة والتالفة في آن واحد . ثم راى رجلا يملأ دلوه بالماء حتى يطفحه ثم يسكبه في ارض مخضرة مزدهرة ثم يعود فيملأ الدلو بقليل من الماء ويروي به ارضا بوارا . فسأل عن تفسير ما راى فبطل زواجه ، ودخل في عباءة شيخ المجاذيب وعاد الى الرصيف الذي كان يجلس عليه ولكنه اخذ من الشيخ هذا التفسير . ان الرجل الذي يأكل من الشجرة هو عزرائيل قابض الارواح ، والرجل الذي يملأ الدلو هو مقسم الارزاق الذي يعطي كما يشاء بدون اعتراض احد .

٢ ـ الصراع الطبقي والخوف من التغيير المفاجيء في الاحوال الاجتماعية :

في اغلب تنويعات الحكاية الشعبية يكون تغيير الوضع الاجتماعي مفاجئا . اذ يكون البطل فقيراً ، معدماً ، لا يملك سوى حمار ، او بقرة ، او شبكة صيد . وما ان يذهب الى حقله ، او يرمي شباكه في البحر حتى يعثر على كنز في الارض يغتني به ، او يعثر على شيء تافه القيمة كغطاء سلحفاة لا يلفت الانتباه . ثم تتبدى قوته السحرية ، وتتحول حياة الرجل الفقير من العوز والضنك الى الغنى والجاه .

غير ان ذلك التغيير المفاجيء لا يركن في كثير من الحكايات الى المقولة الاجتماعية « الارزاق قسمة ونصيب » وانما يفضي الى توظيف المعتقدات الشعبية النظرية والوصول الى مداها الوعظي ـ الطبقي ، خلال التجريب ومن ذلك الاقوال « من يشبع ينطح » و « جوع كلبك يتبعك » . فالرجل الفقير يخضع بعد غناه الى امتحان اخلاقي ـ اجتماعي ـ طبقي عسير يفشل خلاله في الحفاظ على وجوده في الطبقة الجديدة لانه لم يستطع الوفاء لها . أو لانه خان طبقته الاولى ، وتنكر لجذوره . وفي كلا الحالتين هو انسان منبوذ اخلاقيا وبقاء وضعه الاجتماعي على حاله بدون تغيير يحافظ على اخلاقه السوية وعلاقاته الاجتماعية النبيلة . ففي حكاية « نية الملك » يتنكر الملك ووزيره ويجوبان المدينة ليلا فيستضيفهما رجل اغتنى من ثمار بستانه ، ويقدم لهما رمانا شهيا ، ويشيد بنية الملك الطيبة تجاه شعبه . الا ان الملك يضمر حقداً للمضيف الموسر ، ويصدر امره بزيادة الضرائب المفروضة على الشعب الذي

ازدادت امواله تحقيقا لذات المقولة « من يشبع ينطح » وبعد خمس سنوات اخرى يعود الملك والوزير لزيارة الرجل ذاته . وكانت حاله قد ساءت بعد زيادة الضرائب فيقدم لهما رماناً ضعيفاً ويحكي لهما عن نية الملك التي تغيرت تجـاه شعبه .

وخوفاً من تنكر الفرد للقيم الاصيلة . اذا ما تغيرت ظروفه الاجتماعية وحصل على الثروة (هو الذي دفع الاب في احدى الحكايات الى ان يسدي لابنه النصيحة قبل ان يموت فيقول له : لا تزوج ابا من اختيك برجل كان فقيراً ثم اغتنى والافضل ان تزوجهما من رجلين كانا غنيين ثم افتقرا . وبذلك عبر الاب عن خوفه من ان الثروة المفاجئة التي تهبط على الانسان لا تؤدي بالضرورة الى ثراء في القيم الاخلاقية ، بل ان الانسان في هذه الحالة قد يظل ملتزماً بالخسة والوضاعة اللتين توارثهما من اصله الوضيع ، اما اذا فقد الانسان ماله ، فان هذا لا يعني فقدانه للقيم الاخلاقية الاصيلة) .

فالانسان الشعبي في تنويعات المأثور الشعبي محكوم عليه بالسقوط والفشل من منظور ـ طبقي ـ اخلاقي يخدم الطبقة المتسلطة من جهة ، ويعزز الاستلاب في مختلف البنيات الاجتماعية المتعاقبة من جهة اخرى لانه يدعو الى التسليم بالواقع غير المتكافىء والاقتناع بفائدته واهميته خلال مماهاته بحسن الاخلاق والاصالة . وربطه بحارس الارزاق والذي يعطي بدون ان يسال كيف ولماذا ؟

وبالاضافة الى المعطى الاخلاقي الذي تكرسه الطبقات المتسلطة وتتلقفه الطبقات المقهورة معبرة عن استلابها العقائدي يأتي ذكاء الانسان وقدرته على حل الالغاز في الحكايات الشعبية (الحد الثالث للعلاقة الجدلية) بين المستلب والمستلب ، بين المتسلط والشعب، معززاذلك الاستلاب في جوهره الايديولوجي الطبقي ، وحاملا للسلوان المزيف في ظاهره بوصفه وسيلة خادعة لتثبيت الامتيازات الطبقية للمتسلط . اذ تلتصق ببسطاء الناس اكثر الجذور والالغاز ومباريات الذكاء والفصاحة في حين يقف المتسلط او القادر عاجزا امامها . ففي حكاية « قاتل التسعة والتسعين » يحار الملك في تفسير ما رآه في نومه فيرسل في طلب طفل تكلم في المهد بالحكمة ، ويطلب منه تفسير حلمه قائلا : « رأيت السكين تاكل من الجبسة » فطلب الطفل ان يسمح له بالكشف على خادمة الملكة ، وحين يجردها من ثيابها ، يجدها رجلا في زي امراة . فيقول للملك . الخادمة هي السكين والملكة هي الجبسة .

٣ ـ التماهي بحسن السيرة والسلوك :

اذا كانت الفئات الشعبية تحض في حكاياتها ومأثوراتها الشعبية على القيم الاخلاقية والسلوكية الاجتماعية النبيلة ، مما يعزز تماسك الاسرة وتآلف الفئات الشعبية فيما بينها ، فان الطبقات المتسلطة تحض على ذلك أيضا ؛ بل انها تعممه ليكون فاعلا في تماسك المجتمع بتنوع فئاته وطبقاته المتناحرة ، حرصا منها على مبدأ المصالحة ، الذي يكفل الحفاظ على امتيازاتها السلطوية. لان هذا الفعل الاستلابي يتناقض بطبيعته مع العدالة الاجتماعية . تلك العدالة التي ربطها الشعور بالقهر والاضطهاد وفقدان التوازن النفسي بمرجعية مثالية ـ غيبية لا تجدي نفعا على المدى الطويل وان كانت تحقق السلوان الآني المزيف . فاذا كان تحقيق العدالة الاجتماعية في مجتمع طبقي تناحري ، يقتضي من الفئات الشعبية المستغلة مقاومة الاستغلال والمطالبة بالمساواة ، والحض على العمل الثوري فان السلوكية الاجتماعية الاخلاقية في تلك الوضعية الاجتماعية تقتضي اشاعة وعي اجتماعي ثوري تحض قيمه الاخلاقية على مقاومة الاستغلال ونبذ ما يفرغ العدالة الاجتماعية من مضمونها الانساني مثل الدعوة الى القناعة في المأثور الشعبي « القناعة كنز لا يفنى » او « الصبر مفتاح الفرج » لان تلك المأثورات الشعبية تصرف التوتر الوجودي للشعب ، وتدفعه باتجاه سرابي ، طرفا الصراع فيه الشعب والعالم الغيبي ، وطبيعته الموضوعية تقتضي ان يكون طرفا الصراع فيه الشعب والمتسلط . واي انزياح عن تلك الطبيعة الموضوعية للصراع هو شكل من إشكال الاستلاب العقائدي الذي يعيد المتسلط انتاجه ويماهيه بحسن السيرة والسلوك . وهذا ما عكسته الحكايات الشعبية عبر تاريخ طويل من القهر ، والاستلاب .

ففي احدى الحكايات يطلب ملك من وزيره لحافا طوله متر وعرضه متر ، ويغطي جسمه كاملا . فاحتار الوزير في طلب الملك . وفي المقهى وجد رجلا أبدى استعداده لتلبية طلب الملك . وفي اليوم التالي جلب الرجل معه اللحاف وغطى الملك ولكنه لم يغط رجليه ، فضرب الرجل بعصا كانت معه رجلي الملك، فرفعها الملك . فغطى اللحاف كل جسمه . وقال للملك الم تسمع المثل القائل « على قد لحافك مد رجليك » وهذه الحكاية تريد ان تؤكد على القناعة وأهميتها بغض النظر عن شخصياتها . وهي بتثبيتها تلك القيمة الاخلاقية تحض ضمن مفهوم الاستلاب العقائدي على النكوص والاستكانة ، وتحد من

طاقة الطموح الانساني في العدالة الاجتماعية . وهي قيمة يختلف تقويمنا لها في ظروف خالية من معطيات الاستلاب العقائدي ، حيث القناعة سلوك اخلاقي سوي لا يحد من الطموح ولكنه يسيره ضمن شروطه الطبيعية . وكذا الامر مع الحلم والصبر في ظرفين مختلفين ، ظرف استلابي ، وظرف ديموقراطي تسوده العدالة .

ففي حكاية « اين عقلك » تسأل الزوجة زوجها اين العقل ؟ فيطلب منها ان تمنحه مهلة لئلا يتهور في الاجابة . واثناء بحثه عن الجواب الصحيح يطرق خيمة في الصحراء ، فتلقاه فتاة ناضجة ، يسألها اين ابوك ؟ فتجيب « انه ذهب يسقي الماء بالماء » فيسألها عن اخيها فتجيب « انه راح يصطاد الهواء بالهواء » فيسألها عن امها ، فتجيب « راحت تكفر بالله » وبعد وقت جاء الاب يحمل بطيخة ، ثم جاء الاخ يحمل غزالا ، ثم جاءت الام وهي ترتدي الملابس السوداء وتلطخ وجهها بالطين ، فتحل للرجل لغز اجوبة الفتاة . وجلس الجميع ، وشعر صاحب البيت أن ضيفه جائع ، فيصرخ بابنته : لماذا لم تقومي بواجب الضيافة ، اين عقلك ؟ فردت الابنة قائلة : اني اقوم بتحضير الطعام ، الا تعلم ان العقل في الصبر ؟.

فهذه الحكاية تحض على الصبر ، وتربطه بالعقل والحكمة وتؤكد ان الانسان العاقل هو الذي يصبر على مشقات الحياة . وهي قيمة ذات مدلولين كما ذكرنا . مدلول ايجابي في ظروف العدالة والمساواة حيث يكون الصبر من صفات الانسان الحكيم المتزن ، ومدلول استلابي في ظروف القهر والاضطهاد ، يصرف روح العداء تجاه المتسلط ، بحض الانسان على الصبر ، بخاصة اذا ارتبط هذا الصبر بفهم غيبي لمجريات التناقضات الاجتماعية التي تغرق الشعب بالفقر والجهل .

وفي اطار التماهي بحسن السيرة والسلوك يغدو الانسان الطيب نموذجا تدعوا الفئات الاجتماعية المستلبة والمستلبة الى الاحتذاء به خلال ربط سلوكه بالاخلاق والاصالة والبعد عن الخسة ، والاعتراف بالجميل لان ذلك يعزز من تماسك المجتمع ، وسعادته ، ورضاء قوى الخير عليه ، ولكن جوهره الايديولوجي ـ الطبقي ضمن فهمنا للاستلاب يدعو هذا السلوك الى الخضوع والخنوع ، والانضباط تحت قانون السلطة ، وهو بذلك يفرغ من مضمونه الانساني ويسخر لتعزيز موقع المتسلط وقدراته . ومن ذلك حكاية « الصمت

حكمة » الذي يصمت فيها ابن الملك بشكل دائم ، مما اثار غضب والده ، وكره من حوله . وحين اخذه الوزير ليذبحه وفق اوامر الملك . طلب الولد من الوزير ان يمر به على العطار والنجار والجزار . فسأله الوزير عن السبب فقال الولد : « دكان العطار آخذ منه الصبر ، ودكان النجار آخذ منه الصمت ودكان الجزار عشان كل ذبيحة معلقة من عرقوبها » .

ربما تكون الاشارة الى النقاط الثلاث التي ذكرناها كافية في هذا المجال الضيق . غير ان الاستلاب العقائدي يصبغ بطابعه الاضطهادي جميع قيم الانسان الاخلاقية والجمالية ، وجميع علاقاته الاجتماعية . والحكاية الشعبية عبرت عن ذلك كله بشكل مكثف من خلال المعتقد الشعبي واطره النظرية ، واعادة انتاجه سياسيا وطبقيا . يقول : امانا سييف : (في مجتمع الطبقات المتعادية تسود الافكار الحقوقية للطبقة المستغلة ، ولكي تفرض الطبقة الحاكمة ارادتها على الطبقات الاخرى فانها تستفيد لا من جهاز الدولة فحسب بل من الآراء الحقوقية ايضا . وتحاول من خلال هذه الآراء تبرير القانون الذي فرضته ، وتمويه طابعه الطبقي ، وتصويره على انه قانون الشعب بأسره وانه التعبير الاسمى للعدل والحق) .

كما انها تعزز الاعتقاد الغيبي وعلم العرافة وفكرة الميثاق بين البشر والقوى الخفية والرأي الذي يرى ان المجتمع انتصاعدي أزلي ، وان الاله خلق العالم ورتبه درجات ، وان رأس الجماعة البشرية في اية ناحية من نواحي الحيـاة (هو بشر في كلمة الله وسره) ، وتشجع السلفية لانها تعطي المتسلط صبغة القانون الطبيعي الذي يحكم الحياة ، وتصرف الانسان المقهور عن النهوض بواجب التغيير ، وتحيله مع اشكال الاستلاب الاخرى الى كائن عاجز ، دوني ، مستلب بتقديره للقوي ، النقيض ، القادر على حل مشكلاته وازماته .

←

الهوامش والمراجع :

(١) حاول الباحثون تصنيف القصص الشعبي الى انواع وفق مناهج دراسية متعددة ، ولكنا لم ناخذ بها في هذه الدراسة لضيقها . ولذلك فان مصطلح « الحكاية الشعبية » في هذه الصفحات شمل الحكاية الخرافية والشعبية ، وحكايات الحيوان .... الخ .

(٢) مثالي الماني عاصر هيغل .

(٣) كانت تعاليمه بصدد « الروح الشعبية » مصدرا لبسيكولوجيا الشعوب .

(٤) مثالي الماني عاش بين عامي / ١٨٣٢ ـ ١٩٢٠ / م . من اهم مؤلفاته «بسيكولوجيا الشعوب» وهو بحث موسوعي قسم فيه القصص الشعبي الى : ميثولوجية وخرافية ، وبيولوجية ، وحيوانية ، وقبلية ، وهزلية .

(٥) را : غالينا اندرييفا ، البسيكولوجيا الاجتماعية ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٨ ص ٣٥ .

(٦) المرجع السابق ص ٢٢٤ .

(٧) امثال : ـ فاروق خورشيد ، سيف بن ذي يزن ـ صياغة معاصرة ، دار الهلال ، القاهرة .



الدراسات والبحوث

رحلة الحسن كما يرويها حميد بن ثور الهلالي

خالد محيي الدين البرادعي

حميد بن ثور الهلالي ، واحد من المبدعين الكبار الذين عاشوا في الجاهلية والاسلام . وله ترجمات عدة بين الشعراء المخضرمين ، في الاغاني . والشعر والشعراء . وطبقات فحول الشعراء . والاصابة . ومعجم الادباء . وغيرها .

لا يعنينا وصف القدامى لشعره . وأنه مجيد متفرد . بقدر ما تعنينا نصوصه الشعرية المتبقية . والتي سلمت من التلف والنسيان . فهي صوته وبصمته . وهي الشاهد العدل على سمو شعريته . رغم قلة هذه النصوص التي لا تتجاوز بضع القصائد(١) .

---

(١) اعتمدنا ديوان حميد بن ثور الذي حققه عبد العزيز الميمني . رئيس قسم اللغة العربية بجامعة عليكرة بالهند . والمطبوع عام ١٩٦٥ ضمن منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة ـ القاهرة .

في اكثر من نص شعري لحميد .' تغيب الغنائية عن شعره . تمام الغياب . ويغيب الصوت الشعري المفرد الذي يرصد هموم الشاعر واحساسه الذاتي. والحاحه على الحضور في كل صورة في القصيدة. وتختبىء كل هذه الاحاسيس والهموم الفردية وراء رصد تصويري مدهش يعتمد السرد القصصي او البناء الروائي . حتى لننسى او نكاد . ان الشاعر هو الذي يتحدث . بل يوهمنا انه روائي بارع يرصد ويرسم بالتكثيف والايجاز؛ حدثا يبدؤه بتكوينه وخلقه. ثم ينميه ويتابع تطوره عبر افعال شخصياته ووصف ما يستطيع حسه الشعري المرهف ان يلتقطه ويصوره لاغناء اللوحة القصصية المقنعة والممتعة . حتى يضع له نهايته الطبيعية والمنطقية . وهو حتى في الصور القليلة التي تتدخل الانا فيها ، نظل متيقنين ان الشاعر يروي لنا قصة شعرية ليس هو راويها بل بطلها ومحور احداثها .

سنقف امام واحدة من اعظم قصائد حميد الباقية . وهي ميمية طويلة تجاوزت مائة بيت . استهلها بمطلع شبيه بالمطالع الجاهلية التي تتمركز حول حالة من الحالات التي شغلت الجاهليين . كتذكر الحبيبة ورحيلها من خلال اثر اهلها . او الوقوف في محراب الذاكرة يستلهم مخزونها . او التوجه نحو طيف الحبيبة يستلهمه وينميه ، ليبثه تشهيه اللطيف ، كنوع من انواع حفز الشاعرية ، وفتح منافذ الابداع . او التهيؤ النفسي للدخول في الشعرية . ثم يبتعد الشاعر من اناه لتتخذ القصيدة مسراها القصصي .

واستطعت ان اعتبر القصيدة في سبع لوحات . بعد ان اعدت ترتيب ابياتها وفق السياق الطبيعي لبنائها . وكما اعتقد ان الشاعر بالاصل ابدعها قبل ان يمزقها النقل والرواية عبر العصور .

على ان اللوحة الاولى . والتي هي مطلع القصيدة ، هي المدخل المنطقي والطبيعي لبناء اللوحات التالية . التي تعالج حدثا محددا اعتمده الشاعر ، ونماه ضمن بناء القصيدة . التي خلت خلوا تاما من الثار والقتال والسلاح ووصف الحروب . والمديح والهجاء . والفخر الذاتي والفخر القبلي . لتنحو منحى البناء المثقل بالفرادة ضمن فنية السرد والوصف القصصيين . حتى لنقف مشدوهين امام هذا الوعي المدهش في بناء شعري يعي فنيته وهويته . ثم لنستبعد فكرة العفوية عن هذا النمط من الشعر .

وبدءاً من اللوحة الثانية . يدخلنا الشاعر في قلب حدث يختاره . ويتحول الى عين سينمائية تمتلك وعيا انسانيا فتعي ماتفعل . وتدرك من اي الجوانب تدخل لتصور .

تضعنا هذه العين الشعرية المدركة — فيما بعد — امام امـراة بالغـة الكمال . حسنا وشرفا واناقة وإثارة . تريد او يريد أهلها الرحيل . وقبل أن توصلنا القصة الى هذا المشهد الاحتفالي الطويل . نرانا امام مجموعة مـن الابل الجميلة السمينة ، التي رعيت افضل المراعي في افضل الامكنة ، والتـي سهر رعاتها على سلامتها . وازينت بحسن ماعليها من منسوج يبرين الـذي زادها حسنا واثارة وتشوقا للمشاهدة . عبر ما نمر عليه من امكنة خضراء . وبقاع معينة ترتادها وتترك عليها آثارها . وكيف احضرالورادهذه الابل المنعمة الى مكان الانطلاق . ونحس بكبرياء هذه الابل كما لو كانت مخلوقات بشرية ، عندما قامت العذارى اليها لتضع الخطم في انوفها . فترد اكف العذارى عزة وانفة ، وكانها ترفض الازمة والقيود . فتلجأ العذارى الى جمل سمين كانه قمة جبل ، تام الخلق مروض الیف . يسهب الشاعر في وصف ولادته وتربيته ورياضته . كما لو كان منذ خلق معدا لحمل هودج السيدة الجميلة التي سوف ترحل إمام كوكبة العذارى . ويطيل اضفاء الصفات النبيلة على هذا البعير الضخم . فيدقق في حركاته وجزئيات جسمه ، ورسم سلوكه عبر رعيه وتسمينه ، وكأنه يصف بطلا من ابطال الاساطير . ويشير الى الام التي انجبته للاشادة بعرقه .

وتنشب العذارى زمام هذا البعير الضخم . كما لو كان الخشاش ثعبانا بعضه . فشعر بشيء من الخوف من منظـر الزمـام ، وتنطلق من شدقيه اصوات كتغريد العصافير . لكنه يستكين للزمام ، وهو المروض المتعلم .

وتقول احدى العذارى لاختيها : حان وقت تزيين هذا البعير الضخـم بمركب السيدة الجميلة . ليسهب الشاعر مرة أخرى بوصف الهودج وادوات الركوب . ويقف وقفة طويلة امام صفات القبيط. وهو مركب من مراكب النساء يثبت على الناقة أو البعير . فيقدم من خلال هذه اللوحة الجميلة الطويلة ، طقسا من طقوس صناعة المراكب . والرسوم التي تزينها وكيف يحسب من يشاهد هذا المركب ان صور الخيل المتقنة على نسيجه خيل حقيقية تكاد ان تحسم . وكيف افتنت الصانعات في صنعه ونمنمه ما انسدل عليه من النسيج،

ويكاد يسمعنا موسيقى تنبعث من حنويه . وكيف طافت العذارى من حوله كطقس من الطقوس التي تؤدي حوله قبل ان تصعد اليه السيدة الجميلة . وكيف تحول هذا المركب المهيب الى سيدة حصان . لا تتركها وصائفها العذارى حتى ينحدر من جباههن العندم والزعفران . وقبل ان تصعد اليه السيدة يخبرنا الشاعر بصورة مجملة لهذا البعير ومركب السيدة المثبت فوقه . انه بلغ من حسن صورته ما يجعلنا نحس انه يكاد يمشي او يلقي السلام .

وينتقل السرد الى لوحة جديدة . ضمن احتفال طقوسي مهيب . عندما تتقدم العذارى من خباء السيدة ، ويدعينها للركوب . وهنا يقف وقفة جديدة ليصف مشية هذه الحسناء . التي اقبلت تهتز كالكثيب المرهم . وعليها الثياب الميسانية المزخرفة الجميلة . وهي بيضاء كاملة الخلق والخلق .رقيقة لاتثرثر مع جيرتها . ينضح منها العبير ، وطاف من حولها العذارى وهي ترتقي مرجحنة من سمنة ودلال وكبرياء ، وكيف تحولت ايدي العذارى الى سلم ترتقيه الى هودجها . وكيف سبح العذارى ، وقلوبهن خاشعة تراقب هذا المشهد الجميل المهيب . وظلت ابصارهن معلقة بالحسناء وبعيرها وهودجها حتى لوت زمام البعير ، بانامِلها الشبيهة باهداب الحرير .

ويسير هذا المركب محملا معه الحسن والرقة والطهارة والاشتهاء الذي يعصف بقلب هذا العاشق . وهو يراقب بدقة وإحاطة كل ما يتحرك امامه. واستقل هذا الحي في رونق الضحى . ودخلت العذارى الى مراكبهن مسندلات على الهوادج رقمها .كما تدخل الظباء مخابئها هربامن حرارة الشمس المحرقة.

وتزداد لوعة العاشق . بمقدار ابتعاد احداج الحبيبة عنه ، وتتملكه رغبة اللحاق بها ، وتعتريه صبابة المتيمين . فيدعو راعييه لاحضار ناقة عجلى . وتجيء شوشاة او شوشاء وهي الخفيفة الحركة . فيراها مرحة نشيطة على جسدها شقوق او جروح من سرعة حركتها ووفرة نشاطها وقدرتها على المشي السريع . ويراقب الراعيين اللذين خادعاها مخادعة حتى تمكنا من ربط الزمام عليها . وقد جمجمت وجدا بصوت خفي . بعد أن قطعت نعال الراعيين من جموحها . وتطاير الحصى من بين اخفافها كزهر الزعفران ، وهي تمور تحته يتبعه غلاماه على بعيرين .

ويصف تلك الرحلة الصعبة خلف احداج الحبيبة ويرسم امامنا جبال السراب ، ولفح الهجير . والوديان والاكام . ولما لحق باحمال السيدة الراحلة

بالحسن والحب . ولمح وجوه العذارى من خصاص الستور . والنوق تنشر اللغام المفعم . أي الزبد المتراكب من افواهها . نادى السيدة أن تناجيه من خلال خدبها المستر بالنسيج المطرز .

وتتوقف اللوحة القصصية التي عجت بأشياء البيئة ، ورسمت الموقف والشاهد والرحيل . لتنعطف القصة منعطفا جديدا في تركيبها . فتتوالد قصة من قصة كما تتوالد الموجة من الموجة . ويخبرنا الشاعر ببراعة حسن التوليد والتخلص . أن هذا الشوق الملتهب اثر من مشهد آخر . هو مشهد الحمامة التي تغني على غصن اخضر . وتبكي بكاء الثكلى التي اصبب حميمها ؛ الفها او ولدها . ويدخلنا في بناء قصصي جديد . يسرد من خلاله قصة حمامة تباري اسراب الحمام . ثم تعود الى عشها لتعطف على فرخ صغير ، مطوق باللون . لا بالطوق المصنوع كالتميمة ، او المصاغ بكفي الصائغ . وكيف بنت له بيته في أعالي الغصون خوفا عليه واشفاقا من مصرعه . وظلت ترعاه . وتبحث عن طعامه كالام الحنون . مؤملة ان يكون لها صديقا في عمرها . ولما اكتسى جسده بالريش اتيح له صقر جارح ، أكله وترك لها عظامه .

وكان في بنائه الجميل المتقن يسبغ الاحاسيس الانسانية على الحيوان والطير والزهرة والقماش وزمام البعير . فيصفها كما لو كانت تمتلك الاحاسيس الادمية . ويقف وقفة فيها الكثير من النبل والرقة امام هديل الحمامة . كما لو كان يحاور امرأة محزونة أو يترجم مشاعرها واحاسيسها . وتستغرقه الحالة الانسانية في مصرع هذا الفرخ . فيصور لتلقيه مصرعه كما لو كان طفلا مقتولا . فيقول عنه : ولدا وعظاما ، ورميما .

وفي الجزء الاخير من هذه القصيدة الشامخة . ينعطف الى بناء ثالث فيه السرد القصصي . وفيه الحس المسرحي المتقدم . عن طريق الحوار ونقل الحركة والفعل باللغة . عندما يبعث خليليه نحو قبيلة الحبيبة التي استقرت في مكان معين . ويوصيهما ان يفعلا ويقولا مايريد . وبعد عودتهما يتأكد من خيبته وغياب حبيبته . لينهي هذا البناء الشعري المدهش بتساؤل يضعنا نحن كمتلقين وجها لوجه في حزنه الدائم . وفشله في رحلة العشق هذه .

وفي الصور القليلة التي يدخل الى القصيدة باناه . ويتحدث بصيغة المتكلم . يستطيع أن يوهمنا ان هذا التدخل على ندرته . جزء من التكوين الشعري في القصيدة ، وضرورة من ضرورة بنائها القصصي .

ونستخلص بعد قراءة القصيدة اوسماعها . ان حميدا كسائر الشعراء الجاهليين . قد رسم الانثى في ذهنه ضمن المواصفات المثالية ، ووفقا لتشبيه الذاتي . ثم حول هذا الرسم الذهني الى حالة تعيش في ذاكرته وتمثلها . وعندما اقبل على ابداعه الشامخ . حدث ذلك التمازج بين التذكر والتداعي. في بناء عمل خالد ومتقدم يشغله السرد القصصي احيانا والحوار المسرحي حينا بتماسك وتلاحم مدهشين . بعيدا عن الثرثرة اللفظية ، ومبتعدا عن الكلمات المجانية . وعن كل الزوائد التي نحس بانها حشو في القصيدة . وبلغ من شدة التركيز على الايجاز والتكثيف ، مبلغا كان يدفعه الى الانتقال الخاطف من المشهد الى المشهد الذي يليه . دون قطع او فجوات . بل هو انتقال الخبير بالايجاز . كاهم خاصة تفرد بها الشعر الجاهلي .

وقد رأيت ان القصيدة منسوجة في سبع لوحات . هذه رؤيتي الشخصية بالطبع . ووصلت الى هذا التقسيم بعد ان اعدت ترتيب ابيات القصيدة من خلال الذائقة الشعرية ، والحس النقدي . واسميتها : رحلة الحسن . كما برويها حميد بن ثور الهلالي .

اللوحة الاولى

أَلا هَيَّما مما لَقِيتُ وَهَيَّما
وَوَيْحاً لِمَنْ لم أَلْقَ منهن وَيْحما

أَأسماءُ ما أسماءُ ليلةَ أَدْلَجتْ
إليَّ وأَصْحابي بأيَّ وأيْنَما

سَلِ الرَّبْعَ أَنَّى يَمَّمَتْ أُمُّ سالِمٍ
وهل عادةٌ للرَّبْعِ أنْ يتكَلَّما ؟

ولَوْ أنَّ رَبْعاً رَدَّ رَجْعاً لسائلٍ
أشارَ إليَّ الرَّبْعُ أوْ لَتَفَهَّما

أجدَّكَ شاقتكَ الحُمولُ تيَمَّمَتْ
هَدانَيْنِ واجْتابَتْ يَميناً يَرَمْرَما

على كل مَنْسوجٍ بِيَبْرِينَ كُلِّفَتْ
قُوى نِسْعَتَيْهِ مَحْزِماً غير أهْضَما

رَعَيْنَ المرُارَ الجَوْنَ مِنْ كُلِّ مِذْنَبٍ
شُهورَ جُمادى كُلَّها وَالمُحَرَّما

وخاضت بأيدْيها النِّطافَ وَدَعْدَعَتْ
بأقْتادها إلا سَريحاً مُخَدَّما

تَناوَلُ أطرافَ الحمى فَتنالُهُ
وتَقصُرُ عن أوْساطِهِ أنْ تقدَّما

إلى النير فالعلْباء حتى تَبَدَّلَتْ
فكانَ رواغيها صَريفَ المُسَدَّما

وعادَ مُدَمَّاها كُمَيْتاً وأشْبَهَتْ
كُلومُ الكُلَى منها وجاراً مُهَدَّما

وقد عاد فيها ذو الشَّقائقِ واضِحاً
هِجاناً كلَوْنِ القُلْبِ . والجَوْنُ أصْحَما

وجاءَ بِها الوُرَّادُ يَحجِزُ بَيْنَها
سُدىً بين قَرْقارِ الهديرِ وأعْجَما

من البيت الرابع في اللوحة الأولى التي اعتبرناها مدخلا الى الكون الشعري ، او طقسا شعريا للدخول الى العالم الذي سوف يفتح منافذه امامنا دخل في البناء القصصي . وابتعد عن الانا ، ليحيل السرد الى صيغة الغائب . وكانه على علم تام ووعي دقيق بأسرار السرد القصصي ، والتوجه نحو البناء البعيد عن الغنائية ، والتي تعني ذات الشاعر ووصفه لاحاسيسه وتوجهه

الفردي . وما أن ينتهي من رسم المعالم الاولية القائمة لجو القصيدة ، حتى يبدأ بفتتح المنافذ واحدة وراء الثانية . ليوصلنا الى هذا العالم الجميل الذي يضم الحبيبة الجميلة ، ووصيفاتها العذارى ، وسرب الابل . هذه الكائنات القوية الضخمة . التي اغناها الشاعر الجاهلي بالنبل والجمال والعظمة . وحولهما بالشعرية المرهفة من حيوانات تعيش في الصحراء وظروفها القاسية. الى ما يشبه الكائنات الاسطورية .

اللوحة الثانية

فقامَتْ إليهنَّ العَذارى فأقذعَتْ
أكُفُّ العَذارى عزَّةً أنْ تُختَطَما

فَقَرَّ بْنَ مَوْضوناً كأنَّ وضينَهُ
بنيق إذا ما راقَهُ الغُفْرُ أحْجَما

صلَخدٌ كأنَّ الجِنَّ تعزفُ حولَهُ
وصوتَ المُغنِّي والصَّدى ما ترنَّما

بغير حَيّاً جاءتْ به أرْحَبيّةٌ
أطالَ بها عامَ النتاجِ وأعْظَما

تَراهُ إذا استَدْبَرْتَهُ مُدْمَجَ القَرا
وفَعْماً إذا أقْبَلْتَهُ العينَ سَلْجَما

ضُباراً قَريطَ الحاجِبَيْنِ إذا خَدا
على الأُكْمِ وَلاَّها حِذاءً عثَمْثَما

رعى السُّرَّةَ المِحْلالَ ما بَيْنَ زابنٍ
إلى الخَوْرِ وَسْمِيَّ البُقولِ المُدَيَّما

فَجِئْنَ به عوجَ الملاطيْنِ لم يَبِنْ
حِداجَ الرِّعاءِ ذاعتَالَيْنَ مُسْنِما

فلما أتتهُ أنشبَتْ في خشاشه
زماماً كثعبان الحماطة مُحْكَما
شديداً توقيه الزمام كأنما
براها أعضَّتْ بالخشاشة أرقما
كأنَّ وحى القَرْدان في كل ضالة
تلهجم لحييه ، إذا ما تلهجما
إذا عزةُ النفس التي ظلَّ يتقي
بها حيلةٌ لم تُنْسِهِ ما تعلّما

هي لوحة قصصية ضمن اي اعتبار نقدي . وهي جزء من بناء روائي يجنح الى التفاصيل الدقيقة شأن اي رواية في ادبنا المعاصر ، يستغرق صاحبها في ابراز التفاصيل والجزئيات . وحميد لجأ الى هذه الطريقة في الالحاح على تصوير جزئيات هذا البعير الضخم . فلاحقه منذ ولادته حتى استوى كائنا ضخما كقمة الجبل . دون ان ينسى تسليط الاضواء الكاشفة والمكبرة على حالاته كلها . وقد اكسبه خصائص انسانية من خلال الصفات التي اسبغها عليه . بل واوحى الينا بهذه اللباقة التصويرية النادرة ، ان نتخيله ونراه ونراقبه وهو يرعى ويمشي ، ونسمع عزيق الجن من حوله . وانغام الموسيقى . وصدى الاصوات . وزقزقة العصافير من شدقيه ، ويقربنا منه لنالفه ونانس به كما لو كان انسانا يتمتع بخصائص البطولة الجاهلية كما يراها الشاعر . وبعد أن يتفحص اجزاء جسده . ويجعله يتقي . وان له عزة نفس . ويحاول استخدام الحيلة . وانه لا ينسى ويرفعه الى ذروة الكمال . يلتفت الى الوصيفات اللواتي يطفن بالسيدة صاحبة الشأن . والتي هي محور الحدث في القصيدة وشخصيتها الرئيسة في بناء احداثها . ليطلعنا على لوحة التاهب للرحيل . وهو على وعي تام بضرورة حجب الانا عن التدخل في المشاركة بتسيير الحدث . كما يفعل اي روائي بارع ممسك بادوات فنه . وكان اللوحة الثانية توصلنا بمنطق واقناع الى اللوحة التي تليها .

اللوحة الثالثة

وقالت لأُختيها · الرَّواحَ . وقدَّمَتْ
غَبيطاً خُشُبْمِيّاً تَراهُ وأَسْحَما

لهُ ذِلَبٌ للريحِ . بَيْنَ فُروجِهِ
مَزاميرُ يَنفُخْنَ الكَسيرَ المُهَزَّما

سُدِّمِيٌّ يَلوحُ الوَدْعُ فوقَ سَراتِهِ
إذا أَرْزَمَتْ في جَوْفِهِ الريحُ أَرْزَما

كأنَّ هَزيزَ الريحِ بَيْنَ فُروجِهِ
عَوازِفُ جِنٍّ زُرْنَ حَيّاً بِعَيْهَما

تَباهي عليه الصانعاتُ وشاكَلَتْ
به الخَيلَ حتى هَمَّ أنْ يَتَحَمْحَما

وزَيَّنَّهُ بالعِهْنِ حتى لَوَانَّهُ
يُقالُ لَهُ · هابِ هَلُمَّ . لأَقْدَما

فَجِئْنَ به لا جاسِئاً ظَلَفاؤُهُ
والأَسْلَساً فيه المَساميرُ أكثَرَما

يطفْنَ به يحلونَ حول غبيطها
رِبابَ الثُرَيّا صابَ نجْداً فاوسَما

تُخالُ خلالَ مُجَرَّفِمِ لما سَدَكْنَهُ
حِصاناً تُهادي سامِيَ الطرفِ مُلْجِما

سَراةَ الضُّحَى مارِمْنَ حتى تَحَدَّرَتْ
جِباهُ العَذارى زعفراناً وعَنْدَما

فلوْ أنَّ عَوْداً كان مِنْ حُسْنِ صورةٍ
يُسَلِّمُ أوْ يَمْشي مشى أوْ لَسَلَّما

كما افرد اللوحة الثانية لوصف البعير بصيغة السرد القصصي ، افـرد اللوحة الثالثة لوصف المركب الجميل ، ليهيء متلقيه للترقب . وكأنه يثيرنا ويشد انظارنا من خلال جمال الهودج المصنوع بعناية فائقة . لنسأل عـن صاحبته . واذا كان التحليل النفسي الذي استند حديثا الى الابداع الادبي القديم لاثبات النظريات في مجال الغوص الى اعماق الانسان . فان هـذا الاسلوب المثير الذي شغل جانبا من الشعر الجاهلي اصلح ما يكون للغوص فيه كائنات للتوتر والتشوق ، وسبر احوال النفس البشرية في تأثرها بالابداع. دون ان يتخلى الشاعر عن خاصيته السرد القصصي . ودون ان يخطيء بادخال الانا او حشرها في توتر الحدث . ولو اعدنا قراءة اللوحة الثالثة ، ذات الاحد عشر بيتا ، لوقفنا على هذه الدراية المتوهجة في انشاء القص . مما يدفعنا الى الاعتقاد بان الشعراء الجاهليين او بعضهم ، كانوا ذوي ثقافة واسعة ومعقدة في فهم الوان الابداع الشعري ، خاصة في الشعر البعيد عن النفعية . والذي لايقصد منه الا الامتاع الفني الخالص .

من هذه اللوحة ندخل الى لوحة يشغلها مشهد السيدة الجميلة بـين وصيفاتها العذارى . وهن يتقدمن اليها بمشهد احتفالي خـاص ، لترتقي هودجها الجميل بصورة شعائرية مؤثرة .

اللوحة الرابعـة

فقلنَ لها : قومي ، فَدَيْنَاكِ فارْكَبي
فقالت : ألا لا غَيْرَ . أمَّا تَكلّما

وجاءت يَهُزُّ المَيْسَانيَّ مَشْيُها
كَهَزِّ الصَّبا غُصْنَ الكَثيبِ المُرَهّما

مِنَ البيضِ عاشت بينَ أمٍّ عزيزةٍ
وبينَ أبٍ بَرٍّ أطاع وأكْرَما

رَقودُ الضُّحى لا تَقربُ الجيرةَ القُصَى
ولا الجيرةَ الأدْنَيْنَ إلا تَجَشُّما

مُنَعَّمةٌ لو يصبحُ الذرُّ ساريا
على جلدها بضّتْ مدارجُهُ دما

بَهيرٌ ترى نَفْحَ العَبيرِ بِجَيْبِها
كما ضَرَّجَ الضاري النّزيفَ المُكَلّما

وليستْ مِنَ اللائي يكونُ حَديثُها
أمامَ بُيوتِ الحَيِّ إنَّ وإنّما

أحاديثُ لم يَعْقُبْنَ شيئاً وإنّما
فَرَتْ كذباً بالأمسِ قيلاً مُرَجّما

فهادَيْنَها حتى ارْتَقَتْ مُرْجَحِنّةً
تَميلُ كما مال النّقا وتَهَيّما

فما رَكِبَتْ حتى تطاوَلَ يومُها
وكانت لها الأيدي إلى الخِدْبِ سُلّما

وما دخلتْ في الخِدْبِ حتى تَنَقّضَتْ
تَآسيرُ أعلى قَدِّهِ وتحطّما

فجرجرَ لما صار في الخدرِ نصفُها
ونصفٌ على دأياته ما تَجَزَّما

ولما استقلّتْ فوقَهُ لم تَجِدْ لَهُ
تَكاليفَ إلاَّ أنْ تَعيلَ وتَعْسَما

وما كاد لما أنْ عَلَتْهُ يُقِلُّها
بنهضتِهِ حتى اطمأنَّ وأعْصَما

وحتى تداعَتْ بالنّقيضِ حِبالُهُ
وهَمّتْ بَواني زَوْرِهِ أنْ تَحَطّما

فلما سَما استدبرنَهُ كيف سَدْوُهُ
بها ناهضَ الدأياتِ فَعْماً مُلَمْلَما
فَسَبَّحْنَ واستَهْلَلْنَ لما رَأَيْنَهُ
بها رَبِذاً سَهْلَ الأراجيحِ مِرْجَما
وما رِمْنَها حتى لَوَتْ بزمامه
بَناناً كَهُدّابِ الدمقسِ ويعْقما
وألْزَ في صُمِّ الصَّفا ثَفِناتُهُ
وَرامَ بِلَمّا أمرَهُ ثم صَمَّما

كانت لوحة محمولة على تسعة عشر بيتاً . رسم لنا الشاعر المتفرد في صورها الانيقة ، حساسية الشاعر الجاهلي حيال المراة ، وقدرته العجيبة على تصوير المتخيل ، والمأمول والمشتهى منها . ويعلم متذوقوا الشعرية الجاهلية ، احاسيس الجاهلي الشاعر عندما يرسم المراة . فهو ـ كما اعتقد ـ لا يصورها كما هي على الارض . بل يرفعها الى مستوى الالوهيا . ويحول شعره الى طقس لعبادتها . فجسمها ينضح الطيب بانواعه واصنافه حتى وهي نائمة . وعيناها سران مغلقان باستمرار . ولعابها مزيج من الخمر المعتقة والعسل المصفى . وهي لا تعمل شيئاً لكنها كائن للغزل والحب وحسب .

ورأينا كيف حول لحظة اعتلائها المركب ، الى احتفال او لوحة احتفالية سابغة المهابة ، لا تقل اتقانا وتاثيرا عن اي مشهد مسرحي بلاغ الفنية .

فقد شغل في هذه اللوحة مجموعة الكائنات والاشياء المتوفرة بها . فللبعير حركات واصوات جسدها بدقة متناهية ، وللعذارى متابعة ترسم وترصد الحركة والصوت . ولتلتقط حتى إنفاسهن ونظراتهن وهن يحملن السيدة الى هودجها . وللسيدة الجميلة طقس في الحركة ودخول الخدب اتقن تصويره من كافة الجوانب . ولم يقل لنا أن سيدته سمينة كما هو الذوق السائد آنذاك بالنسبة الى الجاهلي الشاعر . لكننا لمسنا سمنتها من خلال جرجرة البعير ، ومن خلال انين خشب الخدب او الهودج عندما دخلت اليه . وكيف همت جوانبه ان تتحطم . حتى لنحسب ان الرصد الشعري تجسيد لكل جزئيات المشهد من كافة الجهات . ضمن خاصية السرد القصصي . والرسم لا التصوير . لان كل شيء رسم باجمل مما هو عليه .

ولما استقلّ الحيّ في رونق الضُّحى
قبَضْنَ الوصايا والحديثَ المُجمجَمَا

ورُحْنَ وقد زايلْنَ كُلَّ صَنيعةٍ
لهُنَّ وباشرْنَ السَّديلَ المُرقّما

دُموجَ الظباءِ العُفْرِ بالنفس أشفقتْ
من الشمْسِ لما كانتِ الشمسُ ميسمَا

دعوتُ بعجْلى واعترتني صبابةٌ
وقد طلعَ النجدينِ أحداجُ مرْيَما

فجاءَ بشوْشاةٍ مزاقٍ ترى لها
نُدوباً منَ الأنساعِ فَذّاً وتوأما

أراها غُلاماها الخَلى وتشذَّرتْ
مِراحاً ولم تقْرَأْ جَنيناً ولا دَما

فلأْياً بلأْيٍ خادعاها فألْزَما
زِماميْهما منْ حلْقةِ الصُّفْرِ مُلْزَما

وجاءت تَبُذُّ القائدَيْنِ ولم تدَعْ
نِعالهُما إلا سَريحاً مُجذَّما

وأعطت لِعِرْفانِ الخطامِ وأضْمرَتْ
مكانَ خفيِّ الصوتِ وَجْداً مُجمْجَما

ومارَ بها الضَّبْعانِ موراً وكلّفتْ
بَعيريْ غُلاميَّ الرسيمَ فأرْسَما

يُخالُ الحَصى مِنْ بينِ مَنْسِرِ خُفِّها
رُفاضَ الحَصى والبَهْرَمانَ المُقَصَّما

*

نظرتُ وعيني لا تُحِسُّ ظَعائناً
قَعَدْنَ بِهَضْباتِ المَهاةِ تَرَنُّما
جرى بيننا آلٌ كأنَّ اضطرابَهُ
جَداوِلُ ماءٍ أُثْقِبَتْ لَنْ تَجَرَّما
لَوامعُ تجري بالظَعائنِ دونَها
قِفافٌ وأَجْبالٌ فَغَوْرٌ يَبَنْبَما
ولاحَ إِكامٌ قد كَساهُ هَجيرُهُ
سَراباً وقد إِجْتَبْنَ منه مُتَمنِّما
فلما لَحِقْنا لم يَقُلْ ذو لُبانَةٍ
لِمَنَّ ولا ذو حاجَةٍ ما تَيَمَّما
فكان لِماحاً مِنْ خَلاصٍ ورَقْبَةٍ
مَخافَةَ أعداءٍ وطرفاً مُقَسَّما
قليلاً ورفعْنَ المَطِيَّ وشَمَّرَتْ
بنا العيشُ يَنْشُرْنَ اللُّغامَ المُعَمَّما
فقلنا : ألاعوجي بنا أمَّ طارقٍ
تُناجي ونَجْواها شِفاءٌ لأَهْيَما
فعاجَتْ علينا مِنْ خِدَبٌ إذا سَرى
سرى عن ذراعيه السَّديلَ المُنَمْنَما

يطرأ تحول بالخطاب في اللوحة الخامسة ، وتدخل خاصية السرد في مجال جديد . وذلك بدخول الانا في رسم الحدث وتطوره . ولا يعنينا ان كانت الانا هي ذات الشاعر ، أم هي ذات الشخص المعني بتمحور الحدث من حوله . ما دام التتابع وا لتوالد متوفرين في وحدة القصيدة . ولم يتركنا حميد نحس بأي انقطاع في تلاحق الحدث عبر صوره.بل نشعر ان هذا التحول طبيعي في الخطاب.

حميد ينسينا تماما وجود أي فاصل بين رواية القصة الشعرية ، وبين الانا التي طرأت على الاحداث في اللوحة الخامسة . بل كنا نكاد نسأل من بدايتها عن جواب لخبر وضعه كملاحقة للمركب او القافلة التي حملت السيدة وترحلت من مسرح المشاهد السابقة . وفي اللحظة التي يخطر لنا ان نسأل بها : وبعد ؟ يجيبنا حميد بظهور الانا . بصورة محكمة مدروسة لا افتعال بها . وبدءا من متوسط اللوحة الخامسة تقريبا يشغل حميد مجمل المشهد المتبقي . وهو ممتط ناقته القوية الخفيفة . يتقصى آثار السيدة الراحلة . ويلاحق وصيفاتها اللواتي يلمح وجودهن من خصاص الستور . ثم يدعونا لنتابع لهفته وراء السيدة التي يطلب اليها ان تناجيه . ويسدل الستار على المشهد الذي يرينا فيه صورة الحبيبة وصورة الفارس العاشق وهما يتناجيان بلا تفاصيل . وتنتهي اللوحة بفاصل جديد . يتوالد عنه حدث مفاجىء . هو قصة الحمامة التي هيجت اشاقه . وذكرته بحبه .

اللوحة السادسة

وما هاجَ هذا الشوقَ إلا حمامةٌ
دعت ساقَ حُرٍّ تَرحةً وتَرَنُّما
بكت شجوَ ثَكْلى قد أُصيبَ حَميمُها
مَخافةَ بَيْنٍ يتركُ الحَبْلَ أَجْذَما
مِنَ الوُرْقِ حَمّاءُ العلاطَيْنِ باكَرَتْ
عَسيبَ أَشاءٍ مَطْلَعَ الشمسِ أَسْحَما
إذا هَزْهَزَتْهُ الريحُ أَوْ لعبَتْ بهِ
أَرَنَّتْ عليه مائلاً وَمُقَوَّما

تُباري حَمامَ الجَهْلتَيْنِ وتَرعَوي
إلى ابنِ ثلاثٍ بينَ عودينِ أعْجَما
تطوَّقَ طوقاً لم يكنْ عن تَميمَةٍ
ولا ضَرْبِ صَوّاغٍ بكفيْهِ دِرْهَما
كأنَّ على أشْداقِهِ نَوْرَ حَنْوَةٍ
إذا هو مَدَّ الجيدَ منهُ ليَطْعَما
بَنَتْ بيتَهُ الخرقاءُ وهي رفيقَةٌ
به . بين أعوادٍ بعلياءَ مُعْلَما
تُؤَمِّلُ منهُ مُؤْنِساً لا نْفِرادِها
وتبكي عليه إنْ زقا أو ترَنَّما
فلما اكْتَسى ريشاً سُخاماً . ولم يَجِدْ
له معها في باحَةِ العَشِ مَجْثِما
أُتيحَ لَهُ صقرٌ مُسِفٌّ فلم يَدَعْ
لها ولداً إلا رميماً وأعْظُما
فأوْفَتْ على غُصْنٍ ضُحَيّاً فلم تَدَعْ
لباكيَةٍ في شَجْوِها مُتَلَوَّما
فَهاج حَمامَ الغَيْضتَيْنِ نُواحُها
كما هَيَّجَتْ ثَكْلى على النوحِ مأتَما
إذا شئْتُ غَنَّتْني بأجْزاعِ بيشَةٍ
أو النخلِ مِنْ تَثْليثَ أو مِنْ يَبَنْبَما
عجبتُ لها أنّى يكونُ غِناؤُها
فَصيحاً ولم تَفْغَرْ بمنطِقِها فَما

فلم أَر محزوناً له مِثلُ صوتِها
ولا عربياً شاقَهُ صوتُ أعْجَما

كمثلي إذا غنّتْ ولكنَّ صوتَها
له عَوْلَةٌ لو يَفْهَمُ العودُ أَرْزَما

ويدخلنا الشاعر بعد هذه اللوحة المفعمة بالنبل ، والتي رصدت بوعي عمق التعاطف الجاهلي مع كائنات البيئة ممثلا هذا التعاطف مع الحمامة وفرخها . يدخلنا في لون من الوان الخداع الفني الجميل . عندما يخبرنا : اولا ان الحمامة هيجت اشواقه . فلا نعرف ان كان رسم اللوحات الماضية تم باسلوب السرد القصصي بعد ان سمع هديل الحمامة . او ان هديل الحمامة ذكره بقصة رحيل السيدة . لينعطف انعطافة جديدة في الابداع . فيناجي خليليه في اللوحة السابعة . وكانه قائم من حلم . او مستيقظ من حالة سالفة صورت له مجمل المشاهد التي رسمها . فاحب ان ينجو من ثقل مخزون الذاكرة .. وارقها . ليلتفت الى خليليه في صور اللوحة الاخيرة .

اللوحة السابعة

خَليلَيَّ هُبّا عَلِّلاني وانْظُرا ،
إلى البرقِ إذ يَفْري سَنيً وتَبَسُّما

عَروضاً تَعدَّتْ مِنْ تِهامَةَ أُهْدِيَتْ
لِنَجْدٍ فَساح البرقُ نَجداً وأَتْهَما

كأنَّ رِياحاً أطلعتْهُ مَريضةً
مِن الغَوْرِ يُسْعِرْن الأَباء المُضَرَّما

وسيرا على نِضْويْن مُكْتَنِفَيْهِما
ولا تَحْمِلا إلاّ زِناداً وأَسْهُما

وزاداً غَريضاً خَفَّفاهُ عليكُما
ولا تُفْشيا سِرّاً ولا تَحْمِلا دَما

وإنْ كان ليْلاً فالْويا تسبّبْكُما
وإنْ خِفتُما أنْ تُعْرفا فتلثّما
وقولا : خرجْنا تاجريْنِ فأبطأتْ
ركابٌ تركنا ها بتثليث قُيّما
ولوْقد أتانا بزُّنا ورفيقُنا
تموّل منكم منْ أتيناه مُعْد
ومدًّا لهم في السّوْمِ حتى تمكّنا
ولا تستلجا صفق بيع فتازما
فانْ أنتُما اطمأننْتُما وأمِنْتُما
وأجلبْتُما ما شئتُما فتكلّما
وقولا لها : ما تأمُرين بصاحبٍ
لنا قد تركتِ القلب منه متيّما
أبيني لنا إنّا رحلْنا مطيّنا
إليك وما نرْجوهُ إلا تلوُّما

✱

فجاءا ولمّا يقْضِيا لِي حاجةً
إليّ ولمّا يُبْرِما الأمر مُبْرما
فمالهُما مِنْ مُرْسليْنِ لِحاجةٍ
أسافا مِن المالِ التِّلادَ وأعْدما
ألم تعلما أني مُصابٌ فتذْكُرا
بلائي . إذا ما جُرْفُ قومٍ تهدّما ؟
ألا هلْ صدى أمّ الوليدِ مُكلِّمٌ
صداي إذا ما كنتُ رِمْساً وأعظُما ؟

والذي نحسبه سائدا ومعروفا وله تقاليده الفنية في ابداع الجاهلي . أن يرسم
والذي نحسبه سائدا ومعروفا وله تقاليده الفنية في ابداع الجاهلي . أن يرسم
خطا عاما لحدثها او احداثها بدون تشويش او تداخل . كما لو انه قرأ قصة مصاغة بالتكثيف الشعري . كما يستطيع أن يرسم بذاكرته خطا عاما لها . ويتذكر مجمل نقاطها الرئيسية عبر مشاهدها ولوحاتها . ولا يجوز لنا أن نتعامل مع هذه القصيدة ـ بالطبع ـ تعاملنا مع قصة كتبت بهذا العصر . لان تعامل الجاهلي مع لغته ، يختلف وهذا طبيعي ، عن تعاملنا مع لغتنا الان . فالحدث الذي نغرقه بالالفاظ والهوامش والتفصيلات . قد لا يفهمه الجاهلي وفقا لتعامله مع اللغة الا انه اطالة أو حشو او استغراق بالمفردات .

لكننا لو تعاملنا معها تعاملنا مع الشعر الجاهلي ذاته ، كنسيج يتحكم به الايجاز والايحاء والتكثيف . لاستطعنا الحكم عليها على انها قصة شعرية متفوقة . تجمع بين التشويق والاثارة كعنصرين في الفن القصصي المتفوق . وبين اللذة السامية التي ترفعنا اليها الشعرية المتوهجة .

وبعد هذا التداخل النثري الذي نعتبره هامشا لهذه القصيدة لاشرحا ولا تفسيرا . نردد مع شيلي في دفاعه الشهير عن الشعر ان « الشعر سجل لاسعد اللحظات وافضلهاعند اسعد العقول وافضلها »(١)

وقارىء شعر حميد بن ثور ، على قلته التبقية . يقف على اكثر من لوحة قصصية فيه . مما يؤكد لنا ان حميدا اعتمد هذا الفن المتقدم في الشعر الجاهلي . وابدع فيه بكثير من الدربة والدراية والوعي .

*

في البدء اشرت الى ترتيب ابيات القصيدة وفقا لما اعتقدته الصحيح أو القريب من الصورة التي اخرج حميد قصيدته بها . فقد قرأتها في الديوان المحقق . وقرأت بعضها في اكثر من مصدر تاريخي أدبي . فبدت لي كالتمثال المحطم . ولا يمكننا ان نقف على فنيتها المدهشة ، وتتابع صورها ، وتلاحق احداثها كما هي . وهي العلة التي لاحقت الشعر الجاهلي منذ القدم وكادت ان تخرجه عن طبيعته المتوهجة . حيث نرى لكل قصيدة جاهلية اكثر من رواية ، ولا تتفق روايتان في ترتيب ابياتها . مما فسح المجال لكثير من الدارسين اللاحقين من عرب ومستعربين ، أن يتهموا الشعر الجاهلي بالتفكك والبعثرة . والخلو من الوحدة .

---

(١) من تطور الادب الاوربي . الدكتور حسام الخطيب ص ١٩٥ منشورات جامعة دمشق عام١٩٧٥

لكن مجرد وقوفنا على نسق قصصي في هذا الشعر ، ملتزم بالتسلسل والتتابع ينفي الاتهام نفيا تاما . لنبحث عن وحدة العمل الشعري الجاهلي في قراءته الواعية . واعادة الترتيب في الابيات . كما نفعل تماما حيال تمثال مرمري محطم .

ولو تساءلنا : الى اي حد استطاع حميد بن ثور ان يحقق فنية القصة في هذه القصيدة الباذخة ؛ الا يحق لنا الرجوع الى جانب من التنظير النقدي الادبي . لنرى مجددا ماهية القصة كما يرسم المصطلح اساطينه المعاصرون . وهو يتحدث عن نشأة هذا الفن المغرق في القدم ؟ يتحدث « جاك لامبير » الذي يرصد مسيرة القصة في عمق التاريخ . فيرى ان القصة في الادب المصري القديم « تظهر طابعا مزدوجا للحقيقة وللخيال » .... اما في الادب العربي فان حكايات الف ليلة وليلة ؛ حكايات فولكلورية ملحمية مثقلة بتصرفات الفتوة ومشاهد العادات ... وان القصة تجسيد ... ونجد ايضا في الادب السنسكريتي .. اشارات عديدة الى قصص وقصص حيوانية كما هي الحال في السنين الاولى للديانة البوذية .... ويوجد مصدر القصص الادبية في الهند القديمة .... يروي مغامرة غرامية في عالم ساحر .

اما في الصين ... فان القصة الصينية كانت شعبية ورائعة بتأثير البوذيين سواء أكانت شعرية ام نثرية .. »(١) وقبل هذا التكثيف لمسيرة القصة في الآداب القديمة يرى جاك لامبير « ان القصة حكاية قصيرة » وذلك قبل التنظيرات الادبية في العصور اللاحقة التي ميزت بين القصة والقصة القصيرة والحكاية والرواية . واصبح لكل فن من هذه الفنون الاربعة عالمها .

على اننا واجدون بعد هذا التلميح ان حميد بن ثور الهلالي لم يكن بعيدا عن الحضارة الادبية والثقافة التي هي نتاج بيئته عن فهم اصول هذا الفن الذي استطاع ان يجسده في هذا النص الشعري المتقدم .

(١) انظر الادب والانواع الادبية الفصل السادس من ص ٧ والى صفحة ٢٠٨ ـ لعدد من النقاد الفرنسيين نقله الى العربية الطاهر حجار . قدم له د. محمود الربداوي . دمشق دار طلاس ١٩٨٥ .

ابـــــداع

شـــعـر

- ابو نواس

جميل حسن

- المرائي

ابراهيم عباس ياسين

قصـــة

- بدر الزمان

فاضل السباعي

ابداع

أبو نوّاس

جميل حسن

تنامُ وتصحو في هواها وذكرها
أما ترعوي ؟ . أسمعتَ من ليس يسمعُ
نذرتَ لها عمراً ووفّيت نذرها
ترحّبُ فيها تارةً .. وتودّعُ
وأنتَ بها مُغنىً ، معنّى ، معلّقٌ
بنشوتها كالهمّ ينأى ويرجعُ
أتغفو إذا ما نام حولك سُمّرٌ
وكيف ؟ . وليلُ العاشقينَ مروّعُ

* النشيد الخامس من ملحمة شعرية بهذا الاسم

أكاد أرى عينيك طيفَ سحابـــــة
تحطّ عــــلى الأجفانِ مهـــلاً وتُقلعُ
وتمطر في كلِّ الجهـــاتِ ، وتحتمي
جفونُكِ منها . رحلةُ الغيمِ أدمــعُ
خليٌّ سوى من حبّهـــا وعنائهـــا
صبور سوى عنهـــا ، مَخوفٌ ، مفزّعُ
إذا جَـــنَّ ليلُ الناس أسرعَ نحوها
وشوقُك ملحاحٌ وقلبك مـــوجَـعُ
تحنُّ إليهـــا رشفةً بعـــد رشفة
وفي شفتيك الكأسُ ، والكأسُ مُـــترعُ
كأني أرى دنياك غـــارقةً بهـــا
فليس لها إلاّ بـــكأسكِ مـــوضع
جلوتَ لها في أعين النـــاس صـــورةً
وأخرى ، وأخرى .. تجتليهـــا وتبـــدعُ
تضيق لغاتُ الأرض عمّا وصفتهـــــا
تماديت يا هذا ! . بما أنت تطمـــعُ ؟!.
حسودٌ أنا . لو كنت مثلك شاعـــراً
أغنّي عـــلى ذكـــر الحبيبِ فأمتعُ
محبٌّ أنا . لكن تمـــوت عبـــارتي
على وتـــري قبل الغنـاء فأفجـعُ

وفيٌّ ، ولكن لا أرى ليَ حيلـــــةً

كأنَّ يــــدي كفٌّ جـريحٌ وإصبعُ

فلا تحمـــــل البشرى ، ولا من هدايةٍ

تشير إليهـــا ، وهي بالهـــمِّ ترتـعُ

كأنَّ الهوى وقفٌ على ذي غــــواية

غوايتيَ الكبرى النــــــداءُ المرجّعُ

أنادي بني قـــــومي ، فأغـــدو كأنني

أنادي الأُلى غابوا كما غــــاب تبّعُ

أنادي دمـــــي : ماذا يروعُـــك منهم

أأنت ، أم الساقي ، أم الليلُ أروعُ

يمرُّون بالبلوى ، فـــلا يذكرونهـــا

تساوت ببلـــواهم رياضٌ وبلقــعُ

أأسأل عنهم يابن هاني ، وعنـــدهم

إجابةُ ما يُـرجى ، وما يُتـــوقّعُ

أعصرك هذا ؟ . أم عصور تواتـرت

ومن أين ؟ . هل لي للإجابةِ مـــرجعُ

إذا كانت البلوى جـــروحاً رخيصةً

فما أرخص البلوى وإن راغَ مطمعُ

كأنَّ بني قـــومي يسامون خسفهــم

بلا أملٍ ! . كلُّ النــــداءِ تفجّعُ ! .

* النشيد الخامس من ملحمة شعرية بهذا الاسم .

وفي ملعب الأيام مهما تبدّلت
يُراح بهم مثل القطيع ويُرجَعُ
كأنّا ألفنا كلّ قيدٍ ومحنةٍ
فنحيا على الذلّ المقيم ، ونقنعُ
أتعلم أني يابن هاني كراحلٍ
يضيقُ به أنّى تَوجّه موضعُ
وشعرك في كلّ الدروب غذاؤه
أحبُّك هذا ، أم رياءٌ مقنّعُ ؟ .
أقول النواسي كان مثلي قصيدة
بغير رويٍّ . كلُّ بيتين مطلعُ
طريد غوايات لكيلا تفوته
أمانيُّه يعدو لديها ، ويركعُ
يهوّم في طول البلادِ وعرضها
ويسمع إلاّ صوته حين يسمعُ
تركتُ لهم ما دون بابي فأحدقوا
بذاكرتي ، عاثوا بها وتوزّعوا
يُطلّون من بين السطور إذا التوى
بشعريَ بيتٌ شاردٌ يتوجّعُ
يقولون : هذا واحدٌ من رموزه
كأنّ مجاز الشعر إفكٌ ومنزعُ
وإني وإن عانيت عمراً بأسره
محبٌّ ، غويٌّ ، باسطُ الكفّ ، مولعُ

ابـــداع

المـــراثي

شعر

ابراهيم عباس ياسين

١ ـ مرثية الزمن المتجمد

زمنٌ يمرُّ ولا يمرُّ ،
كأنَّ ما من خطوةٍ للعشب
تضحك فوق جدران الظلامِ ،
كأنَّ ما من بذرةٍ للضوءِ تنهضُ صائحه .
زمنٌ تيَبَّسَ في العراء . .
فلا نوافذ بُرْجِ ماءٍ ،
ولا مآذن للضياءِ ،
لوجهه المكدودِ آياتُ الردى
ولكفّه الشلاّءِ جائحةُ الرمادِ الجائحهْ .
زمنٌ بلا لونٍ . . بلا طعمٍ . .
أضاع على دجى الأيام نكهته . .
أضاعَ الرائحهْ

لابأس إن دارت عليه النارُ
دورتها ، وإن ناحت عليه — إذن —
غرابيبُ الظلام النائحه
الفا..تحه ْ !

٢ — مرثية المدينة النائمة

نامي .. سَأَلتُكِ أن تنامي !
نامي .. أخاف الفجرَ .. ضوءَ الفجرِ ..
يجرح مقلتيكِ ،
أخافُ أنسامَ الصباحاتِ الطريّة
أن تجيئك بالرعاف وبالسقامِ
« نامي فان لم تشبعي من يقظةٍ فمن المنامِ »
نامي .. أقولُ النومُ عافيةُ الحلازين
الكسولةِ .. لا تملُّ من السجودِ ..
ولا تؤذّن بالقيامِ
نامي . . عليكِ سلامُ موتى نائمين ..
وهانئين .. ووادعين ..
كأنهم حملانُ حقلٍ .. أو حمائم للسلامِ
كم من صَبيٍّ فيك . . في الحلُمِ الغبيِّ . .
تخرُّ له الجبابرةُ العظامُ . .
ولم يَحِنْ سِنُّ الفطامِ !
نامي ، فان النوم — سيّدةَ المدائنِ —
قد يجرُّكِ — مرةً أخرى — إلى عذْبِ المنامِ

---

* من قصيدة « تنويمة الجياع » للجواهري .

نامي .. سألتك أن تنامي
نامي .. سألتك أن تنامي !!

٣ ــ مرثية الاصدقاء

منذ أن دارت الأرضُ دورتَها المُحزِنهْ
منذ أن بدّلت جلدها الأزمنه
وأنانائه . . وانِه . . بينكم
أفتّشُ عبرَ سماواتكم عن مدارْ
في دمي عَطشٌ أشعلته البحارْ
وقلبي على راحةِ الكفّ أنبتَتْهُ سوسنه
منذ أن دارت الأرض مملكةً للدمارْ
وأنا سائرٌ . . حائرٌ . . حافلٌ بالجنونْ
أفتّشُ عن لغةٍ بيننا ممكنه
وأبحث عن صاحبٍ بينكم لا يخونْ !

٤ ــ مرثية لامرأةٍ ما . .

هي ذي أغنيتي ــ مرثيّتي
الآن أصلّيها على الغائبِ في صمتٍ ،
وأستَسْلِمُ للصوت الذي يَعْوِلُ
في ليل الرمادِ الآدميّ
هي ذي مرثيّتي الآن أذرّيها
فلا مئذنة تبكي
ولا من نجمةٍ حطّت على كفّي
ولا زنبقة مالت عليّ

وأنا – سيدتي – أذكرُ كم أسكرني حبُّك
كم شردَّني جفنُك
كم فجراً – أراني – مرمريّا !
كنت ظلَّ الله في عينيَّ ،
وَعْشَ الضوء إذ ينساب
في أوردة الظلماء كالحلم رخيّا ،
فرحةَ العشب ،
اشتعالَ المطرِ الأوّلِ ،
أشعاري وأسراري ،
ضحى القلب النديّا !
كيف يا ... غادرت جنّاتِ الهوى الخضرَ
وعايَنْتِ الغرامَ المستحيلا ؟ !
لو تأخرت عن الوقت الذي جاءكِ
بالموت قليلا ..
لو توَغّلْتِ نهاراً
في دَمِ القلب مضيئاً . . وجميلا ..
كنت طيّرتُ لعينيك
عصافيرَ الهوى الورديّ ،
فجّرت الينابيعَ ،
وأشعلتُ شموساً في دجى الصحراء ،
أنبَتُّ النخيلا !
كيفيا .. شرّعْتِ أبوابك للريح ،
وغَلّقْتِ المسافات علَيّا ؟ !
آهِ هل من صحوةٍ خضراء ؟ هل من مطرٍ
عاشقٍ يوقظ أشواقَ العشيّاتِ ..
ويسترجعُ عُمْراً ذهبيّا ؟ ؟

منذيا .. غادرت فردوسَ الأناشيدِ
إلى ليلِ العباديدِ ..
وألهَبْت زماناً وتَنيا
أسفاً .. ما عدت شيّا
أسفاً .. ما عدت شيّا ! !

. . . .

ما الذي — أسألُ — من بعد النوى
يوقظُ في القلب جنونَ الحسرات ؟
ثم يرمي زَهْرَ أشعارَ الهوى للمُهْمَلاتِ ؟
وأنا .. أنت .. كلانا ..
ضاع في صمت الأغاني المُهْمَلَهْ
وابتدا الوقتُ الخرافيُّ
الذي يحبلُ بالرملِ وآياتِ الجنون
هكذا قد خانك الصوتُ الذي يعبرُ
من غير صدى ، والمسألهْ :
أن تكوني امرأةً أو لا تكوني !

٥ — مرثية الحب

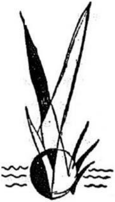
« الحب يعين على الحياة » ؟

— ايلوار —

أيها الهائمُ في بريّةِ القلبِ ..
« غزالاً شارداً يعشقكَ الربُّ »

أناديكَ وأدعوكَ – كما شئتَ – ضياءً قُدُسيّا !
أيها الوارفُ كالظلِّ حنانيْكَ
فاني مُفْعمٌ بالتيه ..
ما خلّت ليَ الصحراءُ – يا حبُّ – صراطاً
صوب أحلامي سَوِيّا !
أيها الآمرُ والقاهرْ ..
والرابحُ والخاسرُ ..
ياذا الغائرُ .. الفائرُ ..
والباطنُ والظاهرُ ..
يا الأعتى من الموت – تباركتَ – ويا أجملَ
من أغنيةٍ رقّتْ على جفنِ الصباحِ المخمليِّ
أيها المطعونُ – مثلي – بالصّلاةِ
وبآيات الزمان الجاهليّ
سيّدي . . أدعوكَ : ما في القلبِ إلا جمرةٌ
تنبحُ في وَهْجِ الشرايين ، ولا شيء سوى
قبضِ سرابٍ بيَدَيّ !
فأنا أحمل . منذ البدء ، تاريخاً من الجرحِ
ومن أسطورة الموتِ الْمُنتَقى
تائهاً في وحشةِ الصحراءِ ،
مشدوداً إلى الخيبةِ ، مكدوداً اداري
وَجَعَ العمرِ ، أداريهِ .. وأشقى .

طاعنٌ في رَهَقِ الطينِ ،
قتيلاتٌ أمانيَّ .. وآماليَ غرقى ..
وأرى الحبَّ الذي أطعمته زَهْرَ الرؤى
البِيضِ .. الذي أسكنتُهُ قلبي وعيني ..
نافراً كالوعلِ من نَزْفِ ابتهالاتي ومنّي
سيّدي — ناديت — أدركني على الليلِ ،
ويا حبُّ .. أيا حبُّ .. أعنّي !!
موهناً ناديتُ .. ناديتُ .. فمارنَ الصدى الشاكي
ولا ألْفَيْتُ في يمٍّ اغترابي
لنجاةِ القلبِ طوقا ..
آخِ من خمرةِ عشقٍ
لم تدع لي صحوةً بعدُ ، ولا خلّتْ
لغيرِ الخمرِ عشقا ! !



ابـــــداع

بـــدر الزمـــان

"قصة"

فاضل السباعي

الفصل الأول

بدر الزمان في الضيعة

١

في ليلة النصف القمرية ، جلس مربي الدجاج ، الشاب على العشب امام كوخه . كان اهل الضيعة قد جروا على مناداته ب « بدر الزمان » بسبب حرصه البالغ على التمتع بمشاهدة القمر وحيدا في ليلة النصف من كل شهر ، وظلوا ينادونه به حتى نسوا ، ونسي هو ، اسمه الذي تلقاه من ابويه يوم مولده . ولانه كان فتى صادقا ونشيطا ، فقد لقبوه ايضا ب « الطيب » !

كان بدر الزمان ، الطيب ، وهو في فناء كوخه ، مشدود البصر الى الافق البعيد ، يرصد طلوع القمر البدر من وراء الاكمة . ولكنه كان يرهف سمعه نحو شجيرات دوار الشمس ، تلك التي تتمايل بجواره مع كل نسمة يرسلها الهواء العليل .

كان يفكر ، سعيدا ، في دجاجاته التي يتزايد عددها ، وفي البيض الذي يجمعه من تحتها ويسلمه الى « الجمعية » ، صباح كل يوم . وهو ، في سعادته الغامرة ، يحلم بان يبني « قنا » كبيرا . واما كوخه المتداعي ، فانه لا يعتزم تحسينه الا حين تبلغ دجاجاته مبلغا يمكنه من ان يجني منها بيضا وفيرا .. وعندئذ يجدد الكوخ ، ويشتري سريرا وخزانة ومتاعا ، ويخطب احدى صبايا الضيعة الجميلات ، ويصبح ابا حنونا لعديد من الاولاد ، الذين سيعتني بهم ويسهر على تربيتهم ، وهو الذي فقد ابويه صغيرا تكفله اناس في الضيعة طيبون ، حتى شب عن الطوق ، واستطاع ان يتملك هذا الكوخ ، والقن الى جواره ، والدجاجات .

وراء الاكمة ، هناك ، سطع ، فجاة ، جانب من البدر ، وفي اللحظة عينها كان يترامى الى سمع بدر الزمان حفيف ينبعث من بين اوراق الشجر .

وفي عتمة الغسق لمحها : عينان وهاجتان كمصباحين كهربائيين ، في جسد حالك السواد .

اقتربت منه ، وهي تموء :

ــ مياو ! مياو !

رحب بها :

ــ اهلا . قطيتطي العزيزة !

نطقت القطة :

ــ عمت مساء ، يا بدر الزمان !

اضحت القطة بين قدميه :

ــ عمت مساء ، يا « بشيرة » !

ــ كيف حالك ، يا طيب ؟

ــ اني بخير ، كما ترين .

ــ الا تحتاج الى مساعدة ؟

ــ اموري ماشية ، والحمد لله . لا احتاج الى شيء . شكرا لك ، يا اخيتي
ــ الا تريد ان تتحول الى . . . يمامة ؟!
أطلق بدر الزمان ضحكة من اعماق قلبه :
ــ حتى تنعمي بوجبة شهية؛ يا بشيرة !
ــ وهل تأكل الاخت اخاها ، يا طيب ؟!
ــ اني امزح . . . اقصد اني اخاف ان يصطادني الامبراطور « يان ــ تسون » ويجعلني في صحن على مائدته !!

ــ لتكن على يقين : يا بدر الزمان ، مـن ان نهاية امبراطور بلدك ستكون ، في يوم من الايام على يديك !!!

وههنا ، انشقت الارض تحت قدمي بدر الزمان ، وابتلعت القطة ، الجنية ،

٢

كان الناس ، في هذه الامبراطورية العتيدة ، التي تقع في ناحية ما من العالم ، هم وامبراطورهم يان ــ تسون ، على طرفي نقيض :

هم يطمحون الى الحرية والعدالة والمساواة ، وهو يطوقهم بافلال من الظلم والقهر ، ويتحيز لحاشيته العريضة ، مغدقا النعم على كل من يمالئه ويهتف بحياته !

هم يحبون أكل البيض حبا جما ، حتى ان من اقوالهم السائرة : « مائدة طعام ليس فيها بيض ، لا تعد مائدة طعام » ! واما امبراطورهم الجائر فان هوايته المحببة الى قلبه فقد كانت صيد اليمام ، ثم التهامه بشراهة ، وفي ذلك يقول : « ان مائدة طعام ليس فيها يمام مشوي ، لا تعد في نظري مائدة طعـــام » !!

كان الناس يعطفون على اليمام ، هذه الطيور الوديعة ، التي تألفهم فلا تبني اعشاشها الا في شبابيك بيوتهم او على اغصان الشجر قرب المنازل مرسلة صباح مساء ، هديلها الحنون : « كوكو ككوكو » . . . فكان يحزنهم كثيرا ان يروا امبراطورهم ، العجوز ، السمين ، الضيق العينين ، يفاجيء هذه الطيور الاليفة ، مطلقا عليها من بندقيته نارا صغيرة تجعل اليمام الآمن يتساقط على الارض ، مرفرفا باجنحته ، مضرجا بدمه ، وعندئذ يقوم الامبراطور بتقطيع

رؤوس اليمامات القتيلة بيديه ، وينتف ريشها متلذذا ، ثم يدفع بأجسادهـا الى طباخيه ــ وما أكثرهم ! ــ لشيها على نار لينة . ولحظة يقع بصره الكليل على صحون اليمام وهي على مائدته ، يهتف بفرح جنوني : « ان هذا هو الاكسير الذي يطيل حياتي » .

وكان لا بد من ان يهجر اليمام المسكين اعشاشه ، ويرحل عن المدن والقرى في اتجاه الغابات البعيدة .

ولكن كيف يستطيع هذا الطير الوديع ، الذي لا يملك مخالب جارحة ولا مناقير حادة ، ان يعيش في الغابات ! الا ان طيور الغابات ووحوشها الكاسرة ، كانت اكثر عطفا على اليمام من قلب الامبراطور القاسي . لقد افسحت الصقور والعقبان لليمام أرحب مكان في غاباتها ، واتفقت هذه الطيور الجارحة مع الاسود والنمور وبنات آوى ، على حماية اليمام من كل خطر يهدد حياته ، سواء جاء الخطر من السماء او نجم من الارض عبر جذوع الشجر .

وأما الامبراطور « يان ــ تسون » ، الشره ، فقد جمل يرسل رجاله في كل مكان ، آملا في ان يعودوا اليه محملين بصيد وفير من اليمام . فكانـوا يقطعون الفيافي والوديان ، بحثا عن الطيور المهاجرة ، ولكن دون جدوى ، وحين يصلون الى تخوم الغابات ، تلك التي يتحصن فيهـا اليمام ، يقفون امامهـا عاجزين عن اقتحامها ، فالاصوات ، التي تطلقها في وجوههم الوحوش الارضية والجوارح الجوية ، كانت تبعث في قلوبهم الذعر والهلع . وعندما يعودون الى امبراطورهم ، وهم يحملون خيبتهم في عيونهم ، ينهال عليهم تقريعا وشتما متهما اياهم بالخوف والعجز وضعف الحيلة .

ومنذ اختفى اليمام من سماء الامبراطورية ، وغاب لحمه عن موائـد الامبراطور ، اصبح مألوفا لدى رجال الحاشية ان يسمعوا امبراطورهم يردد متحسرا :

ــ ان افتقادي لحم اليمام سيقرب اجلي ! ان في اليمام دوائي وشفائي !!

٣

قبل صياح الديكة ، استيقظ بدر الزمان الطيب من نومه متنشطا . حمل سطليه ، واتجه بهما نحو الجدول القريب . كان مسرورا جدا ، لان اخيته بشيرة ظهرت له مساء امس ، كعادتها ، في ليلة النصف القمرية .

ملأ بدر الزمان سطليه من ماء الجدول الراقراق . حدث نفسه : منذ حين وكلما ظهرت لي اخيتي ، اراها تختم حوارها معي بهذه العبارة الغريبة : « ان نهاية الامبراطور الظالم ستكون في يوم من الايام ، على يديك » !!

عجبا ! كيف يمكن لانسان مثلي ، ان ينهي حياة امبراطور غاشم ؟ لماذا لا يطيح به وزير او قائد من قواده ؟! والشعب الذي يضمر للامبراطور اعظم المقت والكراهية ، لم لا يثور عليه ؟! انا المواطن الفقير الذي يربي دجاجا ويؤجر نفسه للمزارعين في المواسم ، استطيع ، بيدي هاتين اللتين تحملان الآن سطلي الماء ، ان اضع حدا لحياة الامبراطور يان ـ تسون ؟! ... ها ها ها .. ليتني استطيع ! ولكن ... دجاجاتي الحبيبات ، من يعتني بهن ؟!

كان يتعين على بدر الزمان ان يغسل الجرن مما تبقى فيه من ماء آسن ثم يملأه من ماء الجدول الصافي ، لتستقي منه الدجاجات . وقبل ان يلوح نور الفجر ، صاح ديك : « كوكوريكو ... » فتجاوبت لصيحته الديكة في انحاء الضيعة .

فتح بدر الزمان باب القن ، فخرجت الديكة مختالة ، تتبعها دجاجاتها . نثر حفنات من الحب في ارض الفناء ، ثم ترك الدجاج يتدافع لالتقاط ما تيسر منه . ودخل هو الى القن يجمع محصوله اليومي .

عاين بنظره الدجاجات الحاضنات . وحدث نفسه : بعد اسبوع يبدأ الفقس عندي . واخذ يصف البيض في الصحون الكرتونية ، تلك التي استحصل عليها في اليوم الفائت ! اجل ، سأوسع قني واكثر من دجاجاتي ، وانتج مزيدا من البيض ، غذاء الشعب الاساسي !

وعندما انطلقت الدجاجات تسرح في الضيعة بحثا عن غذائها ، كان بدر الزمان قد اتم تنظيف قنه . وهاهوذا ، الآن ، ينقل صحون البيض الى الفناء، انتظارا لوصول سيارة الجمعية .

ــ صباح الخير ، يا طيب !

ــ اهلا وسهلا ، يا اطيب الطيبين !

هتف السائق ، ذو الاسنان المصفرة :

ــ وصحون كرتونية ، يا بدر الزمان ! من اين لك هذا كله ؟

ــ قد حصلت عليها من مدجنة الضيعة .

ــ ارى احوالك في تحسن .

ــ هذا من فضل ربي .

ــ وبفضل رعاية امبراطورنا « العادل » !!

قال السائق الشاب ذلك بصوت خفيض ، ثم أطلق ضحكة مجلجلة ، كشفت عن اسنانه النخرة كلها .

فتمتم بدر الزمان ، بصوت خفيض ايضا .

ــ جزى الله الامبراطور !!

ــ اليوم ، الخميس ، يخرج الى « مجلس العدل الامبراطوري » في اجتماعه الاسبوعي .

ــ في موكبه الفخم ، الذي تصلنا اخباره الى الضيعة .

ــ يخرج من قصره في الساعة العاشرة ، ولا يصل الى قصر العدل الا في الحادية عشرة .

ــ يقولون انهم يمنعون ، خلال ذلك ، المرور في الشوارع والطرقات .

والطـرقات .

ــ حتى يتسنى للمواطنين ان يتمتعوا بمشاهدة عظمته متربعا على محفته .

ــ تلك التي يحملها اربعة اشداء ، كما يقال !

ــ ويكون رجال الامبراطورية في استقباله على باب قصر العدل .

ــ يصفقون له ويهتفون بحياته .

ــ فيجزل العطاء لكل من بح صوته والتهبت كفاه !

ــ يشاع ان الخزينة اصبحت خاوية ، وان الامبراطور مفلس !

ــ هراء ! وهل يفلس امبراطور ؟! انه لا يصعب عليه ابتكار موارد جديدة يملأ بها جيوبه .

ــ ولكن مشكلة اليمام تؤرقه .

ــ سمعنا انه بكى في المجلس مرة ، وهو يشكو افتقاده لليمام !

ــ وبكى لبكائه كثير من المداهنين !

ــ واعترف لهم انه يخاف ان يقصر عمره .

ــ فهتفوا عاليا بطول عمره .

ههنا ، اخذت الحماسة بدر الزمان ، فهتف بصوت غير خفيض ولكن دون ان يفهم هتافه احد .

فيما كانت السيارة تتحرك بحمولتها من البيض باتجاه العاصمة الامبراطورية .

٤

في الساعة العاشرة ، انطلق الموكب طبل وزمر ، وعربات تجرها الخيول ، وسيارات في المقدمة والمؤخرة . والامبراطور يان ــ تسون متربع على المحفة ، التي يحملها من زواياها اربعة رجال . استغرقت الرحلة ، مابين قصر الامبراطور وقصر العدل الامبراطوري ، ساعة رملية ، احتجز خلالها الناس على طرفي الطريق ،مرغمين على التمتع بمشاهدة الامبراطور ، والمشاركة في التصفيق له . وفي مدخل القصر ، كان في استقباله رجالات الامبراطورية العظام .

لم يتشكّ الامبراطور ، في هذه الجلسة ، من افتقاده لحم اليمام المشوي ، على نار لينة ، بل اشتكى من شح موارده الخزينة . واذن ، فقد كان الشفيلان ، مربي الدجاج الشاب وسائق سيارة الجمعية ذو الاسنان النخرة ، ينطقان بالحقيقة ، وهما يثرثران . . . ان الامبراطور يكد ذهنه عن موارد جديدة !

في مقدمة اخبار الظهيرة ، اعلن المذيع عن القانون الذي اقره مجلس العدل الامبراطوري : تعميم البيض !!

كان وقع هاتين الكلمتين ، في اسماع المواطنين وقلوبهم ، بالغ العذوبة .

تعميم البيض ، غذاء الشعب الاساسي ، معناه ان تضطلع الحكومة بانشاء مداجن عصرية في جميع انحاء الامبراطورية ، فتنتج البيض الوفير ، وتقدمه للمواطنين طازجا وبأسعار معتدلة ، منافسة بذلك المنتجين ذوي الميول الاستغلالية .

ولكن تفصيلات الخبر ، قلبت الفرح خيبة واحالت السرور كآبة .

فلم يكن المقصود ، بهذا التعميم ، انشاء المداجن العصرية . . . كل ما هنالك ان السلطة هي التي ستتولى جمع البيض من المداجن القائمة في ضواحي المدن ، وكذلك ما يحصل عليه اهل الريف ــ امثال بدر الزمان الطيب ــ من دجاجاتهم ، تلك التي تسرح باحثة عن غذائها في الحقول والمزارع .

سعر الشراء من المنتجين يحدده الامبراطور ، ويتوقع ان يكون بخساً . وسعر البيع للمواطنين سيكون مرتفعا ، لا محالة ، حتى يتم للحكومة ان تحقق « ربحا » هو الفرق بين السعرين ... فأين هو « التعميم » ، الذي يهدف خدمة الشعب ؟ هذا ليس الا « احتكارا » للبيض ، الذي يعد الغذاء الاساسي في حياة شعب الامبراطورية ... كذلك تحدث الناس ، باصوات غير خفيضة !

وانطلق ، في اليوم التالي ، المنادون ، في المدن والقرى ، في الشوارع والطرقات ، يعلنون بأصواتهم الجهورية :

ــ على كل صاحب مدجنة ... وعلى كل قروي وقروية ... يا عالم ، يا هو ... ان يسلم محصوله اليومي من البيض الى رجال الامبراطور ... وكل من تسول له نفسه ، الامارة ، ان يتهرب من التسليم ، يجلد ، امام اهليه ، سبع جلدات ، مضروبة بسبع مرات ، مضافا اليها الجلدة الخمسون !.. وفي حال تكرار المخالفة يحبس المخالف سبعة ايام ، مضافا اليها يوم ... وتصادر المدجنة او القن ، بدواجنها وتجهيزاتها ... الحاضر يعلم الغايب ... ادام الله الامبراطور العظيم ، على رأس شعبه المجيد ...

وتنظيما للامور ، احدثت هيئة رسمية جديدة ، انيطت بها مهام الشراء والبيع ، والجلد ، وتسمى : وزارة الشؤون البيضية !

٥

سمع بدر الزمان الخبر بالاذاعة .

ولكنه لم يفكر ، في الوهلة الاولى . على نحو ما فكر المستهلكون الذين ياكلون البيض . بل اخذ يفكر بصفته منتجا للبيض ، وان كان صغيرا ، ذا مصلحة شخصية . تساءل حائرا : ترى ، هل يعود علي ضرر اذا ما صدقت الحكومة وعدها فانشأت مداجن عصرية ، ستؤدي يقينا ، الى تخفيض ثمن البيض ؟ وسرعان ما طمأن نفسه : ولكني اتوقع ، مع ذلك ، ان تتزايد ارباحي مع مضاعفة عدد الدجاج الذي اقتنيه !

ذلك ما فكر به بدر الزمان لحظة سمع مقدمة النشرة .

فلما استوعب تفصيلات الخبر ، احس خفقانا ما يضرب في تلافيف دماغه . على هذا هم ينوون أن يسرقوا الشعب ! عجبا ، السلطة هي التي

ستتولى جمع البيض وبيعه ؟! طيب ، ما بها الجمعيات التعاونية التي انشأناها نحن الفلاحين ؛ مستغنين بها عن تجار الجملة الجشعين ، فاصبحت البيضة تخرج من بين ايدينا الى باعة المفرق راسا في سيارة الجمعية ؟ اذا قام موظفو الحكومة ، فجمعوا البيض هم في سياراتهم الرسمية ، وقيد كتبتهم الاسماء والارقام في سجلاتهم ، وباع البيض باعتهم في محالهم المخصصة ، ذلك كله يعني ان تكلفة البيضة الواحدة ستصبح غدا قد سعر بيضتين ! ان لم تكن هذه هي السرقة عينها ، فاين هي السرقة اذن ؟!

واما عندما راى بدر الزمان المنادي وهو يقف في ساحة الضيعة ، معلنا شروط تسليم البيض ، مهددا بالجلد والمصادرة ، فقد ود لو يهجم عليه ويعضه في حنجرته .

وظل ، طوال ساعات ، يتلفت ، كالمجذوب ، باحثا عن اخيته بشيرة ، ليستفتيها في هذا الذي يقع في البلاد !

ولكن هيهات ! فالجنية لن تظهر له الا في طلوع البدر القادم .

٦

اخذ الرجال ، الذين عينتهم وزارة الشؤون البيضية ، يطوفون في المدن والقرى والمزارع الصغيرة المتناثرة في الارياف ، يجمعون البيض ، وينقلونه في سياراتهم الى مستودعات التخزين ، ثم يقومون بتوزيعه على محال للبيع ، فيها باعة عينتهم الوزارة ، وكتبة ومستخدمون .

واحيانا ، كان يقع تقصير يتأخر بسببه وصول البيض الى محال البيع . فينتظم الناس ، امام الابواب وعلى الارصفة ، في صفوف طويلة ، انتظارا للدور .

وفي احيان اخرى ، كان يقع تقصير من نوع آخر : تهمل كميات من البيض او تنسى في زوايا المستودعات ، فيتسرب اليها العطب والفساد . فكان رجال الشؤون البيضية يغررون بالمواطنين ، بأن يخلطوا البيض السليم بالفاسد . فلا ينتبه الشارون لهذا الغش الا وهم امام مواقد الطبخ . وعندما يراجعون بائعي الامبراطور في ذلك ، يتلقون مثل هذه الاجابة :

— نحن لا نأتي به من بيوتنا ! ما يأتينا منه نبيعه لكم .

— ولكنه ... بيض فاسد !

ـ راجعوا وزارة الشؤون البيضية !

ـ الا تنقلون انتم اليها شكوانا ؟

ـ مهمتنا البيع لا غير .

ـ بيع البيض الصالح للاكل طبعا .

ـ المستاء منكم ، فليصم عن البيض ، ان كنتم تستطيعون !

قلنا عن فساد البيض وسوء توزيعه . ولم نقل شيئا عن الاسعار .

لان الامبراطور ، انما احتكر البيض قصد ان يملأ بالارباح جيوبه ـ وجيوبه وخزينة الحكومة لديه سواء ـ فلم يكن بد من ان يرفع سعر البيض ، تماما كما توقع كل واحد من المواطنين . ولما كان من البيض ما يفسد فتذهب قيمته هدرا . ومنه ما ينقله رجال الشؤون البيضية الى بيوتهم وهل يصح ان يحصلوا شراء على حاجتهم من السلعة التي بها يتعاملون ؟! فان ذلك كله كان مدعاة لان يسمح الامبراطور بالزيادة الفاحشة في سعر البيض ، تغطية للتكاليف الباهظة المتنوعــة .

واما منتجو البيض ، فان الامبراطور لم يفته ان يوعز بخفض سعر الشراء منهم ، ضمانا لجني المزيد من الارباح . هذا الى ان اثنين من القرويين مــن ضيعة « بدر الزمان » ، قد جرهما رجال الامبراطور الى ساحة الضيعة ، خلال الاسبوع الاول من تطبيق التأميم المشؤوم ، حيث جلد كل منهما خمسين جلدة ؛ بعد حجز كل من اتفق مروره قرب الساحة ، في ساعة الجلد ، وارغموا على مشاهدة ابني الضيعة البائسين ـ واحدهما كان امرأة عجوز فانية ـ وهما يجلدان بسياط قدت من نار الجحيم . والذنب الذي ارتكباه ، انهما سلما الى رجال الشؤون عددا من البيضات اقل مما فرض عليهما ، فهما اذن متهربان ! وقد انذرا ، بحضور عمدة الضيعة ، بالجلد ثانية وبالمصادرة ، اذا هما كررا الجرم مستقبلا !

٧

تململ الناس تحت وطأة الظلم والقهر والجشع الذي ليس له مثيل . وفي الصدور جاشت ثورة على الامبراطور ، وعلى منفــذي سياسته في وزارة الشؤون البيضية ، وعلى زبانيته الذين يلهبون الظهور بسياطهم الجهنمية .

وتساءلوا متعجبين : اين ذهبت الحمية ، التي عرف بها اهل هذه البلاد ؟ بل اين هو الاحساس بالكرامة ، الذي اودعه الله في قلب الانسان منذ خلــق الانســان ؟!

والواقــع ، كان عليهم ان ينامــوا على الضيم وان يضمروا ثورتهم في الصدور ... وهل ينفع ان ينهضوا ، اليــوم ، من غــير تنظيم يضم شملهم ويوحدهم ، اذا كان الهدف واضحــا لأعينهم ، الا وهــو التحرر من طغيــان الامبراطور ؟ انهم ان نهضوا عشوائيا ، سحقهم الامبراطور ، ونكل بهم تنكيلا، معلنا انهم عملاء للعدو ، وانهم ما تحركوا الا بايعاز من هذا العدو ، فيعطي الامبراطور بذلك لنفسه مسوغات اضافية للبطش بابناء البلاد ، الذين يتجلى مطلبهم في اعادة سعر البيضة الى ما كان عليه قبل هذا التعميم الباطل !

ولكن الناس ان احجموا ، لعلة ، عن الانقضاض على الامبراطور الظالم ، فان في وسعهم ان يقوموا بـ « عصيان » من نوع ما : ان يصوموا عن البيض ، ان يمتنعوا عن اكله ، مدة تقصر او تطول ، معلنين بذلك احتجاجا صامتا ، وملحقين ضررا باحتكارات الامبراطور .

نبتت الفكرة ، اولا ، في رؤوس المستهلكين . ولم يتخلف منتجو البيض انفسهم عن مؤازرتهم ، مع ما ينتظر بيضهم من كساد وفساد ، ومن خســارة جديدة فاحشة تضاف الى انخفاض سعر الشراء المفروض عليهم .

امتنع الناس عن اكل البيض . ومن لم يستطع صوما ، قلل من مقاديره التي يجلبها الى بيته . وبدأوا يكرهون اكل البيض — او هكذا خيل اليهم — حتى تمنوا لو ينقلب البيض الى قنابل يدوية ، يرشقون بها امبراطورهم الظالم، فيقتلونه ويتخلصون منه الى ابد الآبدين .

وهكذا تضاءل عدد الواقفين في ابواب محال البيع الامبراطورية ، وظل يتضاءل يوما بعد يوم . ووزير الشؤون البيضية يتردد ، من خــوف ، في ان يبلغ امبراطوره بخبر هذه المقاطعة ، التي لم تكن في حسبان احد !

السلطة ، من جانبها ، تلقت هذا العصيان الصامت ، بصمت مماثل . والناس ، في اضرابهم ، كانوا يعانون معاناة الجائع المشتهي ، الذي لا يملــك ثمن قوته ، لا ولا يقدر على جوعه صبرا .

فلما عرف الامبراطور جلية الامر ، كان اول ما اتضح من صراخه ان قال :

ــ اقسم بشرف اجدادي العظام ان هذا الشعب متواطىء مع اعدائي ! طيب ! سارد كيدهم الى نحرهم ، هؤلاء المعادين ! واحدة بواحدة : سأتركهم جوعى في حسرة البيضة ، مثلما انا جائع الى لحم اليمام ! وامــا الخسائر المتحققة ، فلسوف اجعلها على عاتق المنتجين من ابناء هذا الشعب العاق :

ليبق البيض في حوزتهم ، يفسد ، ينتن ، تطلع رائحته ! جميع فصائل الشعب ضدي : مستهلكين ومنتجين !!

وانطلق المنادون ينادون :

ــ كل من تسول له نفسه ، الاشارة ... أن يخرج بيضة واحدة من قنه ... من مدجنته ... ويقدمها الى اي من الناس ... بيعا او اهداء ... فجزاؤه الاعدام شنقا حتى الموت ... ادام الله الامبراطور العظيم على رأس شعبه ... الجاحد !!

على ان الحالة ، التي تردى فيها الناس بعد اضرابهم عن تناول البيض ، لم تعد تستوجب اجراء قمعيا مما اوعز به الامبراطور . فأهل البلاد ، الذين طالما تناقلوا قولتهم الشهيرة : « مائدة طعام ليس فيها بيض ، لا تعد مائدة طعام » ، قد بدأوا يتخاذلون : ذلك ان الامراض اخذت تعمل في ابدانهم وتذهب بأرواحهم ! وهل يقدر جسم على الحركة ، وعلى الحياة ، دون بيض يقيمه ويقويه ؟! وقولتهم الشهيرة تلك ، حرفوها فصارت : « مائدة طعام ليس فيها بيض ... تجلب المرض ، والموت ، والدمار » !!

وشيئا فشيئا ، انحل اجماع الناس على اضرابهم ، وتراجعوا عن صيامهم ، واصبحوا يدخلون المحال الامبراطورية لشراء البيض ، ولكنهم ما كانوا يحصلون عليه الا بشق النفس وطويل الانتظار !

والامبراطور ، يضحك ملء رئتيه ، حتى لينسى افتقاده لحم اليمام ، ويعلن على مسمع من الحاشية :

ــ قد ربيتهم ، الكلاب ! ها هم اولاء يعاودون زحفهم ، غير المقدس ، نحو البيض ، وهم اشد جوعا ! لسوف اسلخ جلودهم : سأرفع سعره مجددا! الحمقى ، لا يستطيعون ان يتصوروا اني لو تنحيت عن الكرسي الامبراطوري ــ وذلك ما لن يكون على الاطلاق ــ لجاءهم من بعدي امبراطور اطعمهم غائطهم بالملعقة ، الجاحدين !!

٨

كاد بدر الرمان يقضي عجبا مما يرى ويسمع ، هو الذي اشتدت لهفته الى رؤية اخيته في ليلة النصف القادمة ، ليسألها في هذا الذي تشهده عيناه ، في هذا الزمن العجيب !

قرب شجيرات دوار الشمس ، كان جالسا على العشب ؛ ذلك المساء . الهواء العليل يداعب الشجيرات ، فيسمع لذلك حفيف .

لم يكن بدر الزمان يفكر في زيادة دجاجاته ، بل يتمنى لها النقصان ؛ لولا خشيته من أن يجلد في ساحة الضيعة اذا هو سلم زبانية الامبراطور ، عددا اقل من البيض ! لم يعد يفكر في بناء قن ، ولا في تحسين قنه المتداعي ، ولا في شراء سرير او خزانة او متاع ، ولا في ان يخطب لنفسه احدى صبايا الضيعة الجميلات ، او ان يصبح ابا حنونا لاولاد صالحين . . .

ـ مياو مياو !

انتفض بدر الزمان :

ـ اهلا ، بشيرة . عمت مساء ، يا اخيتي !

ـ عمت مساء ، يا بدر الزمان !

ـ المساعدة ، التي احدني محتاجا اليها الآن ، هي ان تفسري لي هذا الذي يفعله بنا امبراطورنا « بان ـ تسون » ! انه يحتكر لنفسه بيع البيض . يشتريه منا بازهد الاسعار ، ويبيعه لنا باغلاها . صام الناس عن البيض ، فاعتلت اجسامهم ، وخربت بيوتنا نحن اصحاب الدواجن . هيا ، بيني لي ؛ يا اخيتي : كيف السبيل الى الخلاص ؟

كان بدر الزمان يتحدث طليقا ، متدفقا .

واما بشيرة الجنية ، فقد عادت تلوك قولتها تلك ، القديمة :

ـ الا تريد ان تتحول الى يمامة ؟!

لم يضحك بدر الزمان ، هذه المرة ، او يبتسم ، من هذه الدعابة ، التي يراها الآن ممجوجة جدا ! لا ولا وجد في نفسه باعثا يدفعه الى ان يتفوه بكلمة واحدة . . .

والجنية تابعت هراءها :

ـ لتكن على يقين ، يا بدر الزمان ، من أن نهاية الامبراطور ستكون ، في يوم ما ، على يديك ! كن ، من قولي هذا ، في الف يقين !!!

وارتفع القمر البدر ، وراء الاكمة ، هناك .

والقطة ، الجنية ، اختفت .

٩

اجل : كان بدر الزمان الطيب يقضي عجبا مما يرى ويسمع من تصرفات الامبراطور الغريبة المعنة في غرابتها . ولكنه ـ بعد هذا التأكيد الذي القته بشيرة في قلبه : « كن » ، من قولي هذا ، في الف يقين ! » ـ يكاد يجن من الفرح !

لقد ايقن بتنبؤ اخيته ووثق بوعدها . فكر في ذلك كله ، سويعات المساء ، وهو مستلق على الحشائش الرطبة ، مستغرقا في النظر الى البدر في صعوده نحو قبة السماء ، تغشاه احيانا غيوم ارق من الورق الشفيف . وظل يفكر ، طوال الهزيع الاخير من الليل ، وهو متمدد على فراشه الخرقي داخل كوخه .

فكر طويلا ... حتى خيل اليه انه قد تملك ، حقا ، قدرة خارقة ، تمكنه من ان يشق ، في ضحى يوم من ايام الخميس ، الصفوف المحشودة على طرفي الطريق ، مقتحما الموكب الامبراطوري مثل سكين حادة ، مندفعا ـ دون ان تقدر قوة على كبحه ـ نحو تلك الكتلة الشحمية ، المستوية فوق المحفة ، ليوسعها ضربا وركلا حتى الموت ! او ... لم لا يكون في يده خنجر ، خنجر مسموم ، او مسدس ، او رشيش ؟! ولكن قنبلة يدوية افضل !!

مع صياح الديكة تبددت هذه الاحلام ، ولم يبق منها الا اضغاث .

وفي عودةبد ر الزمان ، المسكين ، من الجدول ، حاملا سطليه الاثنين ، كان يتساءل في حيرة منغصة : لنفترض اني ، الآن ، « في الف يقين » من ان نهاية الامبراطور ستكون على يدي ... طيب ، كيف ؟! وذلك الـ « في يوم ما »، متى يهل ؟!

في قرف ظاهر ، اخذ في غسل الجرن . كانت الديكة قد اتمت صياحها الصباحي ، ثم لاذت بالصمت : والدجاجات تقوقىء داخل اقنانها كالمحتجة على التلكؤ في اطلاق سراحها .

في سام ، ظاهر ايضا ، اخذ بجمع البيض . بالامس ، كان يعمل بهمة عالية لبناء مستقبله . واليوم يعمل ليزداد الامبراطور سمنا ، وتفيض خزائنه بالاموال !

وفي حقد ، كظيم ، قدم الصحون لموظفي الشؤون البيضية .

ـ بيضك ، المرة الماضية ، كان ناقصا !
ـ سلمتكم اياه بالعدد !
ـ وجدنا بعضه مكسورا ، فاتلفناه !
ـ وهل تسلمتموه مكسورا ؟

ــ لا تتفلسف !

ــ لم تكن الجمعية تعاملنا على هذا النحو .

ــ اتنتقد اجراءات الامبراطور ، انت !

في انصرافهم ، عاودته تلك الاحلام العذبة : ان ينهي ، بيديه هاتين ، اسطورة الامبراطور الظالم ! شط به الخيال : لو ارميه ، من بعيد ، بصاروخ محكم التسديد ، وهو فوق محفته . فلا يبقى من اشلائه ما يميزها من اشلاء سواه !

مساء ، في ساحة الضيعة ، اخذ بدر الزمان يحدق ، طويلا ، في البدر ، الذي تخلى الليلة عن جزء من نفسه .

السامرون سألوه :

ــ بدر الزمان !! ما بك ، يا طيب ؟! نصف الالف خمسمئة !

زفر . تأوه . ثم اعلن تمنيه :

ــ ليت امبراطورنا يكف عن قهرنا ومص دمائنا !!

تعجبوا من هذه الجراءة المفاجئة :

ــ الا تخشى الامبراطور ، يا بدر الزمان ، وانت تقول هذا ؟!

ــ ولماذا اخشاه ؟ اني مواطن طيّع له : اقدم لموظفيه من البيض فوق العدد الذي يفرضونه علي ! وارضى بالثمن البخس الذي تجود به نفوسهم !! وبعد ذلك يدعون ان بيضي مكسر ... حرامية ! اناقشهم ، فيتهمونني باني انتقد الامبراطور ! هل اصبح كل شيء محرما ؟ ... آه ، ليت الامبراطور يكف عن قهرنا ومص دمائنا !!

١٠

قهر ومص دماء ! ظلم وجشع !

ذلك هو الثنائي الذي يقف عليه عهد الامبراطور « بان ــ تسون » . وفي كتاب هذا العهد ، المفتوح ، تخط الايدي صفحات سودا من الفساد ، والرشوة ، والتحيز ، والتقاعس ، والتضليل ، والتنكيل ...

« ليت الامبراطور يكف عن قهرنا ومص دمائنا ! » : شكاة جريحة ، زفرتها لهاة معدم مسحوق ، ثم راح كل منهم يلقيها في اذن امه ، واخيه ، وزوجته وبنيه من فم الى اذن . من ضيعة الى ضيعة . من الريف الى المدن ، والى العاصمة ذاتها ... وجد المواطنون فيها ، « ليت الامبراطور يكف عن قهرنا ومص دمائنا تعبيرا عما يعانون .

وحطت الكلمة في سمع الامبراطور .

صرخ ، مهتاجا ، محمر الاذنين :

ـ من هذا الصعلوك الذي تجرأ فانتقدني ؟! انا اقهر شعبي ، واظلمه ؟ منجزاتي الباهرة ، كلها في خدمة الشعب ، ترفهه ، تدلله ، وتمنحه العزة والكرامة . انا امص دماء احد ؟! تعميم البيض !! اني ، في تعميمي البيض ، نظمت توزيع هذا الغذاء الاساسي على شعبي الحبيب ! اليس لهذا المخلوق العجيب ، عين ، اذن ، عقل ! اجلدوه ، في ساحة ضيعته ، عاريا ، سبع جلدات مضروبة بسبع مرات ، مضافة جلدة ! ثم اجلدوه ، في ساحة العاصمة ، ضعف هذا العدد . اقسم بشرف اجدادي العظام ، ان هذا التعيس ، متواطىء مع اعدائي ! صادروا ممتلكاته . اقبضوا على العميل ، المتواطىء ، قبل ان يفر نحو الاعداء ! القوه ، بعد الجلد ، في غيابة سجن ، يبقى فيه مدى حياته ، او مدى حياتي انـا !!

ولكن لم يكن لبدر الزمان ممتلكات تصادر . قبضوا عليه . اتوا بمدحلة ، داست كوخه ، والقن ، بدجاجاته عاثرات الحظ ، وسوت هذه كلها بالارض .

بكى مربو الدجاج الفقراء .

ثم بكى الجميع ، ساعة راوا بدر الزمان ، الطيب ، ذا الشكاة الجريحة المعبرة ، وهو يجرد من لباسه ، في ساحة الضيعة ، ويوثق ، ويجلد عاريا .

ومما زاد في تاثرهم انهم وجدوا هذا الفتى ـ بعد جراءته المعجبة ـ صابرا صامدا . كان ينقل بينهم نظرا ثابتا ، وكان سياطا لا تخفق فوق ظهره العاري . لا تطرف له عين . لا تنفرج شفتاه عن انة ولكنه كان ، طوال الجلد . يردد على نحـو رتيب :

ـ يا اخية ! يا اخية ! يا اخية !

وبكى ، ايضا كل من تحلق حوله ، في ساحة العاصمة ، وهو يجلد . نظـر ثابت . لا تطرف له عين . لا انين .

ـ يا اخية يا اخية ! يا اخية !

الجريء ، الصابر ، احبوه ، اقاموا له في القلوب تمثالا .

على ان ما خفف من حزنهم ان بدر الزمان قد نجا من حبل المشنقة . واما سجنه ، مدى حياته او مدى حياة الامبراطور ، فامره هين : لان الامبراطور طاعن في السن ، وهو كذلك يفتقد اكل اليمام !

الفصـــل الثاني

بـــدر الزمـــان في الغابـــة

١١

ألقي ببدر الزمان في قعر زنزانة ضيقة ، كان في زاوية منها طاقة يشـــاهد منها وجه السماء . وفي باب الزنزانة الحديدي المصفح ، المقفول بسبعة اقفال غلاظ ، كانت ثمة فتحة لا تتسع لاكثر من يــد ، يراها تمتد كل صباح ، مقدمة اليه رغيفا وشيئا من ادام ليس فيه بيض ، وتضعها على رف مما يلي الفتحة ، على نحو لا يرى فيه بدرالزمان صاحب اليد ولا تقع عليه هو عين أحد . وفي جانب من الزنزانة مرحاض ، وصنبور لا ينزل الماء منه الا قطرات . وثمة مصطبة جعل بدر الزمان ينام فوقها ، ويجلس ، مفترشا بطانية وملتحفا بأخرى ، وهو يعاني من القروح التي خلفتها في ظهره الجلدات الخمسون والمئة بعدها .

اخذ بدر الزمان يرصد ، من الطاقة الصغيرة ، طلوع الشمس ومغيبها . وفي الليل ، يساهر النجوم ، ويعد منها ما يستطيع من خلال قضبان الطاقة الحديدية . ولكنه ما كان يعنيه أن يعد الايام التي تكر ، فاطلاق سراحه لايتعلق بانقضاء مدة ، بل بانقضاء حياة الامبراطور يان ــ تسون ... ومن يأتي له بخبر الامبراطور ؟ أم انهم ينسونه في غمرة الفرح الذي سيحل بالشعب يوم وفاته ؟!

والواقع ان بدر الزمان فكر كثيرا باخيته بشيرة ، التي مابرحت تلقي في سمعه : نهاية الامبراطور ستكون ... كن في الف يقين ... حتى وصل الى قعــر زنزانــة !!!

لطالما سألته : « الا تريد ان تتحول الى يمامه ؟ » .

ولكن ، لماذا يمامه ، وليس طــيرا جارحا ، صقرا او عقابــا ، فيفقأ عــين الامبراطور ، او ينقره في مؤخرة رأسه ، في موضع البصلة السيسائية ، فيقضي عليه قضاء مبرما ويريح من شره العباد ؟ ... وبعدئذ ، فلتنتف الحاشية ريشه او فلتشوه على النار حيا !

ولكن ، اين هي اخيته بشيـرة ؟

وراض نفسه ، فاخذ يعد الايام . حتى دنت ليلـة النصف القمرية ، وفي نفسه توجس من ان تحتجب عنه بشيرة ، فلا تظهر له وهو في السجن ، مقفولا عليه بسبعة اقفال غلاظ !

١٢

لم يعد في وسع بدر الزمان ان يرى القمر البدر طالعا ، كما كان يقع له وهو في فناء كوخه الذي باد ، حين تداعب هبات من ريح اوراق شجيرات دوار الشمس .

ولكنه سمع صوتها :

ــ مياو ! مياو !

هتف ، في عتمة زنزانته ، مثل مجنون :

ــ بشيرة ! اخيتي

ــ هاندي ، يا بدر الزمان !

ــ كم انا في حاجة اليك !

ــ اني معك على الدوام . كيف حالك ؟

ــ مسلوخ الظهر !!

ــ هل انت يائس ؟

ــ اني حاقــد !

ــ هل تتمنى الافراج عنك ؟

ــ اني لاكثر تمنيا لموت الامبراطور !

ــ كن في الف يقين . . .

ــ وبعد ، يا اخيتي !!

ــ من ان نهاية الامبراطور الظالم ستكون على يديك !

ــ ولكني مغلول اليدين ، كما ترين !

ــ لسوف تتحرر !

ــ كيف ، يا اختاه ؟!

ــ بأن تتسلل من بين القضبان !

ــ معناه ان تتحول الى . . . يمامة !!

ــ « الا تريد ان تتحول الى يمامة ، يا بدر الزمان ؟ » .

ــ اتمنى ذلك الان !

ــ ان امتنعت عن تناول الطعام ، طوال شهر قمري كامل ، ظل جســمك يتضاءل ، وانقلبت ، في الصباح الذي يلي ليلة النصف القادمة ، الى يمامة ، تستطيع ان تتسلل من بين هذه القضبان . . . في تلك اللحظة ، اكون في الفضاء يمامة تنتظرك !!

١٣

منذ ذلك اليوم ، امتنع بدر الزمان عن تناول طعامه . جعل يأخذ ، كل يوم ، الرغيف والادام من على الرف ، وينحيهما جانبا .

في البداية ، كان احساسه بالجوع يتزايد شيئا فشيئا ، حتى لقد الهاه عن اوجاع الظهر المقروح ! ولكنه ، بعدئذ ، الف الجوع ايلافا ، فكأن صداقة وثيقة قد انعقدت بينهما ، فانسته تباريح الجوع ، والظهر الموجوع ، وكل آلام السنين .

كان بدر الزمان يتسلى باعادة قراءة ما خطته ايدي المعتقلين الذين مروا في هذه الزنزانة الموحشة : « ذكرى المظلوم فلان الفلاني ! » ، وكأنها ذكرى ترويح عن النفس في روضة مثمرة الاشجار ! بالاظافر يحفرون على الجدران : « مظلوم أنا ، ايها الامبراطور يان ـ تسون » ! ولكن من يسمع ، من يرى ، وهم يدفعون بالسجين الى الزنزانة ، مسقطين عليه الاقفال الغلاظ ، دون أن يتيحوا لانفسهم ان يروا او يسمعوا شيئا ؟! تحت الطاقة حفروا : « ما اجمل الحياة في ظل الحرية » . وفي السقف خط سجين متوسط الطول : « كل حال يزول .

وبدر الزمان يرى أنه ، هو نفسه ، يزول ، يتحول جسده من حال الى حال : انه ليصغر ، يوما بعد يوم ! الذراعان تقصران ، والساقان تضمران ، وهو متكوم في زاوية من المصطبة ، بعيدا عن كل عين !

دنت الليلة القمراء ، حلت الليلة القمراء ، انقضت الليلة القمراء .

ومع بزوغ الفجر الجديد ، وجد بدر الزمان نفسه وقد استحال الى طير ذي جناحين مخمليين وقائمتين بمخالب !

خفق الجناحان ، فاصطفقا ، ارتفعت قائمتاه عن المصطبة ، حاول ان يرنق في فضاء الزنزانة الضيق ، فما اسرع ما استجاب له الجناحان !

وكما تخرج دودة الحرير من شرنقتها فراشة تطير ، تسنى لبدر الزمان ان ينسل من بين القضبان بيسر ، فيخرج من زنزانته طير حمام !

ما ان ملا رئتيه من انسام الحرية العليلة ، حتى كان اول ما تبادر الى خاطره : كيف ينهي حياة الامبراطور الظالم ، وما هو ـ اخيرا ـ الا طير يمام ؟!

لم يكد بدر الزمان يحلق ، مبتعدا بنفسه عن السجن الذي غادره الى الابد حتى لمح يمامة تنطلق من قمة شجرة سرو عتيقة هناك ، متجهة نحوه ، ثم ترنق حوله ، وتطير واياه جنبا الى جنب .

ـ عمت صباحا ، يا بدر الزمان !

ـ عمت صباحا ، ايتها الصديقة الصدوق ، التي ليس اوفى منها بين الانس والجن والطير !

ـ اخجلتني ، يا طيب . كيف حالك ، الآن ؟

ـ ما انا الا طير يمام ، وديع ، كما ترين !

ـ لم اخبرك ، بعد ، بانك ستظل كذلك مدى العمر !

ـ احسن ! ليس في انسلاخي عن البشر ما يؤسف له ، ما دام يحكم بلادي الامبراطور بان ـ تسون !! ولكنك طالما بشرتني ، يا اخيتي ، بان نهاية الامبراطور ستكون على يدي ، والاحرى : على قائمتي ! فلم يعد لي ، منذ اليوم ، يدان ولا رجلان !!

ـ اذكر هذا ولا انساه . واضيف : اني اتنبأ ، ايضا ، بأن يكون في مستطاعك ان تقدم لشعبك خدمة جليلة . ولكن عليك بالصبر مدة ، ان يؤون الاوان لتحقيق هذه النبوءة . والآن ، فلنحلق عاليا ، يا بدر الزمان ، بعيدا عن المدى المجدي لرصاص الامبراطور ، والا امسينا الليلة وجبته المشتهاة ! ولنسرع في طيراننا ، فان امامنا لسفرا طويلا !

١٤

حلقت اخية عاليا ، واسرعت في طيرانها .

وبدر الزمان يواكبها ، محدثا نفسه طوال السفر : آه ، ما اجمل الطيران في الفضاء الرحيب : لا حدود ، لا قيود ، ولا امبراطور يحتقر الناس ويحتكر قوتهم اليومي ! ومن عجب انه ، في طيرانه الطويل ، لم يحس بأي قدر من التعب ، وهو الذي دخل حديثا في عالم الطير والطيران !

وصلت به بشيرة الى غابة عظيمة . ما ان حلقا فوقها ، حتى ترامت الى اسماعها زقزقات وتغاريد !

ـ اين نحن ، يا اخيتي ؟

ـ فوق « غابة الصنوبر العظيمة » ، عند اهلك الجدد ، يا طيب !

حطت بشيرة ، وبدر الزمان يتبعها ، على فرع في دوحة صنوبرية . ادار بدر الزمان عينيه فيما حوله : يا لها من طبيعة خلابة ! اي شجر باسق فينان ! اية خضرة ناضرة هذه التي تكسو الارض ببساط سندسي ! ازاهير ملونات فاتنات ! جداول تجري في كل مكان . طيور وطيور وطيور ، ومعظمها من فصيلة اليمام ، التي بات ينتمي اليها بجنسه !

اخذ اليمام يتوافد ، رفوفا رفوفا ، من انحاء الغابة ، للترحيب بمقدم بدر الزمان ، حتى لقد ظن نفسه ، لحظة وجيزة ، « امبراطورا » لليمام ! ولكنه سرعان ما طردمن ذهنه هذا اللقب الكريه ، الذي يرتكب حامله على وجه الارض ابشع المظالم !

اسرعت انتباه بدر الزمان ، وهو بجوار اخيته على هذا الفرع من الدوحة الصنوبرية ، يمامة ، صبية ، تقف على غصن مقابل . راح يتأملها بعينين يماميتين ، وقد تفجرت في صدره ، فجاة ، كوامن الحب الذي قمعه جور امبراطور ارضي . لله ما اجملها : لون كستنائي وهاج ! والعينان لوزيتان مشروطتان . والجيد ، الاتلع ؟ ان جيدها مخرم ومرقش ، سبحان من صور ؛ لكانه قرص عسل ، تشكيلا وتلوينا ، ومذاقا كما يخيل اليه ! والجنبان ، المخمليان ، محفوفان بزرقة فيروزية رائقة . والصدر مبطن بزغب ابيض ناصع البياض ! والذيل ، اذ استدارت ، العريض الملون ، ولا ذيل طاووس ! واما ساقاها ، عفوا ، واما قائمتاها .....

قطعت عليه خواطره اخيته بشيرة :

— هم م م ... « اين وصلنا » ، يا طيب ؟!
— ماذا هنالك ، يا اخية ؟
— وهل اعجبتك ؟!

شاء بدر الزمان ان يمكر :

— من ، من تقصدين ؟
— الحلوة ، التي اراك تلتهمها بعينيك !

تساءل مستسلما :

— اهي ... عزباء ، يا اخيتي ؟ اليست « مرتبطة » بحب رجل آخر . اقصد بحب ذكر يمام آخر ؟

— هل ترغب ، حقا ، في ان تستكمل بها نصف دينك ، يا بدر الزمان ؟
— ليت ذلك يكون ، ان هي قبلت بي زوجا ، محبا وفيا الى الابد !

كانت الصبية قد ادركت ، بغريزتها الانثوية ، اي حديث يدور بين الجنية وبين ذكر اليمام ، الفحل ، القادم توا من الغابة ... فاغضت بناظريها استحياء !

— هل تقبلين به زوجا ، يا ... « بدور » ؟!

وعلى حين احمرت مقلتا اليمامة من خجل ــ دليل الرضا ــ فان بدر الزمان ، الطيب ، اسرع يلكز ، بجناحه ، اخيته بشيرة ، ثم اخذ يصفق بجناحيه كليهما ، ويدور حول نفسه ، مرددا بصوت لا تسمعه الا اخيته :

ــ بدور ! بدور ! واسمها ، ايضا ، « بدور » ! يا للمصادفة السعيدة !

١٥

بشيرة ، التي اخذت على عاتقها ان تقود اخيتها الى غابة الصنوبر العظيمة ، لم تدخر وسعا في اختصار اجراءات الخطبة .

لقد حدثت ، اولا ، بدور على انفراد . ثم مضت الى امها وابيها في طلب يدها . لم يبد الابوان ، المتنوران ، ممانعة ، ما دامت صبيتهما ، الواعية ، قد عبرت عن موافقتها بصمتها وباحمرار مقلتيها خجلا .

والواقع ان شخصية الخطيب ، قد اعجبت افراد الاسرة ، لما يتمتع به من الشباب والفحولة والرزانة ! ولكن الاعجاب الباهر ، الذي حظي به هذا الوافد الجديد الى الغابة ، الاعجاب الحق ، تجلى بعد ان تناقل يمام الغابة تفصيلات ما لحق ببدر الزمان ، الجريء المناضل ، من العذاب على ايدي جلاوزة الامبراطور بان ــ تسون ، عدو اليمام الرهيب !

مسلعي بشيرة ، الحميدة ، ان لها فعل السحر .

مساء ، وقبل ان تختبىء شمس الاصيل في الافق الغربي ، كان في الغابة فرح يغمر القلوب ، ويفيض ، حتى ليبلغ عنان السماء : انه زفاف بدور الى بدر الزمان !

العصافير زقزقت ، والبلابل تصادحت ، فردت الببغاوات مزغردة . على حين كانت افواج لا حصر لها ، من اليمام ، تهدل : كوكو ككوكو ...

من نشوتها رقصت الطيور جميعا ، في حلقات ، على ايقاع اغاريد الشحارير المنتظم . والطواويس توسطت الحلقات ، ناشرة ، في رقصها ، اذيالها الزاهية الالوان . بينما كانت جوارح الطير ، من صقور وعقبان ، تحلق في الفضاء ، جاعلة من نفسها مظلة حماية الغابة ! وعلى الارض السندسية ، بين جذوع الاشجار الباسقة ، كانت تشارك في الاحتفال سباع الغابةووحوشها الكاسرة ، من اسود ونمور وضباع وبنات آوى ، حتى السلاحف والافاعي خرجت من جحورها ، راقصة او متفرجة ، راكضة او متضاحكة .

انها ليلة ندت من ليالي « الف ليلة » ، لم يكن بدر الزمان معها ليشك ، مثقال ذرة ، في ان القدر قد ابتسم له ، بل ضحك ضحكا عريضا ، منذ غادر عالم البشر الارضي الى عالم الطير الرحيب .

وهناك ، على احد افنان دوحة من الدوحات ، كان ينتظر العروسين السعيدين ، عش زوجية ، مجهز بأعواد قش ناعمة كالحرير ، ومظلل بأوراق شجر عصية على اليباس ، تقي من حر وقر ومطر !

١٦

طابت ايام بدر الزمان في الغابة . ومصدر سعادته زوجته الحبيبة بدور ، التي بادلته حبا بحب وشغفت بـه اعجابا وافتخارا ، بمقـدار ما اسعدته المودات الصافيات التي اغدقتها عليهما الحمائم الاخرى .

عاش بدر الزمان سعيدا ، في غابة العصفور العظيمة ، تلك التي كانت قد فتحت صدرها لطيور اليمام وانزلتها في ربوعها مكرمة عزيزة الجانب .

سعيدا عاش بدر الزمان . اجل ... ولكن امرا ما ، كبيرا جدا ، كان ينغص سعادته وهناءته : انها ذكريات الماضي ! ذكريات عن النفس ، وذكريات عن الشعب الذي كان ينتمي اليه . ذكريات تبين انها دائمة الحضور في نفسه ، لا تفارق خاطره في نهار او في ليل !

ولم يكن بد من ان تلاحظ بدور سهوم زوجها وانشغال باله . سألته . فطفق بدر الزمان ، وهو في تلك اللحظة في مدخـل العش ، يتحـدث عن بان ـ تسون الظالم ، وما يعانيـه مواطنوه ، اولئك الذين تلفحهم شمس امبراطوريته المحرقة . ظلم وقهر واستعباد . حتى قوت الشعب اليومي ، بيض الدجاج ، لم ينج من استغلاله : يشتريه من منتجيه بالسعر الزهيد ، ويبيعه للشعب بالسعر الفاحش .

ـ ... وآه ، لو كنت رأيت ، يا بدور الحبيبة ، الى بدر الزمان الانسان ، وهو يتلقى الجلد في ساحة الضيعة ، ثم في وسط العاصمة ! وآه ثم آه ، لو رايت الى ظهري ، المجلود المسلوخ ، وانا في تلك الزنزانة الضيقة ، اذن لكنت ذرفت على غزير الدموع !

استرسل بدر الزمان في حديثه ، وهو ساهم النظر الى الافق البعيد . فلما حانت منه التفاتة الى زوجته ، التي كانت معتصمة بالصمت ، رأى الدموع تترقرق في عينيها اللوزيتين الدعجاوين !

وكم تأثر لما راى ، واحس حزنا واسفا ! اقترب من بدور ، فقبلها من منقارها بحنان . ثم اخذ يمسح دمعاتها برأسه المخملي . وبعدئذ قام يرقص لها ، مصفقا بجناحيه ، هازا راسه ، ودائرا حول نفسه ، حتى استطاع أن يدخل السرور الى نفسها ويسري عنها . فراقت العينان ، وصفت النفس ، وعادا ضاحكين .

على إن الحاح الذكريات على خاطر بدر الزمان ، حمله على ان يحدث زوجته عن مأساة اليمام مع يان ـ تسون ، وكيف ان اليمام هجر البيوت واشجار المدن ، ناجيا بنفسه الى الغابات البعيدة . ولولا ان وحوش الغابات وطيورها الجارحة ، كانت على درجة من العطف والشهامة فاقت كل ما في قلب ذلك الامبراطور المسمى انسانا ، فرحبت بمشاركتها الحياة في غاباتها ، وأظلتها بحمايتها وآمنتها من خوف ، اذن لكان جنس اليمام ، اليوم ، في خبر كان !

ومع ان بدور الطيبة ، كانت تجهل جهالة تامة مأساة بني جنسها ، ذلك انها قد نشأت في أسراب الغابة ، وترعرعت في ظل الوحوش والجوارح المتعاطفة ، فلم تدرك عهد المجازر الذي استباح فيه الامبراطور الحرمات من اجل وجبات طعام مشتهاة ، لا ولا ادركت ايام الهجرة التي رحل فيها اليمام عن المدن والقرى .... الا انها اشتعلت حماسة ضد هذا الـ « يان ـ تسون » الذي لا قلب انسان له ، ولا قلب طير او وحش ، وودت لو انها تستطيع أن تحج ، مرة واحدة على الاقل ، الى مسقط رأس والديها ، او الى حيث الهبت السياط ظهر زوجها الجريء ، فتستروح عبير تلك الربوع المسحوقة ، الصابرة ، الصامدة .

وهكذا وجدت بدور نفسها ، يوما ، وهي تقترح على زوجها ان يقوما معا برحلة خاطفة الى ضيعته الحبيبة .

ــ ورصاص الامبراطور ، يا حبيبتي ؟!

ــ نحلق ، في سفرنا ، عاليا جدا .

ــ وساعة نحط على وجه البسيطة ؟

ــ نجعل وصولنا الى الضيعة ، ليلا .

ــ يا لك ، يا بدور ، من طير شجاع ، مع ما اعرفه من أن سفر الليل على الطير عسير . ما أسعدني بك زوجة وفيه باسلة !

ــ ولسوف اهدي اهل ضيعتك ، اكراما لك ، بيضة ، اضعها في شباك اقرب البيوت الى حيث كان كوخك ، الذي سواه مع الارض رجال الامبراطور الغلاظ ، يا حبيبي .

١٧

قبل سفرهما ، قام الزوجان ، المناضلان ، بتوديع الاهل والجيران والاصدقاء . بعض هؤلاء هنأهما على هذه الرحلة الجريئة ، وعدها دليل وفاء للوطن الام ما بعده وفاء ، وتمنى لو يفعل هو ذلك في مقبل الايام . وما كتمت طيور اخرى مخاوفها :

ان جوع يان ــ تسون الشره الى لحم اليمام ، يجعل رجاله المسلحين في تمام اليقظة ، حتى وهم في دورياتهم الليلية !

غادر بدر الزمان وبدور ، غابة الصنوبر العظيمة ، ساعة المغيب ، متوجهين نحو الضيعة الحبيبة . كانت الشمس في الافق لا تفتأ تتناقص ، وكانها تغوص في بحر . ذكر ذلك بدر الزمان بتلك اللحظات التي كان يفترش فيها العشب بجوار شجيرات دوار الشمس ، في تلك الليالي القمراء ، مرتقبا طلوع البدر من وراء الاكمة ... يا للايام الراحلة !

جعل بدر الزمان يستهدي ، في ظلام الليل ، حاسة الاتجاه التي وهبها اذ اصبح طيرا ! كانت رحلة ممتعة ، مع طولها وما تخللها من المشقة والعناء . استنشقا ، في طيرانهما ، رائحة صنوبر ، فعرفا انهما يحلقان فوق غابات يمام اخرى . واستشعرا احيانا رطوبة ، وهما يجتازان انهارا .

في الهزيع الاخير من الليل ، حطا على فنن شجرة عتيقة ، في طرف من اطراف الضيعة .

ــ هنا كان لي ، في حين من الدهر ، كوخ وقن ودجاجات ، يا حبيبتي ! كنت اعمل في صمت واكد بسعادة ، قبل ان ينتهي فجأة كل شيء الى الابد ! وهناك ، في تلك الساحة ، قلت للسامرين ، في تلك الليلة : « ليت الامبراطور يكف عن قهرنا ومص دمائنا ! » لست نادما على كلمتي ، يا بدور ، بل اني اتمنى لو يعلن مثلها كل مواطن يعيش على هذه الارض ، كل كاره لحكم الطاغية يان ــ تسون ، لارى كيف يمكن لسياطه ان تلهب ظهور الناس كلهم ، ولسجونه ان تتسع لاعتقال كل فرد من افراد هذا الشعب الكبير بملايينه !!

تأثرت بدور ، وسالت دموعها مدرارا . ولم تذرف عينا بدر الزمان دمعة . كان حقده على الامبراطور اقوى . آه ، لو ان الدموع تنقلب الى رصاص ،

رصاص صامت صائب قاتل محرق ، اذن لتمنى ان ينقلب هو نفسه ، هـو كله ، الى دمع عين !

واختارت بدور شباكا في احد الاكواخ التعيسة ، ووضعت على حافته بيضتها ... هدية ، للذكرى !

وعاد الرفيقان ، الوفيان ، المناضلان ، في الهزيع الاخير من الليل ، الى غابتهما ، بأمان .

١٨

في الصباح ، وقبل اخلادهما الى الراحة ، حدث الزوجان ، « البدران » ، الاهل والجيران والاصدقاء ، بما شاهدا من روعة مغيب الشمس في الاعالي ، وما استروحا من عبير الصنوبر لدى تحليقهما فوق الغابات الاخرى .. ثم افاضا في وصف تسللهما الى فضاء الضيعة في غفلة من عيون الامبراطور ، ووقوفهما على اغصان تلك الشجرة العتيقة ، قرب الفسحة التي كان فيهـا كـوخ بـدر الـزمان وقتـه ... وبعدئذ ، اختارت بدور شباكا في كوخ ، لتضع هديتها !

اجج الحديث عن الوطن الام عواطف الحنين عند اليمام ، الذي كان قد هاجر بنفسه نحو الغابات ! وضع بيضة على حافة شباك كوخ ، شباك منزل ! آه ، مـا احبـك ذلك الى النفس ! يا للذكريات البعيـدة العـزيزة ! لقد اوشكت صور البيوت ، المدن ، القرى ، تندثر في ذاكرة الرعيل الاول ، المهاجر ، على انها صور مفتقـدة ابتداء في ذاكرة الجيـل الذي اكتحلت عيناه بنور الغابات الصنوبرية ...الاشكرا للوحوش الكاسرة وللطيور الجارحة، على كريم استضافتها ! ولكن اليمام ، الوديع ، بات يحن الى ان يبتني لنفسه اعشاشا في اشجار قريبة من الجدران !

منذ ذلك اليوم ، انتشرت ، في « غابة الصنوبر العظيمة » ، ظاهرة تستلفت النظر : ان يتاهب زوجان من اليمام ، في هذه الدوحة او تلك ، استعدادا للحج الى موطنهما الاصلي ، متأسيين في ذلك بالزوجين الوفيين الجريئين . وهناك ، تقدم اليمامة هديتها ، واضعة اياها على حافة شباك ! وفي الصباح ، يعـود الزوجان سالمين .

على ان هؤلاء الحجاج ، الذين بدات اعدادهم في التزايد ، سرعان ماأخذوا يعودون بقصة مكررة بدت اغرب من الخيال : البيوض ، التي تضعها اليمائم في شبابيك البيوت ، تنقلب ... تنقلب ، بـين ايدي النـاس ، الـى ... قنابل يدوية !!

في البداية ، استغرب الناس هناك ، ان يقعوا على بيوض يمام في شبابيك بيوتهم ! اليمام ! لقد بات اسطورة ، اليمام الذي هاجر ، عن بكرة ابيه ، الى الغابات البعيدة ! وذلك ــ كما يعلمون جيدا ــ ما ارق الامبراطور ، الجائع الى لحم اليمام الوديع ، المشوي على نار هادئة . وجعله يشكو امره الى «مجلس العدل الامبراطوري » ، حتى لقد بكى لبكائه المداهنون !

استغرب الناس ذلك كثيرا . ولكنهم لما تناولوا هذه البيوض ، واخذوها في ايديهم ، وقلبوها ، راعهم ان تغيرا عجيبا يطرا عليها : تتحزز البيضة طولا وعرضا ، وينبثق شيء ما من احد طرفيها !!

ابناؤهم ، ممن سبق ان تمرسوا بشؤون القتال ، اعلنوا ببساطة متناهية :

ــ ولكنها قنابل يدوية : هذه ! ذلك هو الصاعق ، انتزع بطرف الاصبع ، انجذب الفتيل ، فانفجرت القنبلة شظايا ! انها قنابل يدوية ، مافي ذلك شك ! ولكنها قنابل صغيرة جدا ، ورشيقة جدا ، وناصعة البياض !!

ولم يكن استغراب اليمام ، في غابته البعيدة ، باقل من نظيره لدى الناس .

ولئن عمد الناس الى اخفاء البيض ــ القنابل في حرز حريز ، بعيدا عن عيون الامبراطور ، فقد شجعت حقيقة تحول البيوض الى قنابل ، التي شاعت بين اليمام في غابة الصنوبر العظيمة ، على مواصلة رحلات الحج الليلية ، والاكثار منها ، وعلى وضع المزيد من البيض في شبابيك بيوت الناس !

اطرف ماهنالك ، ان بدر الزمان ، ساعة ابلغه الجيران بنبا التحول الخطير ، وهو في شرفة بيته يتشمس ، هرع الى الداخل ، ليوسع زوجته بدور قبلا ، وهو يهتف بفرح طاغ :

ــ تحقق الحلم العظيم ! تحقق الحلم العظيم !

ثم ارتد الى الشرفة ، واخذ يرقص ، على مرأى من مبلغيه النبا ، بان ينشر جناحيه على طولهما ، ويصفق بهما بصوت عال ، ثم يرقص راسه الصغير ، بمده الى اسفل ورفعه الى اعلى وبعدئذ يدور على نفسه دورات لا عدد لها ... وهو في ذلك يهدل :

ــ جاء يوم النصر ! جاء يوم النصر ! جاء يوم النصر !..

١٩

والامبراطور ؟!

ماذا عن الامبراطور يان ـ تسون ، المغرم بلحم اليمام المشوي ؟

لما نقلوا اليه ان اليمام يظهر في الاجواء ليلا ، صرخ :

ـ وكيف لاتصطادون لي منها يمامات ، انتفها بيدي ، واشويها على نـار هادئة ، وآكلها ، مستعيدا صحتي الغالية ، أيها الكسالى المتقاعسون ؟!

فلما جاءته الاخبار بأن انفجارات ما ، بات يسمع دويها في البراري النائية من انحاء امبراطوريته ، اصيب بالذهول . لقد شاء نفر من اولئك الذين تملكوا هذه البيوض العجيبة ، تجريبها : أهي حقا ، قنبلة يدوية ، هذه الصغيرة جدا ، الرشيقة جدا ، الناصعة البياض ؟!

والاخبار تتوارد الى الامبراطور :

ـ تلك انفجارات ... تحدثها قنابل ... اصلها البيوض التي تضعهـا اليمائم ، المتسللة الى سماء المدن والقرى !!

ـ فاقتلوا اليمام حيثما وجدتموه ! لا اريد ، منذ اليوم ، ان تحلق يمامة واحدة في سماء امبراطوريتي العظيمة ، او اعلم ان اليمامات تضع بيوضها في اي مكان على وجه الارض !!

في اجتماع الخميس ، وبعد ان امضى الامبراطور « يان ـ تسون » محمولا على محفتـه في اتجـاه « مجلس العـدل الامبراطـوري » ، راح يخطب في رجالات حكمه :

ـ أود ان اعلن امامكم تنصلي من سابق محبتي للحم اليمام ! في الواقع ، كان لحما مدنسا ، بعدما ثبت ان اليمام خائن وعميل لاعدائي ! ان اليمائم تضع بيوضها ، خلسة ، في شبابيك البيوت ، فاذا هي قنابل !! افي ايدي الناس قنابل ؟! قبل قليل ، اصدرت اوامري بمراقبة شبابيك الامبراطورية ، ليل نهار ، وابوابها ، وجميع مداخلها ، فتحاتها . امرت بتفتيش البيوت ، بمطاردة اليمام في كل سماء . فكلما شوهدت يمامة ، منذ اليوم ، امطرها جنودي ، ببنادقهم الرشاشة ، سبع رصاصات قاتلات ؛ ومن اجل تنظيم هذه الامور ، فلتتداولوا ، الآن ، في احـداث هيئـة رسمية تسمونهـا « وزارة الشؤون اليماميـة » !

صفق المداهنون لهذا الكلام طويلا !

ومن يومئذ ، اخذ رجال الامبراطور يداهمون البيوت ، في وضح النهار وفي المساء ، وسويعات الفجر ، بحثا عن القنابل المحرمة . والمواطنون يحرصون على اخفائها ... ولكن بالضرب والتعذيب : كان يضطر ضعاف الاجسام الى الاقرار بالمخابىء التي حفروا وطمروها فيها .

واعجب ماكان يقع : ان هذه القنابل ، ما ان تستخرج من مخابئها ، وتلمسها ايدي رجال الامبراطور ، حتى ، تعود ... بيض يمام !!!

٢٠

عرف اليمام ، في « غابة الصنوبر العظيمة » ، بما حل بشعب الامبراطورية من القمع والتنكيل ... فما زاده ذلك الا حرصا على الاكثار من الزيارات الليلية ، ووضع المزيد من البيض : في الشبابيك ، وعلى الابواب ، وامام البيوت وفوق سطوح المنازل !

« البدران » ، يعملان على نحو منقطع النظير . فبعد فاتحة العمل في الضيعة ، اخذا يحجان الى المدن الاخرى والى العاصمة ولكن اضافة هامة حققاها في نضالهما العظيم : لقد قاما بزيارات لغابات الصنوبر الاخرى ،واطلعا اليمام فيها على كل ما يحل بشعب الامبراطورية من عذاب ، وبينا ما يمكن لشعب اليمام ــ الذي هجره « يان ــ تسون » من دياره ــ ان يفعل في هـذا المجال ، وبشرا اليمام بأن أيام الامبراطور باتت معدودة ... فهب يمام الغابات ، كل الغابات مناصرا : يزور الناس تحت جنح الظلام ، قدما لهم اغلى الهدايا في احلك الظروف !

كان اليمام ، غاديا وعائدا ، يمطر بالرصاص ... فتتساقط اجساد منه الى الارض ، مثقبة وعارية ، واما الريش فتذروه الرياح !

وبالرغم من هذا التقتيل كله ، كانت القنابل اليمامية تتكاثر باطراد . فالامبراطور جند وسائل الاعلام لحرب اليمام . كانت حربا حقيقية ،ضروسا، يقع خلالها ان يصحوا الامبراطور من نومه ، فيمنتصف الليل ، صارخا :

ــ يمامة ! يمامة هناك ! امطروها رصاصات ، سبعين ... اصرعوها في الحـال !!!

ثم يعود الى نومه .

بدر الزمان ، في اثارته المشاعر وتجييشه النفوس في كل مكان . يغمغم بينه وبين نفسه ، متخوفا : « حسن ! الفرصة امست مواتية لكم ، ايهـا

الناس ! توافر في ايديكم السلاح ، وانتم مجمعون على كراهية الامبراطور ، فماذا تنتظرون ؟ ! » ، صارفا على اسنانه من غيظ .

في الغابات ، على أفنان الشجر ، اصبحوا ألفوا ان يتقبل اليمام ، بعضه من بعض ، التعازي في مقتل اب او أم ، زوج او زوجة ، ابن أو بنت ... ويكون بين المعزين ، دائما ، طيور اخرى ، ووحوش !!

ما وقع للبدرين ، انهما ، لدى مغادرتهما العاصمة فجر يوم ، وبينما هما يشرعان في التحليق عاليا جنبا الى جنب ، امطرهما جند الامبراطور بوابل من رصاص !

لم يصب بدر الزمان . ولكنه ، المسكين ، شاهد بأم عينه « بدوره » الحبيبة ، المناضلة ، تتخلف عنه ، ثم تهوي من عل : الصدر الجميل ، المبطن بالزغب الابيض ، تثقب في لمح البصر ، انثوى الجسد وهو في الجو ... والريش تناثر ، وحملته الرياح في كل مكان !

٢١

وقف بدر الزمان في شرفة بيته ، يستقبل المعزين .

جاء اليمام ، وطيور الغابة ووحوشها . واقبل ، ايضا ، يمام من الغابات الاخرى . حاز بدر الزمان ، بنضاله ، زعامة شعبية بين يمام الغابات كلها ، مثلما كان قد حاز نظيرا لها بين سكان الامبراطورية . وليس يهمه من الزعامة الا سقوط « يان ــ تسون » الظالم ، ليحل محله حاكم يمثل الشعب ، فيتمتع الناس جميعا ، في ظل قيادته الحكيمة ، بالحرية والكرامة ، ويعود لليمام الوديع الامان والعيش قريبا من الجدران .

تمنى بدر الزمان لو ان وابل الرصاص كان اصابه هو بدلا من بدور ، او لو انهما سقطا شهيدين معا . وهل ثمة اروع من الشهادة في سبيل فكرة مثالية ! اما وانه ظل على قيد الحياة فليتابع مسيرة النضال .

ولكن أوجاعا ما . ألمت به ، بعد انصراف المعزين كانت اوجاعا . في الاحشاء شديدة ، اضطر معها ان يلازم عشه وحيدا .

في اليوم التالي ، تحامل بدر الزمان على نفسه ، وخرج الى الشرفة ، ليرصد طلوع القمر البدر ... واخذ يناجي :

ـ آه ، يا حبيبتي ! لم يمهلنا القدر ان نحيا معا الا شهرا ناقصا ، سبعة وعشرين يوما ، كانت فيها راية الحب ترفرف على باب عشنا وتخفق في داخل القلـب .

ظهرت اخيته بشيرة امامه يمامة ، كرة اخرى :

ــ عمت مساء ، يا طيب .

ــ عمت مساء ، يا اخيـه .

ــ حزينا اراك .

ــ فقدت بدوريا بشيرة ، بدور التي كان زواجي منها على يديك انت ، يا اخيتي الحبيبة . آه ، ما كان اطيبها ! سقطت شهيدة في سماء العاصمة ، امام عيني هاتين ، وهي تؤدي لشعبي عونا ، سفدسا . اني احس ، الآن وجعا في احشائي لا يحتمل . انت تأتينني دائما في اللحظات الحاسمة ، يا اختاه . انظري الى هذا الانتفاخ في بطني !

عاينته بشيرة بطنا لظهر . نظرت في عينيه ومنقاره . جست نبضه .. واخيرا تبسمت :

مبروك يا بدر الزمان !

رغم احزانه واوجاعه ، حمل نفسه على الابتسام :

ــ لعلك تودين ان تقولي اني ... « حامل » !!

ــ هذا تماما ما اردت قوله ، يا طيب ! الم تسمع بـ « بيضة الديك » ؟

ــ بلى . سمعت بهذه الخرافة ، حين كنت بشرا صغير السن .

ــ ان بيضة تتكون في احشائك ، يا طيب ، انت من كنت بشرا . فتحولت الى طير يمام . وانها لبيضة من نوع غريب ، كما تحسستها بيدي ، لم تعرف اليمام لها مثيلا !

ــ اهي محززة ؟

ــ وكبـيرة !

ــ في حجم بيضة دجاج ، طاووس ، نعامة ، يا اخيتي ؟

ــ انها ... اشبه بصاروخ !

ــ صاروخ !! صاروخ !! هل سمعتك تلفظين كلمة : « صاروخ » ، يا اخيتـي ؟!

ـ في بطنك يتكون صاروخ ، يا بدر الزمان !!

ـ ينفجر ، يقتل ، يبيد ؟!

ـ اجل . اذا احكمت التسديد !

ـ ومتى تكون « الولادة » او « الانطلاق » ، يا اخيتي ؟

ـ غـــدا .

ـ غدا ! غدا ! هل لك ان تحددي لي « ساعة الصفر » ؟

ـ ستكون في الضحى ، الساعة العاشرة ، او بعد ذلك بدقائق .

غمغم بدر الزمان بينه وبين نفسه : في مثل هذه الساعة ، من يوم غد الخميس ، يكون موكب الامبراطور في طريقه الى مجلس العدل الامبراطوري . كم بشرتني اخيتي بان نهاية يان ـ تسون الظالم ستكون على يدي ، وانا اشك في ما تقول !

٢٢

ـ انطلق الموكب من القصر .

في المقدمة ، سيارات مكدسة بالجنود . وبعدها قارعو الطبول ونافخو الزمور ثم العربات التي تجرها الخيول الجسيمة .

ويخرج الامبراطور العظيم ، متربعا فوق محفته ، الذهبية ، التي يحملها اربعة رجـال اشــداء .

لم يعد يان ـ تسون ذلك السمين المترهل . امسى نصفه . هل اضنته حرب اليمام الصغيرة ؟ الناس ، المحتجزون على جوانب الطرقات ، يصفقون للامبراطور العابر في فتور . وهو لا يلوح لهم بيده . كان مشدود البصر الى السماء ، وكانه يبحث في ارجائها عن ضالة . هل بقي في عينيه الكليلتين نور ؟

وبدر الزمان ، الذي فارق غابته في الصباح ، كان يتابع سفره . يحس ، وهو في طيرانه السريع ان البيضة ، ان الصاروخ ، يوشك ان ... ينطلـق .

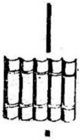
في فضاء العاصمة ، المقفر من جميع انواع الطيور . لاحت عن بعد ، يمامة مقبلة .من عجب ، ان احدا لم يلمحها ، عدا الامبراطور ... الذي اطلق صرخة عالية جدا ، وهو يشير نحوها بكلتا يديه .

ـ يمامة ! يمامة عابرة ، هناك ! امطروها بسبع رصاصات ، سبعين ، سبعمئة .. .اصرعوها حالا .

بدر الزمان ، القادم من بعيد ، كان يعرف كم هي صعبة مهمته ، ودقيقة و ... انتحارية . وفي أسرع من لمح البصر ، استدار ، متخذا الوضع المحكم مسددا الى حيث بان ـ تسون العظيم .

ولحظة انطلق الصاروخ في اتجاه العرش المحمول ، وانفجر ، محدثا دويا هائلا ، وممزقا الامبراطور ، وكثيرا من افراد حاشيته وفي مقدمتهم المطبلون والمزمرون ... في هذه اللحظة عينها ، كانت سبع رصاصات ، سبعون ، قد استقرت في صدر طير اليمام ... وسبعمئة رصاصة ، سبعة آلاف ، قد ارتشقت حوله .

الجسد الصغير ، تثقب ، تطاير مزقا ... انتثرت المزق احترقت كلها واحترق الريش كله ، حتى لم تبق ريشة واحدة تذروها الرياح .



آفـاق المعـرفـة

آفاق المعرفة

الحرّيّة لماذا وكيف ؟

قراءة في كتاب تعليم المقهورين «باولو فيرايري» *

د. نوار محمد عطفه

كل الدموع لا تفيد ، وكل صراخات الألم ، ولا بد من العمل ، فمن يأسنا يشسنا ، ولكن كيف ؟ . كيف يعمل المقهورون وقوى الظلم الكبيرة تتربص بهم تحاصرهم ، واخطر ما يحدق فيهم تفرقهم ، وجهلهم ، .

وهذا العالم التعس ، ينظر ، متالما واجما ينتظر الرجال القادمين وبايديهم المعاول فقد افسده الظلم .. افسده القاهرون ، قتلوا انسانية البشر وحولوهم الى اشياء تلهث وراء اشياء ..

هذا العالم .. متعطش للحرية .. ينتظرها مع الرجال القادمين بالثورة .. ولكن السؤال الملح هو ؟

كيف يتعلم الرجال ليتجمعوا ليعملوا ...؟

(*) باولو فيرايري : معلم برازيلي ، عمت افكاره واعماله قارة امريكا اللاتينية باسرها والتي يشتعل فيها النضال من اجل التقدم الوطني . كان اهتمامه منصبا على مجال التعليم ، ووصل الى ابداع شيء جديد في فلسفة التعليم ، وهو التعليم الحواري .

باولو فيرايري في دراسته « تعليم المقهورين » يضع الإصبع على الجرح .. يقول ان الرجال المقهورين هم ضحايا « ثقافة الصمت » و « انهم مستغرقون في وضع يستحيل معه الوعي والاستجابة بصورة فعالة » وان « مجتمعات القهر قد نظمت في كل مجالاتها لتخدم « ثقافة الصمت » .

ولكن لا .. يرفعها عالياً ، ويرفض باولو فيرايري الانصياع لما يريده الطغاة ويقرر ان هناك منفذاً وان هناك طريقاً لمستقبل جديد .

في المقدمة يحدد الناس الذين يوجه الحديث اليهم ليستفيدوا منه انه يستثني المذهبيين المتعصبين الذين سيرفضون ما يكتبه ، « ذلك ان المذهبية التي يغذيها التعصب عقبة تحول بين الانسان والفهم » ص ٢١ والحوار مع المذهبي غير مجد دائما فهو « غير قادر على رؤية ديناميكية الواقع وهو يسيء فهمه » ص ٢١ والمذهبي عقبة في طريق التطور لانه رجعي ومهما رفع من شعارات .. ولكن من هو المذهبي ؟.. ولماذا وكيف هو رجعي ؟..

المذهبي هو كلا اليميني واليساري لانه مثلا « اذا كان اليميني يرى الحاضر موصولا بالماضي كقدر لا يمكن رده » فان « اليساري يرى في المستقبل واقعا حددت هويته من قبل ولا يمكن تغييره على الاطلاق » ص ٢٢ كلاهما يلغي دور الانسان الفاعل في التغيير والذي هو ، وهو فقط قائد عملية التطور وصانع المستقبل و « كلاهما يأسر نفسه في تصور خاص للواقع لا يمكن ان يتهرب منه ليرى ان العالم انما يتغير بواسطة العمال ... وكيف يبنون المستقبل الذي لم تحدد هويته فيما قبل بل هو ينتظر الرجال كي يبدعوه » ص ٢٢ .

انهما بتجاهلهما لحقيقة ان التغيير يقوده الرجال صانعو التاريخ لا ينتظرون قوة محشورة في ظروف او معلقة في اوهام . ، انهما « اليميني واليساري » بهذا التجاهل يقفان الى جانب مجتمعات القهر واستمرارها ، رغم تأكيداتهما اللفظية المغايرة لهذه الحقيقة المرة ...

وهما في حوارهما مع الآخرين لا يستهدفان معرفة الحقيقة بل اثبات تصورهم الخاص ، وإلغاء الآخر وتفنيد آرائه « ان كلا منهما يعتقد ان ما يخالف مذهبه في تصور الحقيقة انما هو ضرب من الكذب » ص ٢٢ .

لذلك كان من غير المفيد الحوار مع المذهبيين .. اذا لاولئك الراديكاليين « والثوريين الانسانيين » يوجه الحديث ، الذين يناضلون من اجل استعادة

انسانية المقهورين وتحقيق عالم الحرية ؛ الذين يؤمنون بأن « قيمة عمل الانسان تكمن في قدرته على تغيير العالم » ، الثوري الانساني يعتبر أن واجبه هو كشف الحقيقة : حقيقة العالم الذي يعيشه وهو لا يخاف ، مقابلة الناس وحوارهم لانه « لا يعتبر نفسه مالكا للتاريخ أو محرراً للمقهورين وانما يعتبر نفسه محاربا في صفوفهم في اطار العمل التاريخي » ص ٢٣ .

والهدف من هذه الدراسة ، التأكيد على ان الثورة تجربة تعليمية وأن « جميع الثوريين الذين آمنوا بحق المقهورين في التحرير آمنوا في نفس الوقت بحقهم التعليمي في النضال » ص ٤٦ .

والتعليم يخلق الانسان ، والانسان يخلق العالم على شاكلته ، فالحرية يصنعها الاحرار .. والثورة يخلقها الثوار .. ولكن كيف يتشكل أولئك الاحرار ..

حتما إنهم ليسوا « اولئك المقهورين الذين اقلموا انفسهم مع ظروف القهر » لانه « لن يكون في مقدورهم النضال من اجل الحرية .. » ص ٣٠

هذه عقبة اولى .. اذا من تأقلم مع واقع القهر صار جزءا منه ، تقبل الاضطهاد وقبله .. ذل ووافق « من أصعب الامور التي تواجه العمل النضالي من اجل الحرية ... حقيقة ان يصبح الانسان فريسة للقهر ويدجن . وينسجم معه ، هنا يبدو واقع القهر اكثر فاعلية ، بل ويتحقق بشكل موضوعي حين نضيف اليه اعترافا بحقيقته » ص ٣٢ اذ « ليست المشكلة اننا عبيد .. المشكلة اننا صدقنا ذلك »(*) .

اذا المشكلة الاولى في المقهورين الذين قبلوا واقع القهر ...

والمشكلة الثانية تكمن لدى بعض ادعياء الثورة الذين يريـدون التغيير او يدعون له او يعملون لاجله مستخدمين نفس وسائل مجتمعات القهر التعليمية في نقل افكارهم .. انهم يمارسون شكلا من التعليم الذي يعتقدون بصلاحيته للثورة اقل ما يمكن في وصفه انه يستبدل قاهرين بآخرين . ولكن كيف .؟

يبدع باولو فيرايري بايضاح مفهوم « التعليم البنكي » حتى لا يقع

* صرخة اطلقها احد العبيد في مسلسل تلفزيوني للكاتب العربي المبدع محفوظ عبد الرحمن . المسلسل كان بعنوان ـ عنترة ـ

« الثوريون الانسانيون » في الفخ ويشاركون في استمرار مجتمعات القهروسيادة « ثقافة الصمت » .

« الاسلوب البنكي في التعليم : هو اسلوب يتم فيه ايداع المعلومات فـي رؤوس المقهورين كالبنوك الجامدة التي ينحصر دورها في الامتلاء » ، ص ٥١ .

وهذا المفهوم البنكي في التعليم منتشر في كل اشكال التعليـم السائدة المدرسية والجامعية والثورية ولا شك انه يحقق هدفا كبيرا وخطيرا يخـدم استمرارية هذا الواقع :

« ان مهمة التعليم البنكي تتركز في تقليل القدرة الابداعية عند الطلاب او الغائها تماما » ص ٥٣ ان دور المتعلمين هنا دور سلبي . يتلقون ويتعرفون على الواقع كما هو مصمم من قبل قوى كبيرة خارجهم .. وهذا يخدم اغـراض القاهرين الذين « لا يرغبون في ان يصبح العالم مكشوفا لهؤلاء او ان يصبـح موضوعا للتغيير » ، ص ٥٣ .

وليس لدى البشر في هذي الحال الا ان يتاقلموا مع عالم القهر لانهم وهم يتعرفون على العالم من حولهم بواسطة التعليم البنكي تكون قناعتهم ان العالم يتغير بدونهم وانه لا توجد اي قيمة لإرادتهم او عملهم ..

فالتعليم البنكي يمسخ الرجال الى عبيد .. والى اشياء . والعبد لايصنع الحرية .. فالحرية « ليست شيئا إضافيا يودع في عقول الرجـال » انها « ممارسة واستجابة واعية نحو العالم من اجل تغييره » ، ص ٥٨ .

ومع التعليم البنكي توضح الدراسة « ذهنية المقهورين » واسلوب تفكيرهم والذي يجب تفهمه مقدمة لتغييره .. فاسلوب تفكيرهم قدري يعزو اسباب مشكلاتهم وقهرهم الى القدر او الحظ ، « يصل الفلاحون الى قناعة مؤداها ان كل ما يلحق بهم من عناء واستبداد هو من مشيئة الله وكان الله هوسبب هذه الفوضى المنظمة » ص ٤١ ، ومع القدرية لا يعرفون كيف ينفسـون عـن الظلم المتراكم عليهم فيستخدمون آليات نفسية للدفاع عن توازن ذاتهم الهش كالتبرير . « ماذا نفعل ! انا مجرد فلاحين » ـ والتحويل ـ الذي يستخدمـه المقهور في رد فعله من الظلم فيحوله الى منزلة فيضرب اطفاله او زملاءه في العمل أو « التقمص » وفيه يتمثل المقهور حياة قاهره واسلوبه ويتبنى مقولاته ويأخذ في الاقتناع « بالتحقير الذاتي » ص ٤٢ .

ومع تفهم الطليعة لكل جوانب المشكلة يبدأ النضال بأن يساهموا بأن « يعي الرجال انهم قد خضعوا لعملية تحطيم انساني » ص ٤٧ والنضال الثوري لا يكون بالشعارات او بتخزين المعلومات الثورية في رؤوس المقهورين .. انه وبالتاكيد يكون عن طريق « التعليم ذي الصبغة الإنسانية الذي تقيم فيه القيادة الثورية نوعا من الحوار الدائم مع المقهورين . الذي يستهدف نقد الواقع من اجل اعادة تشكيله وهي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها المقهورون اعادة تشكيل واقعهم بطريقة فعالة » ص ٤٧ .

وحتى لا يظن من تعنيهم الدراسة ان الهدف هو صنع ماكينة حوار كلامية يدور الحوار فيه في غرف مغلقة يظن محركوه بأنهم يعملون للثورة ... بينما هم غارقون في بحور من كلام منمق لا يلبث ان يخنقهم ويغرقهم وينهيهم أفرادا وجماعات يأسا وملا .

ان اسلوب التعليم الحواري ليس تغييرا في تكتيك الكلام انه اسلوب حياتي جديد يعتمد منهجا جديدا يسميه منهج عرض المشكلات » .

« بظل هذا التعليم الحواري لا يوجد واحد يدرس وآخر يتعلم وانما الجميع يتبادلون المعرفة حيث يتوسطهم العالم في هذه الممارسة » ص ٥٨ .

وبهذا لن تكون المعرفة بعد ذلك حكرا على الاستاذ وحده .. بل يشترك الجميع بها .. يتعرفون على واقعهم بطرح مشكلاتهم كما يعيشونها وكما يعانون منها وان تحديد المشكلة بشكل صحيح هو المقدمة لحلها .. ومع حل مشكلات البشر يتقدم المجتمع نحو الحرية ...

ان اشتراك المقهورين في عملية الحوار مهم لانه يدخل الانسان كعامل حاسم في تطور التاريخ من خلال عمله في تغيير واقعه ...

« ان المنهج البنكي وتطبيقاته يفشل في ان يعتبر البشر مخلوقات تاريخية ذلك في الوقت الذي يعتبر فيه منهج طرح المشكلات حقيقة ان الانسان كائن تاريخي نقطة البداية في اي تحرك » .

ان التعليم الحواري يعتمد الانسان الواعي بمشكلاته الواعي لدوره في الحل وتنفيذه بالعمل .. « وهكذا فالذين يواجهون خلال عملية التعلم بسيل متصل من المشكلات الواقعية يشعرون بنوع من التحدي كما يشعرون بمسؤوليتهم في مواجهة ذلك التحدي ، ومن هنا يبداون عملية الاتصال بواقع حياتهم » ان

التعليم الحواري ينتصر لدورالانسان قائد التطور في التاريخ .. انه يضعه على تماس مع واقعه يتحداه بمشكلاته يطالبه بالاستجابة بدور رئيسي في تنفيذ الحلول ليطرد التطور باتجاه الحرية .

والقاهرون لا يمكنهم الاستفادة من هكذا منهج لتكريس القهر « ذلك ان نظام القهر لا يسمح للمتعلم بالتساؤل » ص ٦١ .

وتعرض الدراسة مجموعة قواعد فكرية وعملية تشكل برنامجا للتعليم الحواري :

١ ــ الحوار هو الكلمة .. الكلمة ذات بعدي الرؤية والفعل ص ٦٧ وبالرؤية الصادقة والفعل الجاد تتميز الكلمة بالقدرة على تغيير العالم ص ٦٧ .

٢ ــ ان العيش انسانيا يعني معرفة العالم والعمل على تغييره ص ٦٨ .

٣ ــ الكلمة التي تقود الى العمل الذي يغير العالم ليست حكرا على احد وانما هي ملك للناس جميعا ذلك لانه يستحيل على شخص الاحاطة بالواقع ومشكلاته ص ٦٨ .

٤ ــ مهمة الحوار ان يقوم الرجال بـ تسمية العالم حولهم ومعرفته من اجل تغييره .

وهناك شروط لا بد من تحقيقها لانجاح الحوار وهي :

١ ــ الحب هو اساس الحوار ، الحب يعترف بالآخرين وحقهم في الحياة وهو حق يتمثل في تحقيق الحرية لهم .

٢ ــ التواضع . فجو الغرور يعطل الحوار .

٣ ــ الثقة بالانسان والثقة بالرجال والايمان بدورهم في عملية التغيير .

٤ ــ الامل بتجاوز الصعاب والذي هو من حق المناضلين لان اليائسين التجاوا الى آليات الصمت وانكار العالم .

ان مضمون الحوار محدد بتحقيق انسانية الانسان ومن اجل ذلك لا بد من تجاوز العقبات و « لابد من القضاء على الظروف التي حولت الناس الى مجرد اشياء » ص٧٧ . ومن هذه الظروف الاستغلال والسيطرة والتخلف التي تواجه كل مجتمعات العالم الثالث « ولا ينفي ذلك انه خلال كل مرحلة تاريخية فان كل مجتمع من المجتمعات الى جانب مشاركته بقية المجتمعات الاخرى ــ

سواء على المستوى العالمي او القاري ــ بعض المظاهر فان له مشكلاته الخاصة التي يتميز بها » ص ٧٧ .

وعلى نفس الاساس نجد في نفس المجتمع الواحد وفي داخله بعض التباينات ــ كالمجتمع الثوري مثلا ــ فالتصور المحرك للواقع لا يمكن ان يوجد بمعزل عن الواقع وهكذا فان البحث عن الرؤية الشاملة هو في حقيقته بحث من اجل التبصر بالواقع الذي تكون رؤيته بداية عملية تعليمية او بداية الثورة الثقافية من أجل تحرير الانسان . .

ومن الامور المهمة والخطيرة « ان الطبيعة الحوارية للثورة والتي تجعل منها عملا ثقافيا لابد وان تتمثل في جميع الظروف ، فهذه الطبيعة الحوارية هي التي تصحح مسار الثورة وتحول بينها وبين أن تصبح مجرد مؤسسات وتنظيمات بيروقراطية خاوية المضمون » ص .

والحوار مع الجماهير قضية حيوية للثورة الحقيقية وهذا في الواقع « ما يميز الثورة عن الانقلاب » ص ٩٥ فالانقلابيون يستخدمون كل أساليب الخداع والتضليل الاعلامي لاضفاء صفة الشعبية واكتساب الشرعية في مخيلتهم ومخيلة مؤيديهم . .

« اما الثوريون فلابد لهم من ان يقيموا نوعا من الحوار الشجاع مع الناس، ذلك ان شرعية وجودهم انما يستمدونها من ذلك الحوار » ص ٩٥ .

وبعد عرض نظرية التعليم الحواري وحدودها تنتقل الدراسة لتحليل نظريات العمل اللاحواري وهو اسلوب العمل الذي يتبعه القاهرون ويتميز بعـدة ميزات مثل :

١ ــ الغزو : ويحاول فيه الفرد اقتحام عالم الاخرين وقناعتهم « لايستهدف في علاقاته مع الاخرين سوى هزيمتهم . . . وتحويلهم بالتالي الى اشياء » ص١٠٣

٢ ــ تحطيم قدرة الاخرين على تمييز الواقع ويتبع في ذلك مختلف اشكال التضليل الاعلامي بأن « مجتمع القهر هو مجتمع الحرية وأن مجتمعهم يحترم الحقوق الانسانية » ص ١٠٤ .

٣ ــ فرق تسد وبذلك يضعف المقهورين ويعزلهم عن بعضهم ويؤدي الى تعميق الهوة التي تفصل بين تفكيرهم المشترك » ص ١٠٥ .

ما سبق من اهداف وغيرها ينجزها القاهر بوسائل شتى ومن اهمها القهر الثقافي وبه يحاول ان يؤثر في اسلوب تفكير المقهورين ويدفع تفكيرهم ويركـزه على قضايا جزئية وجانبية لـ « يحجب بها الناس عن رؤية الواقع في صورتـه الشاملة » ص ١٠٥ كما يحاول الاخلال بعملية التفكير المنطقية بأن تطرح وتعزز قواعد تفكير خاطئة مثل ان « الجزء هو الذي يطور الكل وليس الكل هو الذي يتطور وتتطور الاجزاء من خلاله » ص ١٠٦ .

وبالغزو الثقافي يحاول القاهرين « فرض تصورهم الخاص للعالم على اولئك المخضعين من اجل تعطيل قدراتهم على الابداع والتعبير » ص ١١٣ .

ان نظرية الغزو الثقافي تتلخص بـ « أن ينظر المغزوون الى واقعهم من خلال نظرة الغزاة لهم وبقدر ما يقلدون هؤلاء الغزاة بقدر ما يتأمن وضع الغزاة ... ويتمثل المغزوون خطى الغزاة في طرائق مشيتهم ولبسهم وسلوكهم الاجتماعي وبذلك يتحقق الازدواج في شخصياتهم ، الامر الذي يسمح ويفسر تعايش المقهورين مع قاهريهم » ص ١١٤ .

والامر الذي بات بديهيا وهو على درجة كبيرة من الخطورة هو ان القاهرين في العالم الثالث لا يعملون لحسابهم بل « يقومون بدور الوسطاء في انجاح مهمة المجتمعات الغازية ... في تسهيل عملية الاستغلال والامتلاك والغزو الثقافي والاقتصادي للمجتمع التابع » ص ١٢٠ .

والنتيجة الخطيرة المترتبة على ذلك هي التبعية بكل اشكالها الثقافية والسياسية والاقتصادية واي تطور او تقدم يحرز في المجتمعات المقهورة لا يمكن إن حدث الا ان يكون في خدمة مجتمع الغزاة وتقدمهم .

واخيرا تقدم الدراسة تحليل النظرية الثورية للحوار الثقافي والتي تقوم على التعاون وانشاء الروح الجماعية من اجل تطوير العالم فـ « الجماعة هي التي تستطيع ان تستكشف حقيقة الواقع وحقيقة نفسها » ص ١٢٤ .

والتعاون والروح الجماعية تؤدي الى الوحدة في مواجهة فرق تسد « ان التفرقة هي عمل من صميم إيديولوجية القهر واما الوحدة فهي عمل ثقافي يتأتى للمقهورين بموجبه ان يعرفوا كيف ؟ ولماذا ؟. وهذا ما يجعل العمل من اجل الجماهير ليس مجرد شعار بل هو عمل من اجل انبثاق الشخصية الكاملة للفرد والمجموع » ص ١٢٩ .

وفي مواجهة الغزو الثقافي تقدم نظرية التعليم الحواري نتيجة عملها والتأليف الثقافي ... وهذا يحل مشكلة التعددية الثقافية والاختلاف في وجهات النظر وهو لا يرفض الاختلاف « لكنه يرفض الغزو الثقافي الذي تمارسه فئة على فئة » ص ١٣٧ . بل هو مبني على هذا الاختلاف و « يؤيد الدعم الذي تقدمه فئة الى فئة » ص ١٣٧ .

اخيرا « ان العمل الثقافي الثوري هو عمل منظم يستهدف البيئة الاجتماعية بفرض تطويرها » ص ١٣٥ .

« وكأي عمل منظم وهادف فان له نظريته التي تحدد أهدافه وتوضح الوسائل التي يتبعها لتحقيق التحرير » ص ١٣٥ .

اذا بالتعليم الحواري يتغير الرجال ويتحررون .. لتغيير العالم وتحريره .

د. نوار محمد عطفة
دمشق
في ١٧ / ١٢ / ١٩٨٦



آفاق المعرفة

نحن والاستشراق

«تحولات ايجابية»

د. عبدالنبي اصطيف

ما كان للعرب ، وهم الامة العريقة ، الناهضة ، القلقلة ، المهددة ، ان يقيموا بينهم والاستشراق ((او تلك المعرفة التي ينتجها الآخر The Other عنهم ، والتي تشكل ، تقليدا ثقافيا يتمتع بحد أدنى من التماسك والانسجام الداخلي والعراقة النسبية) الا صلة اشكالية في جميع وجوهها .

فالاستشراق بالنسبة لنا تقليد ثقافي اجنبي ينتجه الآخر عنا لحاجات مجتمعه المختلفة في مواجهته لنا ، ويوظفه لصالحه في هذه المواجهة يوسع من نفوذه بيننا ، ويعزز بسط سيادته علينا وعلى مقدراتنا . انه معرفة مغربة لنا نعاني من عقابيلها اكثر مما يفيد منها في تطوير وجوه حياتنا .

فنحن موضوع الاستشراق ولا نكاد نميز أنفسنا فيه ؛ ونحن في المركز منه ومع ذلك لا نملك من امره اي شيء ؛ لا يصدر عنا ولا يتوجه الينا . وحسبه انه انتج بلغات غير لغتنا ، وفي اشكال من الانشاءات واجناس من الكتابة لم نألفها حتى يزيد من قلقلتنا وحيرتنا واضطرابنا إزاءه ، ويعمق احساسنا بالضعف ، فالمعرفة قوة ، ونحن لا نملكها فكيف لنا ان نشعر بالقوة .

إن كل شيء في هـذا الاستشراق ـ المعرفة يكاد يكون اشكاليا بالنسبة لنا . وليس ثمة من سبيل الى تجاوز هذه الاشكالية دون مواجهتها من خلال تفهم اكبر واعمق لطبيعة هذه المعرفة وما تخضع له من تحولات .

* * *

وربما كان من اهم ما يلفت نظر الدارس للاستشراق ، او لهذه المعرفة التي ينتجها الآخر عنا هو ان هذه العلاقة الاشكالية التي تربط بين « نحن » و « الاستشراق » والتي تقدم الحديث عنها(*) كانت ، وربما ستظل كذلك الى حين ، وراء حملة النقد التي تعرض لها هذا التقليد الثقافي من جانب مجموعة من الباحثين العرب داخل الوطن العربي ، وخارجه خلال العقود الثلاثة الاخيرة من امثال الطيباوي(١) ، وأنور عبد الملك(٢) ، وادوارد سعيد(٣)، وعزيز العظمة(٤) ، ومحمد اركون(٥) ، وهشام جعيط(٦) ، ورنا قباني(٧) ، وغيرهم(٨) ومن جانب مجموعة اخرى من الباحثين الاجانب من امثال مكسيم رودنسون(٩) ، وبريان تيرنر(١٠) وغيرهما من مستشرقي الجيل الجديد الذي لم يعد يؤمن بعصمة هذا التقليد الثقافي ، وبات يدرك انه مجرد تراكمات لنصوص دنيوية انجبها العالم الذي انتجت فيه

ويمكن للمرء ان يتوقف طويلا عند هذه الحملة عربيها ، وغربيها ، ويعرض بشيء من التفصيل لفصولها المختلفة ، ولربما كان في ذلك مجلبة للراحة لأي داخلي يشعر بأنه لا بد من مقاضاة كل من مس تقاليده وثقافته ولغته وتاريخه وعقائده وأعرافه ومجتمعه . ولكن جدوى ذلك فيما يبدو لي ستكون محدودة، بل إن استعادة ما اجترحه الآخر في مختلف شؤوننا ، عندما أنتج معرفته عنا ، لن تعود علينا الا بمرارة اشد ، وخيبة اشمل . وإحباط أعمق . وهي جهد ضائع غير منتج وغير مفيد ، لا للتقليد نفسه ، ولا لموضوعه الذي هو نحن .

(*) أنظر القسم الاول من هـذه الدراسة في المعرفة (دمشق) .

ويمكن له من ناحية اخرى ان يكون اكثر عملية في نظرته لهذا التقليد الثقافي ، ويبحث فيه عن الايجابي الذي يدفع بالمعرفة المتصلة بنا نحو الافضل والاكثر واقعية وموضوعية . ومسوغات هذه النظرة العملية تكمن في دنيوية هذا التقليد وفي صلته الوثيقة بالعالم الذي انجبه — هذا العالم الذي يخضع لعملية تغير وتحول مستمرة تركت بدورها بصماتها على المعرفة التي ندعوها بالاستشراق . والحقيقة ان هذا التقليد ، كما يستطيع ان يلاحظ متتبعه في العقود الثلاثة الاخيرة ، قد ابدى جملة واضحة من التحولات الايجابية ، تبينها حتى اشد نقاده تأثيرا وعمقا ، واشار اليها بمقدار كبير من الترحيب الذي يمكن ان يتوقع من ثائر واضح الهدف على مؤسسة اخفقت — فيما بدا له — في الاستجابة لموضوعها الاستجابة الانسانية اللائقة .

يكتب ادوارد سعيد في خاتمة كتابه :

« فثمة اليوم عدد كبير من الباحثين الافراد العاملين في حقول كالتاريخ الاسلامي ، والدين ، والحضارة ، والتركيب الاجتماعي وعلم الانسان . (في العالم الاسلامي) الذين يمتلك عملهم قيمة عميقة كعمل بحثي »(١١) .

قيمة تعود اساسا امـا للوعي المنهجي النامي لديهم وللنظرة الناقدة المتفحصة لما يقومون به كما هـو الشأن لدى باحثين من امثال جاك بيرك ، ومكسيم رودنسون ، وروجر اون ، وغيرهم . الذين يرى المرء في اعمالهم حساسية مباشرة للمادة الماثلة امامهم وامتحانا ذاتيا مستمرا لمناهجهم وممارستهم ، ومحاولة دائبة لإبقاء عملهم قادرا على الاستجابة للمادة لا لتصور مذهبي مسبق .

وإما لاستبدالهم بولائهم لحقـل « الاستشراق » المحدد شرائعيا ، او إمبرائيا ، او جغرافيا ، ولاء لفرع من فروع المعرفة محدد فكريا ، كما هـو الشأن لدى كليفورد غيرتس ، الباحث الانتروبولوجي المعروف الذي نجد ان اهتمامه بالاسلام من « المحسوسية والتفردية بحيث انه يستقي روح الحياة من المجتمعات والمشكلات المحددة التي يدرسها لا من طقوس الاستشراق ، وتصوراته المسبقة ومذاهبه »(١١) .

وهذه التحولات الايجابية قمينة بان تعزز نظرتنا العملية لهذا التقليد . او مواجهتنا الايجابية له ، كما سميتها في غير هذا الموضع ، وهي لذلك جديرة بوقفة سريعة .

٢ ـ أ :

اول هذه التحولات الايجابية هو انفتاح الاستشراق على التطورات الاخيرة في مختلف ميادين المعرفة وخاصة في ميدان العلوم الانسانية . وهو أمر يلاحظه المرء بشكل بين لدى العديد من المستشرقين الجدد الذين يستلهمون في ابحاثهم التقاليد المعرفية الحديثة خارج حقل الاستشراق . إن المستشرق الجديد لم يعد ينظر فيما يقوم به من دراسات الى النماذج التي يقدمها المستشرقون القدامى ، بل غدا يبحث عن نماذج اخرى في الحقول المعرفية الاخرى - في اللغويات ، والتاريخ ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس وعلم الاقتصاد ، والانتروبولوجيا ، وفي النقد الحديث ، والادب المقارن . ان كتابات فريددونر، وروجر الن ، وادموند بيرك الثالث ، روجر اوين اوسل ، ولاكوست ، اندريه ميكيل ، ومايكل زفيتلر ، هيلاري كيلبا تربك ، وسواهم لا تستمد أطرها النظرية من تقليد الاستشراق بقدر ما تستمدها من الحقول المعرفية التي تنتمي اليها ابحاثها المتخصصة الرفيعة المستوى ، والتي يمكن ان تقارن بأية بحوث اخرى تنتج في هذه الحقول عن الشعوب والامم الاخرى ، لانها كتابات تاريخية، او لغوية ، او اجتماعية ، او اقتصادية ، او انتروبولوجية اتفق أن موضوعها الوطن العربي او شأن من شؤونه . والحقيقة أن هذا التحول قد اشار اليه ناقد الاستشراق الأكبر إدوارد سعيد عندما أكد أن طريق الخلاص المتاح أمام الاستشراق هو الانفتاح على هذه التطورات الهامة في العلوم الانسانية . يقول سعيد :

« انني لأومن ، على الصعيد الايجابي ـ بأن قدراً كافيا من العمل يؤدى اليوم في العلوم الانسانية لتزويد الباحث المعاصر بنظرات نافذة ومناهج ، وافكار ، بمستورها ان تتخلص من النماذج المنمطة العرقية ، والعقائدية ، والامبريالية ، من النوع الذي قدمه الاستشراق اثناء ارتقائه التاريخي »(١٢).

٢ ـ ب :

وثاني هذه التحولات هو انفتاح الاستشراق على موضوعه ، على الوطن العربي ، فمستشرق اليوم لم يعد يكتفي بالتعرف على موضوعه من خلال المادة المكتوبة التي ورثها عن سابقيه او معاصريه من المستشرقين الآخرين . فهو بداية يتقن على نحو افضل لغة موضوعه ، وكثيراً مايكون قد اكتسبها

عن طريق الاحتكاك المباشر بموضوعه من خلال اقامته لفترة لا بأس بها من الزمن في الوطن العربي وبين أهله اثناء فترة تحصيله او قبلها او بعدها ، وهو بعد ذلك على اتصال دائم بموضوعه من خلال الزيارات الدورية التي يقوم بها لميدان اهتمامه ، وهو بعد هذا وذاك يتصل به من خلال وسائل الاعلام المتطورة التي تيسر له متابعة يومية لما يجري في الوطن العربي اضافة الى ان معظم المؤسسات البحثية الحديثة مزودة بمعظم ماينتج في الوطن العربي من مواد ومعلومات وبحوث ومنشورات دورية وكتب وغير ذلك ، ناهيك عن نظام الاعارة القطرية والدولية بين المكتبات ومراكز البحوث والمعاهد والجامعات مما يوسع مصدر المعلومات والمادة الاولية التي يصدر عنه في بحوثه ودراساته . واذا كانت دراسة الانسان في المجتمع تقوم على التاريخ والتجربة الانسانية ، وعلى توحيد الباحث لهويته بالتجربة الانسانية ، وعلى تمكنه من رؤيتها بوصفها تجربة انسانية(١٢) ، فان هذا الانفتاح الملحوظ من جانب المستشرق على موضوعه وعلى تجربته الانسانية الخاصة به تطور ايجابي هام لا بد وان يترك آثاراً محمودة في اتجاه المعرفي المتصل بوطننا العربي وشؤونه المختلفة .

٢ – ج :

والحقيقة ان الاستشراق في انفتاحه على مستجدات المعرفة في العلوم الانسانية من جانب ، وعلى موضوعه ، الوطن العربي ، من جانب آخر ، إنما كان يستجيب للنقد الداخلي والخارجي الذي مورس في هذا الحقل في العقود الثلاثة الاخيرة ، واستجابته هذه هي ثالث التحولات التي خضع لها مؤخرا . فعلى الرغم من ان نقد العرب للاستشراق بالعربية قديم وعنيف تغلب عليه الصبغة الدينية والسياسية ويعود الى ايام جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ويمتد حتى يومنا هذا (مرورا برشيد رضا واحمد شفيق باشا ومحمد فريد وجدي ، ومحب الدين الخطيب ، وعمر فروخ والخالدي ومحمد البهي ومالك بن نبي ومحمد محمد حسين وأنور الجندي ، ومحمد الغزالي ، ومحمد قطب ، ومحمد زقزوق ، ومحمد شامية ، وغيرهم)(١٣) ، الا ان المستشرقين لم يولوه اي اهتمام تقريبا ، وكانوا غالبا ماينظرون اليه باستخفاف ، وعلى انه مجرد شكل من ردة فعل العاجز . ولكن هذا النقد عندما ظهر بالفرنسية والانكليزية وغيرهما بقلم باحثين عرب لهم اسهاماتهم المعترف بها ، من امثال انور عبد الملك وعبد اللطيف الطيباوي ، وادوارد سعيد وعبر سبل مقر بها في المؤسسة الثقافية الغربية ، وعندما جاء من معسكر الاستشراق نفسه على يد

العديد من المستشرقين المتنورين من امثال مكسيم رودنسون او من معسكر العلوم الانسانية على يد بريان تيرنر وغيره . ثم بعد بامكان الاستشراق ان يعيره اذنا صماء . ولم يكن امامه من خيار الا محاولة الاستجابة على نحو من الانحاء بالسعي لتدارك ماكان هذا النقد يشير اليه من ثغرات وعيوب ونواقص وغير ذلك في التقليد الاستشراقي . وكذلك فان الموجة العارمة التي ولدها كتاب الاستشراق لادوارد سعيد من النقد والنقد الذاتي ما كان لها الا ان تؤتي اكلها بدفع المستشرقين وخاصة المتفتحين منهم على الثقافة الانسانية المعاصرة الى اعادة النظر في كل شيء يقومون به ، وهذا ماخلق مناخا صحيا لاعادة تفحص الكثير مما رسخه التقليد القديم من قناعات ونظريات واحكام واعراف ، وربما قلبها عقبا على رأس ، وحفز مؤسسة الاستشراق اومؤسساته للتفكير في طرق اخرى للانتماء بحق الى العالم المعاصر توجهاومداخل ومنهج وحساسية ، وهو امر ماكان له ان يحدث لولا تنامي عملية النقد هذه وبلوغها الذروة في كتاب ادوارد سعيد الذي فتح في نقده لهذا التقليد الثقافي الذي بدا حتى عهد قريب وطيد الاركان ، عيون اصحابه على حقيقة طالما تنكروا لها ، وهي انهم – بوصفهم بشرا – ابعد ما يكونون عن العصمة ، وان ثمة عالما متطورا من حولهم ينبغي ان يتفتحوا عليه ، وان عليهم ان ينتبهوا بتقليدهم الذي ازرت به الابعاد الايديولوجية والسياسية منهجيا ومعرفيا ، الى العالم الذين يعيشون فيه . يقول الدكتور رضوان السيد في معرض الاجابة عن سؤال يتصل بالحديد في عالم الاستشراق وجه اليه بعد قضائه سنة درس فيها في عدة جامعات اوربية (وهو خريج إحداها) :

« يمكن القول رغم كل المظاهر إن النقد الذي وجه للاستشراق في العقدين الاخيرين ، وبخاصة كتاب ادوراد سعيد (الاستشراق) الصادر عام ١٩٧٨ ، قد غير من وجهه . صحيح انه مازال تصدر بالمانيا وبريطانيا بالذات دراسات استشراقية تعتمد المنهج التاريخاني التقليدي ، ولكن الغالب على الدراسات الاستشراقية في الثمانينات ، وبأمريكا وفرنسا بالذات ، البحوث ذات الطابع النقدي للتاريخانية ورؤاها ، ولاشكاليات علائق الغرب بالمشرق هذا هو التطور الاول ، وهذه هي أصوله .

اما التطور الثاني ، وهو منهجي ، فهو يتصل بغلبة القراءة الابستمولوجية على الدراسات الاستشراقية ، مثلما غلبت على سائر حقول العلوم الانسانية ... وعندما اقول ان تغيرات جذرية طرات ، لا اعني ان قطيعة كاملة تمت

مع تقاليد ذلك العلم أو التخصص المعرفي . كما لا اعني ان تلك التغيرات تخضع لمنحى تقويمي واحد او ثنائي ايجابي او سلبي .

فمن حيث الموضوع ، الذي يتم ولاشك عن رؤية معينة المسائل المدروسة ، تعاد دراسة موضوعات مضغها الاستشراق التقليدي طويلا ولكن بأدوات منهجية ومعرفية جديدة . فعلى سبيل المثال ظهر اتجاه في السنوات العشر الاخيرة في الاستشراق البريطاني يعتمد اسلوب طرح موضوعات الاستشراق التقليدي كلها لنقضها واحلال رؤى جديدة بشأنها مثل أصول الاسلام ، وقدم القرآن ، ومعنى السنة ، وطبائع الاسلام ، والمسلمين ، وهي موضوعات استشراقية قديمة جدا ، ترك مستشرقو القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين ببريطانيا والمانيا فيها تراثا ضخما ... ومن حيث المنهج تبرز **مسألة الشرق الاوسط** ، او يبرز تصوره في الاستشراق الاميركي بالذات . كما تبرز الإبستمولوجيا كنهج اوحد لاعادة رؤية المسائل «(١٤) .

إن التغيير ، مهما كان تقويمنا له ، يحمل مل التخلص من البنى المعرفية السائدة التي كانت تحفزها عوامل فوق بحثية ، والبحث عن بنى معرفية بديلة ربما تكون اكثر استجابة للتغيرات التي تخضع لها مختلف العلوم الانسانية من جهة ، وللتغيرات التي يمر بها موضوع « الاستشراق » نحن « ، من جهة اخرى .

٢ ـ ذ :

وواقع الحال أن من اهم مامر به موضوع « الاستشراق في العقود الاخيرة من تحولات ايجابية انه اصبح اكثر فاعلية ونشاطا في انتاج المعرفة المتصلة به وبالوطن العربي وباللغات الاجنبية التي يستخدمها الآخر ، ومن خلال المؤسسات التي يتحرك فيها هذا الآخر . وبعبارة اخرى ان رافد الداخليين من العرب في المجرى الرئيسي للتقليد الثقافي الاستشراقي اصبح اكثر غزارة وغنى واتساعا وبات على نحو من الانحاء على تلوين جزء من الماء الذي يحتضنه هذا المجرى الرئيسي .

وعلى الرغم من أن هؤلاء الداخليين يدينون بتكوينهم الثقافي للمؤسسات التربوية والاكاديمية والثقافية التي يتحرك ضمنها الآخر ، وينتجون ماينتجون من معرفة عن وطنهم ضمن هذه البنى الثقافية الخارجية ويخضعون لما يمكن

أن يخضع له اي فرد يعمل ضمنها من تأثير مصدره أعرافها وقيمها وانظمتها وقيودها ومعاييرها ومبادئها(١٥) ، الا انهم على الاقل يمتلكون معرفة الداخلي بموضوعهم ، والقدرة على التوحد بالتجربة الانسانية التي يتصدون لهـا ويدرسونها ويحللونها ويحاولون الوصول الى نتائج معينة بصددها . وهو أمـر لا يستطيع ان يزعمه أي خارجي مهما كانت درجة تعاطفه مع موضوعه .

وقد استطاع هؤلاء الداخليون من خلال مشاركتهم الفعالة هـذه التي شملت كل مرافق الاستشراق : تدريسا واشرافا(١٦) على الدراسات العليـا في الجامعات المختلفة على شاطيء الاطلسي ، واسهاما ملموسا في تحرير العديد من الدوريات الاساسية في هذا الحقل المعرفي وبمختلف اللغات الاوربية(١٧) ، وتاليفا للكثير من الرسائل العلمية والدراسات الرفيعة والمرجعية في مختلف شؤون الوطن العربي قديمها وحديثها(١٨) ، وترجمة متالقة للعديد من الاعمال العربية قديمها وحديثها غـدت مصـادر لاغنى عنهـا لاي دارس داخلي او خارجي(١٩) ، وحضورا له وزنه في مختلف الندوات وحلقات البحث والمؤتمرات العامة والنوعية المتصلة بشؤون الوطن العربي وغير ذلك ، استطاعوا ان يخلقوا مستويات جديدة ضمن بنية الاستشراق نفسـه . ذلك أن مشاركتهم طرحت في عالم هذا التقليد الثقافي مستويات جديدة ، وقيما جديدة ، ومعايير جديدة ، خلخلت بنية هذا التقليد وبينت ماينطوي عليه من ثغرات . لقد غدا الاستشراق ينطق عندما ينطق باللغات الاجنبيـة بنوعين من الاصوات : خارجي وداخلي وهو لذلك غدا اكثر افصاحا عن موضوعه لان هذه الاصوات غدت اكثر قربـا وحميمة منـه .

٢ ـ هـ :

اما خامس هذه التحولات فهو التطورات التي لحقت ببنية المؤسسة الاستشراقية نتيجة جملة التحولات التي خضعت لها بنية المؤسسة الجامعية الاوربية والامريكية في العقود الاخيرة سواء اتصل ذلك بمسالة موقع الدراسات الشرقية في هذه المؤسسة الجامعية ، أم بالمنهج أم بالتسهيلات البحثية المتاحة للمستشرق ، أم ببنية مراكز البحوث والدراسات المختلفة المعنية بشؤون الوطن العربي .

ولم يقتصر هذا التحول على الجانب الاكاديمي من المؤسسة الاستشراقية بل شمل كذلك الجانب المهني النقابي مثلما شمل قنوات انتشار ونشر المعرفة

الاستشراقية على مختلف المستويات وفي مختلف الاوساط . فعلى الصعيد المهني شهدت العقود الثلاثة الاخيرة ظهور العديد من الروابط الجديد بانظمتها واهدافها ومجالات انشطتها والتي ربما كان من اهمها : **رابطة دراسات الشرق الاوسط لشمالي اميركا**(٢٠) عام (١٩٦٦) **ومجلس مكتبة الشرق الأوسط** (٢١) عام (١٩٦٧) ؛ **والجمعية البريطانية لدراسات الشرق الاوسط**(٢٢) عام (١٩٧٣) ، **والرابطة الفرنسية لدراسة العالم العربي والاسلامي** L'Association Francaise pour l'Etude du Monde Arabe et Musulman وغيرها . وعلى صعيد نشر المعرفة الاستشراقية ظهر الى الوجود العديد من الدوريات الناطقة باسماء هذه الروابط **كالمجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط**(٢٣) ، **ومجلة الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الاوسط**(٢٤) وغيرهما ، والدوريات المتخصصة بفرع من فروع الدراسات الاستشراقية مثل **مجلة الأدب العربي**(٢٥) **وادبيات**(٢٦) وغيرهما ؛ وسلاسل الكتب والرسائل العلمية والترجمات التي تصدرها مراكز البحوث والدراسات الخاصة بالوطن العربي او مطبعات الجامعات المختلفة من امثال برنستون ، واكسفورد ، وكامبردج وكاليفورنيا وغيرها ؛ او دور النشر المشهورة من مثل هاينمان وروتلدج وتوريس ، واثاكا وكورنيت وسواها . وبالطبع فان لهذه التحولات تأثيرها في الانتاج المعرفي الاستشراقي في شكله ومضمونه توجهاته مما يتضافر مع التحولات الاخرى ليسهم بدوره في تشكيل تقليد ثقافي جديد يمكن ان يسمى بالاستشراق الجديد .

←

حـواشي البحـث

(١) انظـر لـه

Abdul-Latif Tibawi, **English Speaking Orientaists : A Critique of Their Approach to Islam and Arab Nationalism** (London : Luzac for the Islamic Cultural Cenure, 1964); «Second Critique of English Speaking Orientalists and Their Approach to Islam and the Arab», **The Islamic Quarterly,** Vol. 23, no. 1, 1979;
« On the Orientalists Again», **The Muslem World,** Vol: 70, no. 1, January. 1980, pp. 50-61.

(٢) انظـر لـه

Anouar Abdel-Malek, «Orientalism in Crisis», in his
Social Dialectics, Vol. 1 : Civilization and Social Theory
(State University of New York, New York, 1981), pp. 73-96.

(٣) انظر كتابيـه الاخيرين

Edward W. Said,
The Question of Palestine
(Routledge and Kegan Paul, London & Henley, 1980);
Covering Islam : How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World (Pantheon Books. New York, 1981).

ومقالتـه

«Orientaism reconsidered», in Francis Barker et. al. (eds.),
Literature, Politics & Theory
(Methuen, London, 1986), pp. 210-29).

(٤) انظر كتابـه :

Aziz Al-Azmeh,
Ibn Khaldoun in Modern Scholarship : A Study in Orientalism
(Thirld World Centre for Research and Publishing, London, 1981).

ومقالته «افصاح الاستشراق» ، المستقبل العربي ، السنة الرابعة ، العـدد ٣٢ (تشرين الاول ـ اكتوبر ١٩٨١) ، ص (٣٤ ـ ٦٢).

(٥) انظر الفصل المعنون بـ «الخطابات الاسلامية ، الخطابات الاستشراقية والفكر العلمي» ، في كتابه تاريخية الفكر العربي الاسلامي ، ترجمة هاشم صالح ، (مركز الانماء القومي) ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص (٢٤٥ ـ ٢٧٣).

(٦) انظر كتابه ، اوروبا والاسلام ، ترجمة د. طلال عتريسي ، (دار الحقيقة) ، بيروت ١٩٨.
←

(٧) انظر كتابيها : Rana Kabbani,
Europe's Myths of Orient : Devise and Rule
(Macmillan, London, 1986);
Letters To Christendom (Virago, London, 1989).

(٨) انظر ـ د. غسان سلامة « عصب الاستشراق » ، المستقبل العربي (بيروت) ، السنة الثانية ، العدد ٢٢ ، (كانون الثاني ـ يناير ١٩٨١) ، ص.ص (٤ ـ ٢٢) .
ـ امجد بن عبود ، « الاستشراق والنخبة العربية » ، المجلة التاريخية المغربية (تونس) ، السنة ٩ ، العددان ٢٧ ـ ٢٨ ، (كانون الاول ـ ديسمبر ١٩٨٢) ص.ص أ ١٩٩ ـ ٢١٥) .
ـ سالم يفوت ، حفريات الاستشراق : في نقد العقل الاستشراقي ، (المركز الثقافي العربي) ، الدار البيضاء ، ١٩٨٩ .

(٩) انظر كتابه المعنون بـ Maxime Rodeinson,
Le fascination de l'Islam
(Petite Collection Maspéro, Paris, 1980)
الذي ترجم الى العربية تحت عنوان جاذبية الاسلام ، ترجمة الياس مرقص ، (دار التنوير للطباعة والنشر) ، بيروت ١٩٨٢ .

(١٠) انظر كتابه Bryan S. Turner,
Marxism and the End Orientalism
(George Allen & Unwin, London, 1978).

(١١) سعيد ، الاستشراق ... ، ص (٣٢٣) .

(١٢) المرجع نفسه ، ص (٣٢٤) .

(١٣) انظر د. رضوان السيد « ثقافة الاستشراق ومصائر وعلاقات الشرق بالغرب » ، الفكر العربي ، (بيروت) ، السنة الخامسة العدد الحادي والثلاثون (عدد خاص عن الاستشراق التاريخ والنهج والصورة) ، كانون الثاني (يناير) ـ آذار (مارس) ، ١٩٨٣ ، ص (١٤ ـ ١٧) .

(١٤) انظر د. رضوان السيد ، « القراءات الاسلامية والقراءات الاستشراقية : التشرذم بعد أزمة الوعي المركبي » ، كتابات معاصرة (بيروت) ، المجلد الاول ، العدد /٤/ ، تشرين الثاني ، ١٩٨٩ ، ص.ص (٤٠ ـ ٤٢) .

(١٥) انظر عبد النبي اصطيف ، « نحن والاستشراق : نحو مواجهة ايجابية ، المستقبل العربي (بيروت) ، العدد ٥٦ ، تشرين الاول (اكتوبر) ، ١٩٨٢ ، ص.ص (٢٢ ـ ٢٦) وانظر كذلك دونالد مالكولم رايد ، « جامعة القاهرة والمستشرقون » ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، الثقافة العالمية (الكويت) ، السنة السابعة ، العدد ٢٨ ، يناير ١٩٨٨ ، ص.ص ٧ ـ ٤٣) .

(١٦) لا تكاد تخلو جامعة اوروبية أو أمريكيــة مشهورة من أستاذ عربي مرموق يتولى التدريس والاشراف على الدراسات العليا . ون الاسماء البارزة في هذا الميدان « البرت حوراني »، ومحسن مهدي ، وعرفان شهيد ، ووليد عرفات ، ومحمد مصطفى بدوي ، وعفاف لطفي السيد ، ومحمد اركون ، وعيسى بلاطة ، وبساط الطيبي ، وعزيز العظمة » وغيرهم .

(١٧) كثير ما يطالع الباحث أسماء عربية بين أسماء المسهمين في كبريات المجلات المعنية بالدراسات العربية والاسلامية ، والامثلة أكثر من أن نستوعبها اشارة موجزة .

(١٨) الدراسات العربية والاسلامية التي ينتجها العرب باللغات الاجنبية في تزايد مستمر في اللغات الرئيسية الثلاث الانكليزية والفرنسية والالمانية ، وجلها بات اليوم قراءات لا يستغني عنها دارس العرب والاسلام مهما كانت هويته ، بل ان بعضها غدا محددا رئيسيا للافكار السائدة في موضوعه مثل دراسات محمد مصطفى بدوي ، وكمال أبو ديب والبرت حوراني ، وفيليب خوري ، ومحمد عبد الحي ، ومحمد شاهين ، وعرفان شهيد ، وحليم بركات ، وحنا بطاطو ، وسلمى الخضراء الجيوسي) وهشام شرابي ، ومحسن مهدي ، وعبد الحميد صبرة ، وغيرهم كثير .

(١٩) من اشهر مترجمي الداخلين محمد مصطفى بدوي ، وفتح خوري ، وسلمى الخضراء الجيوسي ، وعدنان حيدر ، وعبد الله العذرى ، ورنا قباني ، ومحمد شاهين ، وكمال بلاطة ، وفطمة موسى محمود ، وعيسى بلاطة ، وغيرهم كثير .

Midlle East Studies Association of North America (٢٠)

The Middle East Library Committee (٢١)

British Society for Middle Eastern Studies (٢٢)

International Journal of Middle Eastern Studies (٢٣)

British Society for Middle Eastern Studies Bulletin (٢٤)

Journal of Arabic Literature (٢٥)

Edebiyat : A journal of Middle Eastern Literatures (٢٦)

★ ★ ★

آفاق المعرفة

دمشق في العصر الحجري الحديث

علي القيم

يقترن اسم دمشق بالقدم ، فقد عرفت هذه المدينة العريقة على انها اقدم مدينة في التاريخ لا زالت مسكونة وعامرة بالبشر ... وعلى الرغم من ان العرب في كتبهم ورواياتهم الكثيرة الواردة في مدونات اليعقوبي والمقدسي وابن جبير والبلاذري وابن بطوطة ، وغيرهم يقرنون اسم دمشق ببداية الخليقة ، ويرجعون تاريخها الى عهد آدم الذي كان يقيم في ضاحية من ضواحيها تسمى (بيت ابيات) . وان حواء قد اقامت في قرية اخرى لا زالت قائمة هي (بيت لهيا) او بيت الآلهة ، وان هابيل اقام في (مقرى) ، وان هابيل في (قينية) ... وان اكثر المتحدثين عن دمشق يجمع انها كانت موطن ابراهيم الخليل ، بل كانت مولده ، وكان (آزر) والده يقوم بنحت الاصنام فيها ...

ويقال انها ترجع الى (دماشق) من احفاد نوح (عليه السلام) ، وأن من بناها هو (جيرون) من احفاد نوح ، وقيل ايضا أن (هود) نزل فيهـا وأسس حائط معبدها ، وهو أول حائط مبني في التاريخ(١) ... وقيل وقيل الكثير عن دمشق وتاريخ دمشق ، وعلى الرغم من اهمية هذه الاقوال ودلالاتها الكثيرة عن دور دمشق وعظمتها وريادتها التاريخية منذ اقدم العصور وحتى اليوم ، فانها تبقى في حدود المرويات والاساطير التي لا تعتمد في تقديم المادة العلمية الاساسية للمؤرخ .

ترى ماذا تخبرنا نتائج المكتشفات والدراسات الاثرية التي جرت في مناطق عديدة من دمشق في السنوات الاخيرة ... دعونا نتلمس ذلك ...

ثـورة الحضـارة

تعتبر الفترة الواقعة بين الالف الثامن قبل الميلاد ، والالف السادس قبل الميلاد ، من الفترات الهامة جدا في بلاد الشام بشكل عام ، ودمشق بشكل خاص ، ففي هذه البقعة الفنية جدا من العالم ، نضجت قبل اي مكان آخر ، جملة متكاملة من التحولات الهامة ، يمكن ان نحدد عواملها في نقاط عديدة أهمها :

١ ـ الخروج من الكهف ، وتأسيس القرى المبنية في العراء .
٢ ـ درجة استقرار الناس داخل تلك القرى .
٣ ـ القرية بحد ذاتها بإنجاز معماري ، وتطور خططها ومدلولاتها .
٤ ـ انتاج القوت .
٥ ـ التطور التكنولوجي والتقنيات الجديدة .
٦ ـ التطور الايديولوجي كما يتجلى في الفن أو في مراسم الدفن(٢) .

في مطلع الالف الثامن قبل الميلاد في بلاد الشام اكتملت التحولات التي بدأت مع العصر النطوفي ، وابتكرت المجتمعات التي استقرت في قرى الصيادين الاولى نمطاً اقتصاديا انتاجيا جديدا يوفر لها مصادر عيشها بشكل افضل ، اذ انتقلت من الاقتصاد الاستهلاكي الذي يقوم على التقاط الحبوب ، وصيد الحيوانات البرية ، الى انتاج هذه الخيرات من خلال الزراعة والتدجين ...

لقد شكل الانتقال الى الاقتصاد الانتاجي المنظم انعطافا كبيرا ، ووضع الارضية التي نشأت عليها الحضارات التاريخية اللاحقة ، وكان هذا الانعطاف عظيم الاثر ، لدرجة ان البعض ، إسماه بالثورة النيوليتية ، أو ثورة انسان العصر الحجري الحديث ، وبغض النظر عن اسباب ودوافع وظروف نشوء الزراعة والتدجين، سواء كان مردها ثقافيا ـ اجتماعيا، أو بيئويا ـ جغرافيا،

او ديمغرافيا ـ سكانيا . . . او كل هذه العوامل مجتمعة ؛ فيجب ان نتذكر ان ابتكار الزراعة هو الخطوة الحضارية العملاقة التي حققها الانسان ، ولولاها لما كان لحضارتنا الحديثة ان تقوم ؛ ولا ان تصل الى هذه الدرجة من الغنى والتنوع . ومع بداية الزراعة تسارعت وتائر التطور بشكل مذهل ؛ وحصلت تحولات دراماتيكية اسست لظهور الدول والحضارات التاريخية بكل غناها وتعقيداتها(٢) . وحتى نفهم دور دمشق في هذه التحولات وعمليات الاستقرار والاستيطان البشري نشير الى دور العوامل الجغرافية والبيئوية ، فمنطقة دمشق ؛ كما هو معروف ، كانت عبر عصورها المختلفة ، وفيرة المياه ، خصبة التربة ، تساعد على الاستقرار والاستيطان ، لهذا استقر فيها الانسان مبكرا ، كما دلت على ذلك الحفريات الاثرية التي تمت في مواقع عديدة مثل : تل اسود ، وتل الرماد ، وتل الخزامى ، وتل غريفة . . .

تل اسود :

يقع تل اسود في غوطة دمشق ، في منطقة تكثر فيها المستنقعات الواقعة بين بحيرتين ، وتبلغ ابعاد هذا التل (٢٧٠ × ٢٢٥) مترا ، وارتفاعه عن سطح الارض نحو خمسة امتار ، وقد جرت فيه عدة تنقيبات اثرية . وبناء على تحليل الكربون المشع C14 ثبت ان عمر الاستقرار البشري في هذا الموقع يعود الى الفترة الواقعة بين (٧٦٩٠ و ٧٧٩٠) قبل الميلاد ، اي ما يعرف بالعصر الحجري الحديث الاول ، الذي لم يشهد صناعة الفخار .

وبناء على مقارنة انماط البناء والادوات الحجرية والصوانية المكتشفة في الموقع مع غيرها من المواقع الاخرى ، ثبت ان الاثار المكتشفة في تل اسود مؤلفة من مجموعة كثيفة من « الجيوب » المستديرة المتلئة بالرماد ، والمواد النباتية المحروقة ، وتتقاطع تلك الجيوب بعضها مع بعض في اكثر الحالات ، كما ان الاحدث عهدا يشتبك مع الاقدم عهدا ، ويتخلل تلك الجيوب « حفر » اسطوانية مستقيمة الجوانب (لعلها صوامع) ، وقد عثر المنقبون الاثريون بين الانقاض على اعداد كبيرة من اللبن المصنوع من الطين الممزوج بالتبن ، واللبنة مسطحة من الاسفل ، محدبة من الاعلى وتظهر على وجهها العلوي طبعة اصابع آدمية ، وكانت قطع اللبن تلك حطاما محترقة بين الانقاض ، او مرصوفة جنبا الى جنب ، وتفرش الارضية مكونة « مصطبة » .

وبناء على ذلك كانت « تل اسود » قرية مؤلفة من اكواخ صغيرة الحجم، ومستديرة الشكل ، تتلاصق بكثافة بعضها مع بعض ، ومملوءة بالتراب حتى منتصفها ، وقد استخدم الطين في صنع اللبن الذي كانت تفرش فيه ارضية المسكن ، او لبناء مصطبات منخفضة ، اما البنيان العلوي للكوخ ، فلا بد ان معظم عناصره كانت مؤلفة من مواد نباتية خفيفة وسريعة الاشتعال ، حيث تشير دلائل الحريق ان الاكواخ قد تعرضت مرارا للحريق ، مع الاشارة الى طبيعة البيئة المحيطة بالموقع التي اوجبت اللجوء الى استخدام المواد الخفيفة ، وهي النباتات الناشئة من وجود المستنقعات(٤) كما كانت بحيرتا العتيبة والهيجانة غنيتين بالاسماك التي قام السكان باصطيادها ليتغذوا بها .

وتجدر الاشارة الى كثرة الدمى الطينية (البشرية والحيوانية) في تل اسود ، ومعظم الدمى البشرية كانت تمثل النساء على نحو يبرز منهن الارداف والصدر ، وتشكل هذه المكتشفات بدايات للتصور الفني لدى الانسان .

اما عن المعتقدات التي وجدت دلالاتها في تل اسود ، فقد كان الانسان حين وفاته ، يدفن في حفرة عادية بوضعية الجنين ، وحده ، او مع طفل ، وفي احدى الحفرظهر فيها ، جمجمة منفصلة + هيكل عظمي لطفل ، وتحتها هيكل عظمي تام ، مع اربع جماجم منفصلة ، منها اثنان لطفلين ، ومعهم خرزة من الصدف ، واربع نصلات مناجل ، ورأسا سهم من الصوان ، وتأسيسا على ذلك يفترض ان القبر كان قد استخدم عدة مرات ، وقد يعود لاسرة واحدة(٥).

وفي الفترة التي تؤرخ بين (٧٠٠٠ ــ ٦٥٠٠) قبل الميلاد عثرت البعثات الاثرية في تل اسود على دلائل مادية تؤكد على تطور الاستقرار البشري واتساعه وقد اضيف الى زراعة القمح النشوي ، زراعة انواع جديدة من الحبوب كالقمح الوحيد الحبة ، والقمح الصلب ، والشعير ، وكثرت صناعات العصر الحجري الحديث (قبل الفخاري) ــ ب ــ الصوانية ، وتنوعت ادواتها ، كما تم تصنيع الادوات الصغيرة المصنوعة من الحجارة المصقولة كالجير والعقيق والحجر الاخضر وغيرها ، كما عثر على كميات كبيرة من الدمى المصنوعة من الطين المشوي ، ومن بينها مجموعات جديدة من التماثيل البشرية ، المسطحة والمستطيلة الشكل .

تل الغريفة :

يقع تل الغريفة بالقرب من تل اسود وبحيرة العتيبة ، وقد عثر فيه على بيئة مشابهة لتل اسود ... في الطبقة السفلى من الموقع ، والتي تعود الى الفترة الواقعة بين (٦٩٠٠ و ٦٣٠٠) قبل الميلاد ، ويظهر نمطا حياتيا مماثلا

انل اسود (الطبقة الثانية) حيث عثر على تمثال صغير اسطواني الشكل قاعدته محززة بمثل احد المعبودات البيتية اما الطبقة العليا الممتدة من « ٦٣٠٠ و ٦٠٠٠ » قبل الميلاد فنمط العيش فيها يشبه الى حد ما الطبقة (١) من تل الرماد المعاصر وهناك ما يثبت أن دور الزراعة في هذه الطبقة قد تدنى لصالح الصيد بسبب الجفاف الذي طرأ على هذه الفترة الزمنية ، وقد توقفت الحياة في هذا الموقع منذ ذلك الحين الى ان جرى تحويله الى مقبرة في فترة الاحتلال الروماني ـ البيزنطي لسورية(٦) .

تل الخزامى :

يقع هذا التل الاثري في المكان الذي انشىء فيه مطار دمشق الدولي الجديد ، ويعود تاريخ الاثار التي اكتشفت فيه الى النصف الثاني من الالف الخامس قبل الميلاد ، وكان يضم في بقاياه بعض المساكن المتعددة الغرف ، المستطيلة الشكل ، المبنية من مادة اللبن المقولب ، وقد عثر فيه على كميات من الخزف الفاتح ، اللون ، المغلف بطلاء احمر ، المزين بزخارف محززة ، ويشبه من حيث النوعية الكثير من الخزف المكتشف في مناطق عديدة من فلسطين وجبيل .

اما الادوات الصوانية فقد كانت نادرة ، وهي عبارة عن نصلات مقفاة ، مستطيلة الشكل كانت بمثابة المناجل ، وهناك التماثيل الطينيـة المشويـة (حيوانية وانسانية) على شكل بيادق صغيرة .

تـل الرماد :

يقع تل الرماد على بعد ٢٠ كم جنوب غربي دمشق ، قرب بلدة قطنا ، على ضفة واد يجري بين (قطنا وعرطوز) ، وقد جرى اكتشاف هذا الموقع في الثلاثينات ، وكان يعرف بـ « تل قطنا » وفي سنة ١٩٦٠ أعيد اكتشافه على يد « فان لير » الذي اطلق عليه اسم « تل الرماد » نسبة الى تكوينه ، ومن سنة ١٩٦٣ الى سنة ١٩٧٣ قامت بعثة فرنسية ـ سورية باجراء عدة مواسم تنقيبية فيه اسفرت عن وجود ثلاث طبقات اثرية فيه ، وهي على التوالي من الاقدم فالاحدث :

ـ الطبقة الاولى (٦٢٥٠ ـ ٦٠٠٠) قبل الميلاد ، وهي اقدم الطبقات ، وقد اسفرت الاعمال الاثرية عن معلومات تفيد بأن سكان هـذه المستوطنة

الزراعية كانت تعتمد في حياتها على زراعة القمح النشوي ، والشعير والعدس، والكتان الذي كان يستخرج منه الزيت ، كما كان الناس يقتاتون من ثمار الاشجار البرية كاللوز والزعرور والفستق والتين ، ويقومون بالاضافة الى ذلك بصيد الغزلان والايائل . .

لقد كانت مساكن الناس في تلك الفترة عبارة عن اكواخ بيضلوية(مستديرة) الشكل ، بسيطة جدا ، محفورة حتى منتصفها في التراب ، ومبنية من التراب المدكوك (اللبن) وكانت ارضيتها مغطاة بالصلصال ، وفي داخلها تجهيزات معدة للتخزين مصنوعة من الصلصال ايضا ، وكان يحيط بتلك الاكواخ بساط من صفائح الحجر ، وقد اقيمت عليه موائد مغلفة بالكلس . اما متاع هذه الاكواخ (البيوت) فقد كان يتألف من الجواريش وادوات سحق الحبوب ، والاواني الكبيرة المصنوعة من الجير التي عثر في داخلها على ادوات صوانية ، من بينها نصال مناجل ومكاشط وازاميل وقوس يعود تاريخها الى صناعة متأخرة من صناعات العصر الحجري الحديث ، (قبل الفخار ب) وعثر ايضا على ادوات عظمية متنوعة مثل : المخارز والمثاقب والمحالج والنبال ، كما استعمل العظم لصنع القلادات على شكل رأس الحيوان(٧) .

وعثر في هذه الطبقة على تماثيل فخارية كان الاهالي يقلدون بها اشكال الحيوانات والبشر ، وتدل هذه التماثيل على وجود علاقة وثيقة وقوية مع عبادة الاجداد بعد موتهم ، فقد كانوا يرسمون نموذجا لشكل الانسان على العظام الخالية من اللحم ، بعجينة كلسية ، ويبرزون سطح الجمجمة بتلوينها او دهنها بلون احمر ، ويقومون بتغطية العيون بالكلس الابيض ، ويعتقد ان التماثيل البشرية الطينية الكبيرة ، كانت تستخدم كقواعد لهذه الجماجم ، ومما يجدر ذكره ايضا وجود خرزة او كرة صغيرة من النحاس المطروق ، تشير الى قيام علاقات تجارية مع البلد المصدر لهذا المعدن في آسيا الصغرى .

ــ الطبقة الثانية (٦٠٠٠ ــ ٥٥٠٠) قبل الميلاد : في هذه الطبقة البيوت السكنية ، مستطيلة الشكل ذات غرفة واحدة ، وقد استخدمت الحجارة لبناء الاساس ، ولبنات الطين لبناء الجدران ، وقد كان السكان يجلبون خليطة من الكلس المشوي والرماد لصنع الاواني المنزلية ، وكان يقتصر في تصليبها على تجفيفها في الشمس ، كما كانت جدرانها الخارجية تزين احيانا باشرطة حمراء ، وبقايا الرماد الكثيرة في هذه الطبقة هي التي اعطت الاسم الحالي لتل الرماد .

ــ الطبقة الثالثة (٥٥٠٠ ــ ٥٠٠٠) قبل الميلاد : تتميز هذه الطبقاتبوجود خنادق محفورة في الطبقتين السابقتين ، وهذا يدل على أن المساكن أصبحت اقل

ضخامة ، وهذا ما دفع البعض الى القول بأن سكان تل الرماد قد انتقلوا في هذه الفترة الى حياة (نصف بدوية) وقد تعين عليهم القيام بالاعتماد على تربية الحيوانات كالماعز والغنم والبقر والخنازير : مع الاشارة الى وجود دلائل كثيرة تثبت وجود زراعة الحبوب والخضراوات في تلك الفترة .

في هذه الطبقة ظهر الخزف اللامع الغامق اللون الذي يشبه الخزف الذي عثر عليه في مدن الساحل السوري (راس الشمرة — وجبيل)(١٨) .

هذه الآثار ، تعتبر اقدم آثار مادية وجدت —حتى الآن— للانسان في دمشق، وتدل على نشوء القرى الزراعية الاولى ، وبداية الاهتمام ببناء المنازل البسيطة المستطيلة الشكل ، وبداية الفنون والمعتقدات الدينية المتطورة .

ويستدل من هذه الآثار مجتمعة أن منطقة دمشق ، مثلها مثل غيرها من مناطق بلاد الشام ، قد شهدت في هذه الفترة انقلابا حضاريا هاما في حياة الانسان . . . لقد خرج من الكهف الى السهل ، وبنى مسكنه في احضان الطبيعة. وكانت الحفرة السكنية بمثابة الشكل المتطور للكهف ، بينما يمثل الكوخ المرحلة الاولى لبناء البيت ، ثم انتقل في مرحلة لاحقة الى البيت المستطيل الشكل او المربع ، الذي الحقت به غرف المؤونة والممرات الداخلية . . لقد دفن سكان دمشق في العصر الحجري الحديث ، موتاهم في ارضيات بيوت سكنهم بعد أن فصلوا الجمجمة عن الجسم ، وهذا يدل على مواقف محددة من قضايا الخصب والموت والحياة ، ترسخت مع الزمن واستمرت طويلا في معتقدات الشعوب اللاحقة في الوطن العربي القديم(٩) .

الهوامش :

١ — الشام الحضارة ، د. عفيف بهنسي — دمشق ١٩٨٦ (ص ١٤٣) .

٢ — الوحدة الحضارية في بلاد الشام ، تاليف جاك كوفان — ترجمة قاسم طوير اصدار ١٩٨٤ ، (ص ٩) .

٣ — آثار الوطن العربي القديم ، د. سلطان محيسن ، دمشق ٨٨ — ١٩٨٩ (ص ٣٩ — ٤٠) .

٤ — الوحدة الحضارية في بلاد الشام ، مصدر سابق (ص ٤٩ — ٥٠) .

٥ — آثار الممالك القديمة في سورية ، د. علي ابو عساف ، دمشق ١٩٨٨ (ص ٨٩ — ٩٣) .

٦ — انظر تنقيبات هنري دوكونتانسون في هذا الموقع ، المنشور عنها تقارير في مجلة الحوليات الاثرية السورية .

٧ — المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية (١٩٦٩ — ١٩٨٩) (ص ٣٦ — ٣٩) .

٨ — الآثار السورية ، دار فرفرتس للطباعة والنشر — فيينا ، ترجمة ، د. نايف بللوز .

٩ — دراسات تاريخية ، العدد (٢٥ و ٢٦) حزيران ١٩٨٧ ، سورية في عصور ما قبل التاريخ ، د. سلطان محيسن (ص ١٤٥) .

✶ ✶ ✶

آفاق المعرفة

نافذة على العالم

قصائد حب جديدة

كمال فوزي الشرابي

قصائد الحب التي سيطالعها القارىء فيما يلي تبدو جديدة ، وذلك لانها وجدت منذ عهد غير بعيد . فاقدمها — وهو قليل جدا — يعود الى الخمسينات . ومعظمها كتب ما بين عام ١٩٧٠ ووقتنا الحاضر .

اما مؤلفو هذه القصائد ، وهم فرنسيون ، فبعضهم من احسن شعراء هذا العصر كما ان بينهم عددا من الشعراء المغمورين والجدد . وتلاحظ وفرة في عدد النساء الشواعر تكاد تقارب الاربعين بالمئة . ولقد بدات المراة تكتب ، وتتحدث عن نفسها وتتحدث الينا ، وإنا لمغتبطون بهذا الهجوم التحريري لانه يهدم نوعا من انواع النفاق لدى اهل الادب حين يراقبون

الحقيقة بعداء البلاغة . فالشاعرة الانثى لا تميل الى التجريد ، ولا الى المفهوم الحكمي ذي اللهجة المتسمة بالوقار المصطنع ، ولا الى هذه الرغبة في تقليد الكوني أو العلموي الذي كثيرا مـا يراود الشاعر الذكر . ان المـرأة تذهب في الشعر بصورة اكثر مباشرة الى قلب الاشياء وتبدو اكثر كرما واكثر غيرية من الرجل. فهي في الوقت ذاته تمسك بالحادثة ان وجدت كما انها مستعدة لقطع القلس ـ بفتح القاف وتسكين الميم ـ او حبل المرسى في الحب المجنون . وغالبا ما تكون اقل عنصرية منا . وهي تفني بالالحاح ذاته متطلبات العيش والولادة وعدم الفائدة من انسان يعيش بلا رفيق وبلا مشاركة . فاثنان انما يشكلان مخططا للتعاون .

وخلاصة القول أن جميع هؤلاء الشعراء ما يزالون ابتداعيين (رومانتيين) والكلمة ـ المفتاح قد اطلقت ولو أن عصرنا المتسـم بالازمـات والتبدلات لا ينسجم معها بشكل جيد . ونلاحظ ان الانصياع للحلم مع الاستناد الـى اليومي ، لدى الكثيرين منهم ، يظل عملية غير نهائية لا بل عملية عفوية . انهم لا يستطيعون ان يتقبلوا ، على المستوى العالي ، عالما مثقوبا بالمظالم ، والجراحات والجشع بانواعه كافة . انهم يرفضونه لقاء واقع آخر متخيل ، او صوفي او بلون الزهرة الزرقاء وصفائها ، واقع عادي وسحري في الوقت ذاته ، واقع هو كل ما يريده المرء الخير ان يكون . كان راسين يصر على القول : « اذا لم احب فانا لا شيء . » ويهتف دادلسن Dadelsen حاليا و « المكان الآخر هو بين اذرعنا . » .

هذه اغنيات حب واقعية ، مثالية ، سرية ، سريالية ... انها ثمرة عقول وافكار ساخرة ، معذبة ، يائسة ، متحمسة ، ومع ذلك فهي لا تخدع بسراب الحيل ، ولا بالمفردات ولا بالسذاجة الاصلية المدعاة بيد ان تأثيرها يبقى على الـدوام معديا :

ماكس آلهـو MAX ALHAU

رائحـة القمـح

الزمن الذي يكمن فيـك يشعل الغابات . ادنو منك بالإشارات المفرقة في القدم . الج ظلك على موعد الشمس . اطلق ذراعيك واحبسهما لكي احسـك افضل على قدر جنوني .

اروِدك بين الاعشاب والطمي ، يا انت ، يا ايتها الثمرة الناضجة ، يا من تجتثين جذور النهار ، لك في جسدي قوة الصيف الذي يستمر في كل فصل . يا امرأة تعلمتها بقوة المداعبات ؛ يا مكانا فيه تنفجر الصاعقة . تعمرينني من جديد بهذا الحضور الذي يبلغ نهايته على مستوى الكتفين .

ارد ثغرك ذا الظمأ الذي لا يروى ، يا ايها الينبوع الذي يتجه اليه النهر .

تضاعفين الأبدية . يا إعصار يحملني الى فجر الاراضي الموعودة .

من مجموعة (الزمن يسيل ، ١٩٦٩)

الشاعرة سيمون اوغوست SIMON AUGUSTE

١ ــ اقبل ثغرك

الشم ثغرك ذا العطر الغامض
ولي شعرك ملء يديّ
ملء يديّ شعرك المجعد .
(يموت السوسن الفوّاح
من رائحته في الظل)

امسك بهذين الصدفين بين راحتيّ ،
بكل وجهك المطمئن تحت نظرتي
كاضمومة ساطعة .

٢ ــ جفنك

يلتمع جفنك بالنسغ
كبرعم حورة
حورتي .

كثيف شعرك كالعشب
زرقاء عينك كالهندباء
على حفافي المروج

اسنانك هي الحصيات الجميلة
الناضرة لجدولي
وصدرك هو الغابة .

وانا ، ما اكون ؟ اتراني في السماء
فوق منظرك الطبيعي
غيمة رقيقة ؟!

من مجموعتها (ليلا نهاراً ، ١٩٧٦)

جـاك بيرتان JACQUES BERTIN

ابعـد مـن نفسـك

حبيبتي ، لم تصالحيني قط مع هـذا العالم .
ترافقينني وبقدر ما اكون بعيدا احسك ،
هل كنت انت تلك الفتاة على الضفة الاخرى من النهر ،
تلك التي كانت على الدوام ترشقني بنظراتها ؟
وهذه الذراع التي لم تكن تنهي اختفاءهـا
ولا وعودها ولا نداءها ولا قولها
ان حبك يمشي بمحاذاة نفسـك ،
بعيداً جداً ، قريباً جـداً ، في ليلي الفارق المختفي
لم أعـد اتذكرك قـط ،
ولكني على الدوام اسمع صوتك الخفيض .
وما عرفـت قـط مـن تكونين .
وبمحاذاة نفسي التي تتمدد في ليلي الحقيقي
المرتشف المتشابه ، يا اختي العاشقـة ،
لا ينفلـق المـاء ابـداً ،
احبك عبر نفسـك ابعـد مـن نفسك .

من مجموعته (قصائد واغنيات ، ١٩٨١)

الـن بريتـون ALAIN BRETON

١ ـ نـائمـة

انت بخير ، تنامين . الشمس لا تزعجك ابدا . ادفعك في الكلمات الآن ، امدّ اليك ذراعيَّ . يستند اليهما المنظر المحيط براسك .

يا نائمتي ، غالبا ما أقلّبك من جانب الى آخر ، فتستيقظين . ويسلمك جيدك بيضاء فيما بيننا . احبك . ولشدة استغرابي امرر يدي في شعورك او احيط بوركيك وحسب . ولا يكاد احدنا ينظر الى الآخر .

مزيد من العادة يعلم بما يتحرك في الماوراء .

٢ ــ الى جانب جسدك

ستكون لنا رائحة الخبز الذي سخنته الشمس ، وضجة السماء . سنجلس وسط الريح . وستتحدثين اليّ من غير ان تريني . سأغطي وجهك رافعا يديّ الى اجفانك ، ثم اقود ذراعيك الى جانب جسمك . وليأتي ثغرك برفق ، بيد ان اعضاءنا الاخرى ستبقى هادئة .

فيما بعد ، سننزع ملابسنا من غير ان نشيخ .

من (عزلة لا تهم)
مجموعة لم تنشر

جان بريان JEAN BRIANES

يوم آخر

يوم آخر انقضى من دون وجودك .
لا نار ، لا مكان ، وليس لي عينان كي ارى
مادام اي شيء لم تعد له الوانك .

تنحرف السنة وتنحرف حياتي معها .
يرن اسمك وتبقين صماء .
ومايزال جسمك الغائب يحرك الاغصان ،
لكنك ما تدت هنا لتبصري إزهارها من جديد .

كنتُ في منازلَ حبيبة انيم احلامكُ .
نهداك قد ذبلا كزهرتين بلا حب .
أسحر الصمت بشفتيك النشوانتين .
ليلٌ في يديّ وانت لا تعلمين .

قولي لي اذا كنت قد احببت ضحكتك حبا كافيا ،
واذا كنت قد بحثت عن نظرتك بحثاً وافياً ،
واذا كنت قد اجبتك جواباً شافيا ،
قولي لي اذا شعرت في الموت بأنني معك .

من مجموعته (الموت لا الشمس ، ١٩٨١)

الشاعرة ايفون كاروتش YVONNE CAROUTCH

١ ـ تحدي الينابيع الكبيرة

حين يتحدى الزمن الينابيع الكبيرة
يؤخذ بانزلاق الماء على ذاته .
هي ذي تخييمات الحب
في المضاءات الخاطفة من الفجر .
تهب فمك للرقاد الاسود
وحبك ينام ايضاً
بطناً ازغب لليل العذب الدافيء .

حين تصبح السماء بيضاء
على الارض المحروقة :
سندخل في زمن الاخرين .

٢ ـ اجيء اليك

أجيء اليك بدورات ينبوع
تخدّر في الحجر .
ننتصب واقفين ضد الموت المتشابك في الاعشاب
ثم نلج امبراطورية لا حدود لها
مفتوحة لمغالاتنا .
يحبس الصمت انفاسه وسط الريح الراكدة
وفتن المرايا .
تسهر الاسوار التي غزتها بصبر طقوسنا
على حركاتنا .
نحن كوكبان رتيبان ،
حشرتان مدهوشتان في عوالم من ريش .

من مجموعتها (طريق القلب الزجاجي ، ١٩٧٢)

غبرييل كوزان GABRIEL COUSIN

١ ــ القبلـــة

غرد العصفور طوال الوقت الذي عانقتها فيه .
كنا نسمع العاصفة من بعيد ، ومن الامطار
الغزيرة كانت تنهض الحصائد .
عذوبة غريبة كانت تليّن العضلات والجبـــال
ومرت بعينيٌ رائحــة النيران الحطبية في الاماسي الخريفية .
لكن الصيف لم يكن بعد قــد انقضى ، وكان العمل يشتعل في ضمائرنا .
عندئذ اقبلت من بعيد جدا تعلات طفل فتقاسمناها .

٢ ــ ايليـــن

انتِ ، يا منتهى الطيبة والاعزاز ، يا غاية الصفاء والاباء ،

يا رصيف العودة بعد زمان الابحار ، يا من توفرين اوان المطر ، انك لتستقبلين
وتريحـــين .
يا انتِ ، يا الموغلة في العذوبة والتواضع
والقلق والمرح ، يا من جرحتك معركـــة الايام ، انك لتسعدين بنـــار صغيرة ،
وتزينين العتبة وبداك تومئان .
انت ، يا المفرقة في الحكمة والخصب !
سأعرف ابداً عينيك الشفافتين بماء النضارة .
حبك المتألق المليس وهب لي هؤلاء الاطفال
الذين يحتدمون ، بكبرياء جباههم في المحن ،
كخمـــر في عروقي .
حبي عبئك . حضورك ذكراي . وجودك تقدمي ، اركض وتصبرين ، ونحلم .
يا حبيبتي ، يا رفيقتي ، كوني سعيدة من خلال اخطائنا وكبواتنا . ايدينا تتوحد
ويتبادل كل منا انفاس الآخر .

من مجموعته (الحب المالوف ، ١٩٥٨)

جيرار فريتاغ GERARD FREITAG

انتظـار في المحطـة

الـى زوجتـي

صفق الباب . سفطني هواء غريبٌ .
وقلت لنفسي : ماتراها حياتي تغـدو
لو لم تأتِ ذاك المسـاء
بين هذه الاشياء التي تطـير ،
هذه الاشياء المزعزعة . في مشرب المحطة
لا تلج الريح ، ومع ذلك ، ومن دون ان اشرب ،
بدا لي ان كل شيء سيتحرك ،
وان كل شيء سينقلب الى الابد ،
وان الاشجار ستعيش وقد تجذرت هاماتها .

ما تراها كانت حياتي تغـدو
لو انها في ذاك المسـاء
لـم ترني وهي داخلـة ؟

من مجموعته (حضور كل شيء ، ١٩٧٧)

روبير غـو ROBERT GAUD

عنـاق

ليقبّلْ احدكما الآخر كما في الحلم ،
ولتسكنـا حضوركما
كما تسبحان في اعماق البحار ،
ولتقبل الرغبة ، هذا الوحش الاسود ،
لتتألـق على السطح
وتتمثـل الشـكل والجسـد
وهي تكشـف عـن انيابها ،
ثم تعـاود الغطس في هوّاها
وقد تغـذت ببريق مـن السماء .

من مجموعته (من قوس الغمام الى قوس الارض ، ١٩٧٩)

كوليت غـودار COLETTE GOUDARD

الحبيبـــان

لديهما الوقت ليتحابا طـوال الوقت .

كانت الامواج كـورود
عنـد اقدامهمـا تتكسر .

من مجموعتها (الصيف العاري ، ١٩٨٠)

فرانسواز هان FRANÇOISE HAN

١ ــ زرقة باهرة

اين تراه اثر جسدينا ؟
هل تركنـا في الرمال بمكان ما
حفرة صغـيرة على مقياسنا ؟

في الماضي كنا نجد من الطبيعي
ان يستمر ظـل رقدنا فيه .

الآن نعرف ان من العبث
ان نبحث عن آثارنا تحت الاوراق .

انما حـين نمشي جنباً الى جنب
نحزر ان صورة تتقدمنـا
لا مرئيـة لنـا
يلقي عليهـا العابرون نظراتهم .

٢ ــ منظر

كنا هذين العاشقين الخفيفين ،
القاطنين مؤقتاً قصب الليـل .
عاشقين لا يوثقـان معصميهما
الا بسوق هشة ،

ولا يبحثان عن اية فريسة
لجهلهما الحاجة الوحشية
الى ان يفترس احدهما الآخر .
ولا يعرفان من العناق
الا غضب الحب الجنوني
لأن يستحوذ احدهما على الآخر
حتى يذوب في عظامه .
ولا يعرفان الجزر ولا الجنوح
ولا الاشارات المسكينة
على ضفة نهر العدم .
ولم تكن نتحدث عن حُلقة الضوء
التي كانت ترتجف على ارض من حولنا
خوفاً من ان تصبح فخاً لنا .
انفصلنا من غير ان نكسر اللغز
وحمله كل منا
كاملا وغير مرئي في ذاته .
وجبنا كثيراً من دروب الكون
وشربنا من هذا الماء السريع
الذي لا يدع العطشان يسائل انعكاسه .

وفيما بعد ــ أهو حقاً فيما بعد
أم أن الزمن ليس الا حاضراً راكداً
تقطعه بتآشير(*)

حشرات مجنونة ! ــ
ظهر فجأة جسر كما لو ان اللامرئي
استقام حجراً واعمدة ،
وكما لو ان الجدول البصير قد استكان
من غير أن يكف
عن أن يكون حرية .

(*) مفردها تاشير وهو ما تعض به الحشرة .

وكأصيل يضاعف ديمومته المشعة
لكي ينكشف خليج مجهول
أخرت نهاية العالم فينا اقترابها .
علام تكون متلهفـين ؟

من مجموعتها (الواقع الاكثر قربا ، ١٩٨١)

كلودين هيلفت Claudine HELFT

المطـر

مبللة بالانتظار والضباب
كنت آمل في نهاية الرحلـة
ان تضيّق الارض قليـلا أيضاً
ضمـة الحقـل ،
وأن تحضر النافـذة
حرائة الريح .

حـين خط المطـر
مغامرة أعلـى غصن ،
اتيت ،
لم يعد أي شيء قابلا للاكتمال .

(قصيدة لم تنشر)

جان جوبير JEAN JOUBERT

الفـم

أيها الفم الذي كنت زهرة ركاماتنا الجليدية ،
أيها الحضور القرمزي الوحيد في هذا المكان
حيث لا يثلج سوى الضوء والكلس ،
يا عصفوراً من جمر ، يا وردة ممزقة ،
يا مشعلا كانت فيه تسهر شعلة خاطفة
في الصمت الغاضب لليل :

لرياح أخرى تحفر قبلتك ،
ولأجل عيون أخرى تشتعل ، وتزهر ،
وتذهب نافخاً وعد مجمرة

بينما نعـد : في شحوب النهار
الذي يلحسـه لسان من حجر ،
النذر من الخيرات التي يتركها لنا الشتاء .

من مجموعة (الصياد العاشق ، ١٩٧٤)

روجيه كوالسكي ROGER KOWALSKI

ادخلي هنا

ادخلي هنا ، فاسمي يرافقك . وقت ساعة الفجر خلف السور الكبير . طيران يمام فوق الساحة يتألق طويلا .

اصغي الى انشودة أخرى هي الوجه الثاني . النجمة الصهباء في نظراتك ـ إذ منت فلتحي !

يدك في يدي ، لن انام ابداً ، وحين يقبل النهار سأتعرف اليك ، وقـد عبرتك نجوم تفوق النجوم التي تعبر الليل السعيد .

من مجموعته (الى العصفور ، الى الرحمة ، ١٩٧٦)

الشاعرة بول لابوري PAULE LABORIE

زخرفـة

ملئها الحبيب
فطرزت خفيها بلآلىء الندى ،
وذرذرت على شعرها
حبيبـات صَبّر وعوسج ،
وخضبت جفنيها بخط سماوي
اختلسـته من الزرقـة ،
وجدلت لثوبها المنسوج من شقائق النعمان
ذيلا طويلا من الزنابق الياقوتية ،

وزنرت قامتها بشعاع من القمر ؛
وازلجت جيداً كلمات الحب
التي لم يعد يحب سماعها .

يا ايهــا الحبيب انك لتدنو
وقد اغرتك هذه المجهولة ...

لماذا ، لماذا انت تفر فجاة ؟

كانت المجنونة قد نسيت دمعة عارية
تعلقت على احد أهدابها .

من مجموعتها (لبلاب الصمت ، ١٩٧٦)

الشاعرة آن لانسولو ANNE LANCELOT

افتح قميصك

هل جميع الابواب حولنا مغلقة
نحن لا نحتاج الا الى مكان صغير جدا ليحب احدنا الآخر .

افتح قميصك ، قفص العنادل ، لا تقلق ، لا ، فلن تصاب ببرد ! إرو لي الحياة المظلمة للشوارع ، ضحكاتها ، حشرجاتها .

اذن ، ولابصرْ وجهك الجميل ، وجه انكشاري اعزل ، يتبسّم لي تحت برنس التعب ، كأنه خارج من حمام معطر . تقطّرني نظرتك العذبة الحذرة فاغدو مرجة الربيع ؛ وأمل الأزهار والنحلات ، تتقدم باحتراس سينثور ، تستروح ، ترتاب ...

لا تكن معقداً الى هذا الحد ، فانت تعلم ان الحياة والموت ياكلان من صحن واحد ! الانســان ، المطر ، الريح ، كل شيء عناقه يطيب !

ولكن لنسرع فاننا لن نفر من الزمن الذي يجري ، والذي يثلمنا بمعابر مسمّرة ـ وجهاً وذاكرة بلا ملجأ ممكن .

المساء جزيرتنا تحت الريح التي تتأرجح موهنا(*) .

(قصيدة غير منشورة ، ١٩٨٢)

(*) موهنا : منتصف الليــل او نحوه .

الشاعر باسكال لوماليفان PASCAL LE MALEFAN

حدثيني

حدثيني ، حدثيني هكذا برفق .
اروي لي اشياء بنية وخضراء ،
اشياء بيديك ، بعينيك ،
حدثيني عن ضحكنـا ،
عن شعورنا التي تضيع وتتشابك
وهي تصنع اعشاشاً .
حدثيني بحنـان
وأنت تدغدغينني بانفاسك ،
بفمك الذي يجعلني ارتعش .
هبي لي حركاتك تلك التي لها نكهة العسل ،
والتي تتقنين رسمها جيداً .
حدثيني ايضـاً
اكتبي لغتك في اذني برفق ،
ولا تخافي اذا ما نظرت اليك هكذا .
انا احدثك بالرفق ذاته
وبالحنان ذاته ،
فاصغي الي ،
فكي عقدة لسانكوخذي من مائي ،
حدثيني .

من مجموعته (بطريقة ما اتحدث عن الحب ، ١٩٨٠)

إيفا مارتيني EVA MARTINI

١ ــ ليس لي منزلة رفيعة

ليس لي منزلة رفيعة ،
وليس لي مزايا .
اكاد ان اكون شكلا
كثير الانكماش ، كثير الخجـل ،

شكلا قليلا ما يتجرأ على الظهور .
انما لديَّ كبرياء شامخة ،
ورغبة جامحة
في ان اغدو ، مساءً ،
الضجة التي تتوضع على السطوح ،
السلك الكهربائي ،
جناح الاسمنت المسلح ،
عين الهاتف المضاعفة ،
من غير ان يظهر مني اي اثر ،
وهكذا ادغدغك اينما ذهبتَ
من دون ان تعلم .

٢ ـ عالم باكمله

عالم باكمله يلبد متجمعا تحت القطرات .
تختفي انتَ خلف مطر طويل زاحف
يغطي الجرح .
هكذا تقترب السماء ، تتقرمد ،
وتمنحنا رغبات السطوح ، والانزواءات الكبيرة ،
والعواصف المختبئة التي تكشفها الدور العالية .
هناك تصير الاعجوبة من ماء .
الغرفة القديمة ، المنيعة ،
تلك التي منها نتامل الاراضي الرخوة ،
المكتظة بالبروق .
كل حجر يحبنا ، يغار .
انت الاخ العائد من حروب رائعة ،
الميت بالف سيف تحملها اليَّ .
ساظل على الدوام الاخت ذات الثوب
المفتوح على الدم ،
الراكعة بشوق امامك . . .
ثم سنفكك اسلحتنا : عندئذ من يستطيع

القول ابن الاخ ، وابن الاخت
في هذا الحيوان الثلجي ،
في هذا النمر ابن جسدينا الشاحبين ،
في هذا الشتاء المغلق على فمه .

من مجموعتها (خنجر يمزقني بصمت ، ١٩٨٠)

سوزي بو ـ بريتون **SUZY PAUT - BRETON**

الرائحـة

رائحة من زهر عسل الحب الموزع
تزنر البيت الصغير في اعماق الغابات .
زنبور يهدد بخرق العوارض .
نحن هنا
في وضوح الشمس ، والظهيرة ، والضياء .
نحن هنا
في الغرفة الزرقاء حيث يسيطر العناق .
والى جانبنا
احضان التلة تطيع الخزامى ،
وتنبت حزّجات السنديان الصغيرة على حفافي
الصمـت .

من مجموعتها (الاسم الصغير المنسيّ ، ١٩٨٥)

الن بيولو **ALAIN PIOLOT**

١ ـ كل شيء معك

. . .

السهول والقرى
والثمار الحمراء تنتظرنا ،
ماتكون اذن بلادنا !
جئتَ بلا مؤونة
من الذكريات
كل شيء معكَ .

٢ ــ اشجار عارية

اشجار عارية ، شبكة ماء رقيقة ،
صمت على مرمى جناح .
لا طرق حجرية تقود
الى بيتك ؛
والليل غير مضياف .
ولكن حين اراكِ
جزَف من العشب يصل تحت خطاك ؛
واطفال يحيونك عندما تمرين ،
وللحديقة رائحة الماء البارد .
سالتقيكِ ،
انا لا اعرف ماهو النسيان .

من مجموعة (ماريا دل مار ،)

تيريز بلانتييه THERÈSE PLANTIER

ان احبك ؟

ان احبك ؟
امام من احني جبيني
الذي يلألئه الدم احيانا ؟
امام من اذرّي صدف عظامي ؟
والى من اهدي طوافي النهر المزينة بالاشرعة ؟
لا احد يمنعني من ان احب من احب
(حتى ولا انت) ؛
وان اتلفن ،
وان افكر في الذين يقرضون انفسهم ، يختنقون ،
وان استقل سيارتي لاذهب
بين اشجار الدلب والبامبو
حتى يوقفني اوقيانوس ؛
وان اثمل حين احتاج الى الثمل .
كما لو انني التصق بك كالإسمنت المسلح .

لانه ينبغي للحب حيوات وحيوات
قبل ان يفاجئك على الحافة تماماً :
خطوة اخرى والا ضاع كل شيء
نهضتُ ، انتصبتُ ، اصررتُ
على ان ابقى وحيدة في مرافقتك ...
وان اقول للناس الجالسين الى المائدة :
« تناولوا كأساً » .

جان ريفيه JEAN RIVET

متى اراك ثانية ؟

قال بصوت خفيض : متى اراك ثانية ؟ وكان المطر يهمي رذاذاً على اشجار الزيزفون المثقلة . وظلّ على دراجة يلازم زجاج التعاونية ، وغير بعيد كان طائر حبيس يغني السماء . اجابت : هنا على الدوام . الممرات هي ذاتها ، قليل من الشمس، وفرح نهار الاحد احياناً ، والاوراق التي لم تعدْ ترتيبها .

من مجموعته (الهنيهات الجميلة ، ١٩٧٧)

ف . ج تامبل F.J. TEMPLE

اغدو جميلاً

اذا مرت الريح فوق الاشتية(*)
في طيران بملمات رمادية ،
فاين تكون عيناك المغنيتان كالبحر ؟
عيناي تقولان لك :
حين تكونين هنا اغدو جميلاً
عيناي تقولان لك :
اذا حفرت الريح في ظهائر (**) الاصياف

(*) جمع شتاء .
(**) جمع ظهيرة .

صمتا ثقيلاً في قلوب الحجارة الرمادية ،
فاين تكون عيناك المغلقتان كالأرض ؟
عيناي تقولان لك :
اذا مرت الريح واصبح الهواء مراً
من شذى المطر بين الارمدة الرمادية ،
فاين تكون عيناك الراقصتان كالموت ؟
عيناي تقولان لك :
حين تكونين هنا اغدو جميلاً ».

من مجموعته (ازهار الصمت ، ١٩٦٨)

دانييل ـ ادريان رول DANIEL-ADRIEN ROL

رسالة الى كريستين

« باب انفتح في راسي . يبدو لي انك ولجته برفق على اصابع قدميك ، وشعرت ببرودة الريح الخفيفة . الاذان ، في ضباب الكلمات ، تدفئنا جيداً ، واحدنا يصغي الى الآخر ، ونعوم في الكلمات شيء في منتهى العذوبة . انت هنا. ذات يوم ساجد مناظر هادئة تقول لك افضل مني ما احسه وما اكتشفه حين تتحدثين اليَّ او في الصمت المتفق عليه . لماذا يجب اسكات هذا الجمال في خبايا الامكنة المشتركة ، في عادة شهر مقتبس ؟ لا تصغي كثيراً الى كلماتي فانها تسيء القول ، ثم ليس لي الحق ابدا ان اقول هذه الأشياء . حين اموت سيأتي صوت ليضيع في ضباب العوالم . اكون قد استرددت ريحاً ، واجنحة ، ومدى . ما يهم هو ما يجري اليوم ، ما يجري . منك إليَّ ، حتى لو لم نستطع لذلك تفسيراً ، يوجد تيار موسيقا ارضية سيأتي ليغمرنا . شيء خارق هو انبثاق الماء تماما كالسر في قول احبك / تحبينني . ما سبق لي قط ان احسست بهذه الكلمة على مثل هذا المقدار من الالم ، واللا إدراك ، والقوة ، والفرح . ذلك واضح : فالشمس تملأ اراضي باكملها . وانت حاضرة في جهات الكون كلها وانك لتستدفئين جيداً في مكان ما شطر هذه الشمس .

اعرف ان الارض ذات يوم ستنتصر . وستغدو كلماتنا هنا ، على وجه الارض ، وسياخذ حبنا ـ كضباب مضيء ـ حجمه الحقيقي » .

من مجموعته ارض واراضٍ ، ١٩٧٨



الصندوق القومي اليهودي

سحبان العمر

صدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية **بالتعاون مع جامعة الكويت** كتاب « الصندوق القومي **اليهودي** » مترجما عن الانكليزية ..

الفه وولتر لين(١) ، بالاشتراك مع اوري ديفز(٢) ، وقام بترجمته السيدان : محمود زايد ورضوان مولوي ، وقد صدر الكتاب في طبعته الاولى في بيروت اواخر آذار ١٩٩٠ في /٣٩٣/ صفحة ..

وقد هدفت مؤسسة الدراسات الفلسطينية من وراء ترجمة هذا الكتاب ووضعه بين ايدي الباحث العربي ان تفند المزاعم القائلة : إن هذا الصندوق لم يكن سوى اداة لجمع المال فحسب ، بل لتؤكد ان له الدور الاساسي في

(١) وولترلين : ولد في كندا ، وتلقى علومه في الجامعة الامريكية بالقاهرة وجامعة مينيسوتا وجامعة تكساس ، واسس في جامعة تكساس مركز دراسات الشرق الاوسط ، وعمل مديرا له ، له مؤلفات اخرى تتعلق بقضية فلسطين ، يعمل منذ عام ١٩٨١ استاذا للغة الانكليزية في جامعة النجاح الوطنية في نابلس .

(٢) اوري ديفز : ولد في فلسطين ، وكان باحثا متخصصا بالدراسات الفلسطينية في جامعة اكستر ، وباحثا في مركز دراسات الشرق الاوسط والدراسات الاسلامية في جامعة درام وجامعة برادفورد . وهو مدير المكتب الاستشاري لشؤون القدس والسلام في لندن ..

وجامعة برادفورد . وهو مدير المكتب الاستشاري لشؤون القدس والسلام في لندن ..

استملاك الاراضي العربية وفي اقامة الدولة الصهيونية في فلسطين .. يقول المؤلف في مقدمة كتابه « الصندوق لم ينظر الى هدفه الأساسي وهو استملاك الارض في فلسطين لمصلحة الشعب اليهودي كملك غير قابل للتصرف – إنه غاية في حد ذاته ، بل وسيلة للوصول الى الأهداف القومية الاوسع للصهيونية ولذا فهو لم يسع للتعريف بنشاطاته بل اكتفى بمتابعة اهدافه بعيدا عن الانظار لكن دون ان يحجب نشاطاته وانجازاته عن قاعدته ومؤيديه والمساهمين في الحركة الصهيونية ...

واخيراً فان اسم الصندوق القومي اليهودي في شكله العبري : الصندوق الدائم رأس مال من أجل اسرائيل » مدعاة الى سوء الفهم ... وهذا ما قاد الباحثين الى استنتاج : ان الصندوق ما هو الا اداة صهيونية اخرى من ادوات جمع المال ، لذا فأهميته التاريخية ثانوية .. ان هذا الاستنتاج خطأ جسيم : وما هذه الدراسة الا محاولة لإثبات ذلك » ...

يبحث الفصل الاول في اصول الفكرة الصهيونية : شعب الله المختار ، وارض الميعاد ، والمحاولات المبكرة لتأسيس الصندوق بدءا من سنة ١٨٣٦ ، وما رافقها من دعوات الى الاستيطان الزراعي ، وشراء الاراضي في فلسطين ..

ويعتبر « جودا القلعي من اقدم المنظرين اليهود الذين طرحوا فكرة الصندوق ، بينما شدد الحاخام شابيرا ، على ان يكون الصندوق ذا موارد لا تنضب ، وعلى ان الارض التي يتم الحصول عليها غير قابلة للتصرف ، فلا يمكن ان تباع ، بل توضع في متناول اليهود لاستئجارها فقط .. الخ » .

وقد سجلت سنة ١٨٨٢ ، بداية الهجرة اليهودية المنظمة – ذات الاغراض السياسية – من اوربة الى فلسطين،واخذت تتوضح الابعاد القومية والسياسية للحركة الصهيونية في استملاك ارض فلسطين على حساب شعبها العربي ، كما شهدت هذه الفترة اقامة اول مستعمرة زراعية من قبل يهود القدس الارثوذكس ...

وقد دعا هرتزل عام ١٨٩٦ في فيينا الى تأسيس الصندوق ، ويعتبر هرتزل ومن ورائه المنظمة الصهيونية العالمية من اسس الصندوق فعلياً ..

الفصل الثاني « البدايات ١٨٩٧ – ١٩١٩ » :

يتحدث هذا الفصل عن المؤتمر الصهيوني الاول الذي عقد في بازل بسويسرا سنة ١٨٩٧ ، ووافق من حيث المبدأ على تأسيس الصندوق ... ثم يستعرض بايجاز اعمال المؤتمرات السنوية التي تلته انتهاء بالمؤتمر الخامس الذي عقد عام ١٩٠١ واقر انشاء الصندوق القومي اليهودي ...

سجل الصندوق رسميا في انكلترا عام ١٩٠٧ « بلعتباره شركة انكليزية » وجاء في قانون تأسيسه ان الهدف الرئيسي منه هو « شراء واستئجار او استملاك اية اراضي او غابات واكتساب حقوق الحيازة والمرافق والاملاك الاخرى غير المنقولة في المنطقة المقررة او فلسطين وسورية واي جزء آخر من تركيا وشبه جزيرة سيناء ، او اي جزء منها لتوطين اليهود » ...

وكانت وارداته في البداية من تبرعات اليهود ، وطوابع الصندوق ، ونقش اسماء اصحاب التبرعات الضخمة في كتاب ذهبي ...

وقد باشرت المنظمة الصهيونية العالمية برنامج استملاك الاراضي بانشاء « مكتب فلسطين » واصبح هذا المكتب المركز الرئيسي لجميع مراحل النشاطات الاستيطانية الصهيونية بدءاً من عام ١٩٠٨ ، وتولى الصندوق دفع نفقات المكتب ومساعدة المستوطنين واقراضهم المال ... وفي الوقت نفسه اسست المنظمة الصهيونية وكالة مركزية تشتري الاراضي لصالح الصندوق وللأفراد الذين يودون شراء ارض في فلسطين ، وسجلت الشركة سنة ١٩٠٩ في انكلترا ، باسم شركة تطوير اراضي فلسطين المحدودة » ...

وبدأ الصندوق في تأسيس المستعمرات وتوطين المهاجرين وتقديم القروض لهم ، اضافة الى القيام بأعمال التحريج واستصلاح الاراضي ، وانشاء البنى التحتية : الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية في المستعمرات اليهودية ومن اجلها وحتى تطوير المدن ... وما ان اشرفت سنة ١٩١٩ على نهايتها ، حتى اصبح الصندوق حجر الزاوية في العمل لتحقيق اهداف الصهيونية ..

وتطرق الفصل الثالث لاستعراض وضع فلسطين خلال الانتداب البريطاني / ١٩٢٠ — ١٩٤٨ / ..

وقد اكد المؤلف في مقدمة هذا الفصل ان سنتي / ١٩١٧ — ١٩٢٠ / تشكلان نقطتين فاصليتين في تاريخ فلسطين ، ففي عام ١٩١٧ صدر وعد بلفور وفي تموز ١٩٢٠ اقامت قوات الاحتلال الانكليزي ادارة مدنية على فلسطين طعمت بعدد من الصهاينة ..

وسارعت تلك الادارة على البرهنة عن التزامها سياسة الوطن القومي لليهود . فأصدرت قانوناً للهجرة ، وآخر لنقل الملكية اديا الى تسهيل شراء اليهود للأراضي وطرد المزارعين العرب منها حتى قبل اتمام صفقة البيع ، وبالتالي اصبح استملاكها اقل تكلفة على الصندوق ... وتوجت الادارة اعمالها ، باعتبار هذا الصندوق ذا نفع عام ، وخول صلاحية بيع الاراضي وتطويرها ... وانعكس ذلك في ازدياد اعداد المهاجرين ، وارتفاع ايرادات الصندوق ، والفى الصندوق نفسه في جو ملائم دون عوائق ادارية ؛ بل صار يعمل في ظل ادارة ملتزمة بأهدافه في انشاء دولة صهيونية في فلسطين .

ورأى عرب فلسطين في هذه التطورات تهديدا متزيدا لهم ، فردوا عليه بثورة عارمة تفجرت عام ١٩٣٦ ضد الاحتلال البريطاني والمغتصبين الصهاينة وتهدئة لخواطر العرب أصدرت الحكومة البريطانية في ايار عام ١٩٣٩ ما يعرف بالكتاب الأبيض ، جاء فيه ما يسمى بالقيود الصارمة ، على الهجرة اليهودية واستملاك الأراضي ، وتخويل المندوب السامي البريطاني صلاحية حظر انتقال الاراضي، وتنظيمه لضمان حقوق ووضع السكان العرب في فلسطين.

غير أن هذه القيود ظلت حبرا على ورق ، بل أكثر من ذلك فقد جعلت تلك القيود زعماء الحركة الصهيونية ، يشنون حملة دعاية واسعة بين اليهود واصدقائهم في العالم لاكتساب تعاطفهم مع الدعوة الصهيونية ، ضد هذه القيود ، ادت الى زيادة كبيرة في دخل الصندوق ... ومكنتهم ايضا من الحصول على استثناءات واسعة النطاق من الادارة البريطانية، ومكنت الصندوق من شراء الاراضي على نطاق واسع بموافقة تلك الادارة .. واحيانا أخرى يلجأ الصندوق الى التحايل والطرق الملتوية لتحقيق اغراضه ، والسلطات البريطانية تغض الطرف ، او تتهاون على الاقل في تنفيذ كل ما جاء في الكتاب الأبيض ...

وفي الفصل الرابع يستعرض الكتاب نشاط الصندوق بعد انشاء الكيان الصهيوني سنة ١٩٤٨ .

يقول الكاتب « كان من غير الجائز ان يبقى الصندوق شركة انكليزية من الناحية القانونية بعد قيام « ما يسمى » دولة اسرائيل .ــ فماذا سيكون مصير ــ ما اسماه ــ ممتلكات الصندوق خارج حدود هدنة ١٩٤٩ في المناطق الاخرى من فلسطين والاردن وسورية ولبنان ؟! » ..

ولتلافي ذلك فقد استمرت الشركة الانكليزية بممارسة اعمالها ، وتأسست شركة اسرائيلية تحمل الاسم نفسه .

اصدر الكنيست الاسرائيلي سلسلة من التشريعات الزمت حكومة الكيان الصهيوني اعتماد سياسة الصندوق كاملة بشأن الاراضي ... وقد ادى تطوير تلك الاراضي وإدارتها من الحكومة الاسرائيلية والصندوق معا الى الازدواجية في العمل .. ولإزالة هذه الازدواجية ، وقعت الحكومة والصندوق ميثاقا بفصل نشاطات ومسؤليات الطرفين ويوزع المهام بينهما ... ويؤكد الكاتب ان الاتفاقيات التي وقعت بين دولة الكيان الصهيوني والمنظمة الصهيونية العالمية « الصندوق احد مؤسساتها الكبرى » يدل على ان الحكومة والمنظمة هما صنوان الى حد بعيد من حيث النفوذ والقوة السياسية .

اضافة الى نشاطات الصندوق مع الحكومة الصهيونية في مجال الارض ، تابع لصندوق عمله بصفته وكالة مستقلة للمنظمة الصهيونية العالمية : يجمع التبرعات من اشتات اليهود في اصقاع العالم ، ويشتري الاراضي العربية ويقوم بمختلف النشاطات الاعلامية والاجتماعية .. الخ ..

ويستخلص الكاتب في نهاية الفصل ما يلي .. اصبح الصندوق مؤسسة مالية ضخمة تملك خمس شركات متنوعة النشاطات ، وتملك اسهم واسعة في شركات اخرى متعددة .. وتوسعت اعمال الصندوق الى حد كبير داخل الكيان الصهيوني ، وتبنت الحكومة الصهيونية سياسته بشأن الاراضي وتطويرها ، وبالنهاية حصل الصندوق من الحكومة على اقرار بانه شريك لها في ادارة كافة تلك الاراضي والتي تضم ٩٣٪ من أراضي دولة الكيان الصهيوني ، وكان تأثير هذا الصندوق على عرب فلسطين باختصار شديد ، انتزاع املاكهم وتشريدهم .

الفصل الخامس :

في المناطق المحتلة « الضفة الغربية بعد سنة ١٩٦٧ » ...

ادى عدوان اسرائيل عام ١٩٦٧ الى مضاعفة الاراضي التي تحتلها اسرائيل الى ثلاثة اضعاف ، وتشريد / ٢٥٠ / الف فلسطيني من الضفة الغربية .

وقامت الحكومة الاسرائيلية بضم القدس الشرقية والمناطق المحيطة بها ، وضربت بقرارات الامم المتحدة عرض الحائط ... وركز الصندوق نشاطه في الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء .. كما قامت الحكومة

الصهيونية مع الصندوق جنبا الى جنب بتنفيذ برنامج استيطان واسع النطاق في الاراضي المحتلة وانشاء العديد من المستعمرات فيها ».

ويقول الكاتب : ان الاستيلاء على الأراضي العربية كان يتم باستخدام اربعة اساليب ...

١ ــ ما ادعي بانه اعادة تملك الاراضي التي كان اليهود يملكونها عام ١٩٤٨ . وهي قليلة لا تتجاوز / ٣٠ / الف دونم ، يملك الصندوق نصفها ، ولم يدفع اي شيء لاستعادة تملكها .

٢ ــ الشراء المباشر من المالك او عبر الوسطاء .

٣ ــ المصادرة ... وتكثر الحجج والادعاءات .. ضرورات امنية ــ اغراض عسكرية ــ بناء المستعمرات .. الخ .

٤ ــ ادعاء الملكية ... وتدعي الحكومة الصهيونية ان تلك الاراضي املاك دولة .. وقد شملت ثلاث فئات من الاراضي . املاك الدولة « الاردن » .. املاك المشردين والمطرودين من بلادهم - او ما اسماهم الكتاب « الغائبين » .. والأرض التي ليست لها سجلات واضحة « مثل الاراضي المشاع التابعة لقرية ما » ...

ولما كانت دولة الكيان الصهيوني تدعي انها تملك هذه الفئات الثلاثة من الاراضي فلم تقدم اية تعويضات عن قيمتها ... وقد تم استلاب معظم اراضي الضفة الغربية بهذه الطريقة « الطريقة الرابعة » .

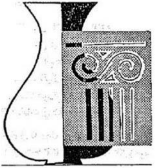
وقد قامت الحكومة الاسرائيلية بنقل ملكية اجزاء كبيرة من تلك الاراضي الى الصندوق ... وبالنتيجة فان الاطار الذي يجري فيه تقويم استملاكات الصندوق ، وغيرها من استلاب الاراضي في الضفة الغربية ، ليس الا تعبيرا عن الأهداف السياسية والديموغرافية والايديولوجية للكيان الصهيوني يفسرها تصريح مناحيم بيغن عام ١٩٧٥ « منذ ايار من هذه السنة ، تغير اسم هذه المناطق ، من المناطق المحتلة الى المناطق المحررة ، انها اراضي اسرائيلية محررة ، ونحن نناشد المتطوعين الشباب في البلد ، وفي بلاد الاشتات المجيء والاقامة فيها » ..

وحمل الفصل السادس عنوان « لليهود فقط » حيث يلقي نظرة ختامية على عقود التأجير التي استخدمها الصندوق ، والتي ابتدعت مع وسائل

اخرى لتنفيذ هدفه ضمن حدود صلاحياته ، وهناك كثير من التفصيل في متن هذه العقود ، ومن اهمها الوسائل المتعددة لحل النزاعات بين المؤجر والمستاجر.

وضم الفصل السابع مختارات من الوثائق -ترجمة عن اللغة العبرية ، تلقي الضوء على مختلف نواحي نشاطات الصندوق القومي اليهودي . واجزاء من مذكرات لمسؤولين امضوا زمنا طويلا في خدمة الصندوق . تساعد الى حد بعيد في فهم سياسات الصندوق وممارساته في الواقع العملي .. ويشتمل هذا الفصل ايضا على أجزاء من عقود الايجار باللغة العربية ، وفي نهاية الفصل وضعت عقود الايجار تلك في نصها الكامل بالعبرية .

ويختتم الكتاب بـ / ٥٥ / صفحة تضم قائمة المصادر التي استند اليها المؤلفان في هذا العمل الذي استغرق منذ عام ١٩٧٣ ولاكثر من عشرات سنوات بعدها ...



آفاق المعرفة

الحركة والحياة في الجسم الكوني بين السهروردي و الشيرازي

عبدالفتاح قلعجي

لاشك ان الحوار المنتج هو النزوع الطبيعي والضروري للمعرفة ، وشوق فاعل في حركة كلية للفكر نحو الكمال ، ومن هنا المنطلق رايت ان البحث القيم المنشور في المعرفة (ع : ٣٢٢ ــ ٣٢٣ لندره اليازجي بعنوان التصور الحديث للعلم بــين حكمة كريشنا مورتي وفيزياء دافيد بوهم يدفعني الى تقديم بعض الاضاءات في هذا الموضوع .

ان ما جاء في البحث حول وجود « وعي كوني » واعتبار « العالم كـلاً لا يتجزأ » او « كليـة الكوزموس » وحضور الحركة الكلية (الجوهرية) في جميع ما نتصوره مــن عناصر منفصلة ومتفردة في النهر الكوني ، اتى عليه عدد من المفكرين والفلاسفة الاسلاميين .

الفيلسوف الشهيد يحيى بن حبش السهروردي الحلبي (٥٤٩ ــ ٥٨٧ هـ = ١١٥٥ ــ ١١٩١ م) يرى في كتابه المشارع والمطارحات ان المد للافلاك جوهر عقلي ، يقول : « واذا ذكروا الحجة على ان الافلاك قواها متناهية الاثر وحركاتها غير متناهية قالوا : يجب ان يكون المد لها جوهرا عقليا » **ويرى ان حركة السماء ويقصد الكون (الكوزموس) ارادية ، ولابد للمتحرك الارادي من مقصد ،والافلاك لها ارادة كلية ، ولها ادراك كلي ، ولها نفوس ناطقة حية عالمة عاشقة لمبدعها ،** ولكن ليس لها شهوة ولا غضب ولا نزوع حيواني ، او شاغل عن الحق اولى باللذات الروحانية والانوار الشارقة .

والنزوع الى الكمال هو علة الحركة الكلية ، وعلة الحركة هو المعشوق شارعها **ينطوي الوجود كله في قهر نور الانوار ، يقول في ص ٤٣٣ من المشارع والمطارحات** « وان لكل نوع من الانواع المفارقة والاثرية والعنصرية كمالا وعشقا الى ذلك الكمال ، وتصور فقد ذلك الكمال هو شوق ، ولولا العشق والشوق اليه لما حدث حادث ولا تكون كائن اصلا » .

الفلسفة الاشراقية التي اسسها السهروردي في كتابه حكمة الاشراق تفسر الوجود على اساس النور وقواعده ، ومن اصولها الرئيسية ان الانواع الارضية والفلكية ناشئة عن العقول النورية الواقعة في السلسلة العرضية . فالنور هو نقطة الانطلاق في الفلسفة الاشراقية .

اما الفلسفة المتعالية التي اسسها صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازي (٩٧٩ ــ ١٠٥٠ هـ = ١٥٥٤ ــ ١٦٣٤ م) فهي فلسفة مزيجة موحدة مبتكرة تصدت لمعالجة مسائل الكون اللاامتناهي ، وامتزجت فيها ايجابيات الفلسفات الاسلامية وغير الاسلامية ، وجمعت مابين الفلسفتين المشائية والاشراقية ، وهي تعتبر الوجود نقطة الانطلاق ونهاية الشوط ، والمعبود ــ تعالى ــ هو عين حقيقة الوجود ، وبشكل آخر فان كلمة الوجود تطلق على الذات الإلهية وعلى الموجودات الاخرى ، غير ان هذه تكون في مرتبة متاخرة عن الوجود الالهي الذي هو اعلى واشرف انواع الموجودات . وذلك هو استجلاء الشيرازي لاشكالية وحدة الوجود الغامضة ، وبتعبير آخر : ثمة وجود وحدة في الوعي والشعور والمادة ، واعتبار ان الكون كلي واحد ، وهذا ما تهدف اليه بحوث دافيد بوهم (ا. البحث) والمقارن المتمعن في النظرتين : الشيرازية ، والفيزيائية المتطورة، للكوزموس يلمح التشابه بينهما .

ومن الفلسفات التي اعتنت بنقطة الانطلاق فلسفة ديكارت التي انطلقت من نقطة الوجود الضروري « انا » ومنها ايضا فلسفة اسبينوزا الذي انطلق من حقيقة الجوهر ، واصلا في تفسير هذه الحقيقة الى امداء ميتافيزيقية ، وفي رحابها شاد فلسفته الاخلاقية ، فثمة تشابه .. وتباين ايضا بين فلسفتي اسبينوزا والشيرازي .

إن « حركة الخلق والابداع الكلية الشاملة » التي يصفها بعض الفيزيائيين بالحقيقة الجوهرية للكون ، ويفسرها آخرون كما يرى الحكيم كريشنا مورتي بانها « وعي كوني ذو خفق ابداعي » تحدث عنها صدر الدين الشيرازي في كتاب « مفاتيح الغيب » مبينا ان ذات الفلك جوهر واحد ذو درجات متفاوتة ، وللافلاك حركة دائمة ، ولها في حركاتها غاية هي مطلوب كلي ؛ فلزمتها ارادة كلية توجبها علم كلي دال على جوهر عقلي فيها . يقول في مفاتيح الغيب ص ٥٧٤: **« اعلم ان للفلك عقلا يدرك الكليات ، ونفسا يتخيل الجزئيات وطبيعة سارية في جرمه يحرك المادة حركة وضعية ، لا بان تكون لها ذوات متعددة** متباينة الوجود ؛ لان الفلك شخص بسيط ليس فيه تركيب من قوى وطبائع ، واستحال ايضا انيكون ذات الشيء فوق واحدة ، ولا بان يكون صورة ذاته احد هذه الامور وغيرها من العوارض او الآلات الخارجة عنها كما زعمت طائفة ؛ بل ذات الفلك هوية بسيطة جامعة لحدود المراتب العقلية والنفسية والطبيعية ، فقولهم : حركة الفلك ليست طبيعته معناه ان قاصد هذه الحركة وداعيها ليست طبيعية محضة ناقصة غير شاعرة بغاية فعلها ؛ **ونحن نجد في حركاتنا الاختيارية ان بعد الشعور والارادة والشوق التخيلي قوة قائمة بالاعضاء مميلة اياها نحو الجهة ، فكذا في الفلك ، فعقل الفلك من جهة عقليته لا يباشر التحريك الجسماني لتساوي نسبة الارادة الكلية الى جزئيات حدود الحركة »** .

هنا وفي مواضع اخرى كما سنرى يميز الشيرازي بين حركة العناصر الخارجية ـ الميكانيكية ـ وحركة الذرات حول نواتها وحركتها التحولية الداخلية ، والحركة الكلية الجوهرية وهي محرق نظريته .

وكلية الكون عند الشيرازي تدعوه الى اعتبار الوجود خير محض والعدم شر مطلق ، وهذا لا يعني اقراره بوجود العدم ، فالوجود بما هو وجود لا ضد له ولا مثل ، واليوم في الفيزياء المتطورة يتم التراجع عن اعتباره « الخلاء » عدما واعتباره امتلاء . وفي تفسير الشيرازي لبعض الشر من غير ان يؤدي ذلك

الى اقرار العدم يقول : « ان الوجودات باقية على خيريتها الاصلية مادامت غير نازلة الى عالم التصادم والتضاد ولم تنته سلسلتها الى خير المكان والزمان ، واما اذا ابحرت سلسلة الوجود الى عالم الاجسام والظلمات ومضائق لاكوان ولازدحامات فبعض الوجودات مع انه خير محض بالذات وبالعرض بحسب ذاته ، وبالقياس الى ما يستخربة بل ينتفع منه وهو ما يناسبه هذا الوجود ويلائمه لكنه بالقياس الى ما يستخربه او يتأذى منه او ينعدم به يوصف بالشرية لانه يؤدي الى عدم ذات او عدم كمال لذات فيكون الشر بالذات احد هذين العدمين لا الوجود بما هو وجود لانه خير محض » .

وهذا الوجود الكوني الواحد كما يرى صدر المتالهين الشيرازي قد يكون مع احديته جامعا لحدود متفاوتة المراتب : عقلية ونفسية وطبيعية ، وان ضرورة اعتبار ان العالم كل لا يتجزأ ، ولا انفصال بين المادة والروح باعتبارهما جوهرين لا متباعدين هما متضمن النظرية الكوانتية .

الكواكب والاجرام الفلكية ذوات انفس ، تولد وتحيا وتموت ، وهي مستغنية عن القوى الغضبية والشهوية لبعد جوهرها عن الاستحالة والتغير والنقص والفاقة الى ما هو خارج عنها ، وانما هي مشوقة **الى الحكمة ، وهذه الحكمة تنظم حركتها الجسمانية التي هي الدوران** ، ويرد الشيرازي المستعرف عنها الى ما تقوله العلوم والارصاد الصحيحة ، يقول في المفاتيح ص ٥٧. « واما عدد كراتها وحركاتها ومحركاتها العقلية والنفسية فالرجوع في معرفة ذلك الى علم الهيئة « الفلك وعلم الهندسة » ويقول : « لو كان العالم كله جرما لا نفس فيه ولا حياة لبادت الاشياء وهلكت » **وكل جوهر شخصي له طبيعة سيالة متجددة (مادته) وحقيقة عقلية ثابتة لا يصيبها التحول :** فطبيعة الجسد في السيلان والذوبان والروح باق عند الله لتجرده ، ومثله النواة التي تصير نخلة .

ان حركة الخلق والابداع « الكونية » عند صدر المتألهين الشيرازي هما في النزوع الى الكمال والوصول الى المفارق المحض ، ففي كل آن ولادة وبعث وخلق جديد ، وهذه الحركة الكمالية الانبعاثية مستمرة من الحدوث الاول الى الحشر الجمعي : يقول : « ان للفلك في كل شوق وحركة كمالا آخر صوريا ، وله بحسب كل كمال جوهري صوري انبعاث شوق وحركة اخرى ، فيكون له في كل آن من الآنات وصول الى المفارق المحض ورجوع الى العالم الاعلى ،

وكذلك يفيض من ذلك العالم في كل آن على مادتـه صورة جوهرية اخرى » « للفلك بعث وخلق جديد ، وله في جميع الدهر حدوث واحد من الله وحشر واحد اليه وحدة جمعيه ،' وهكذا حكم الارض والجبال وغيرها » .

هذا الذي سماه الشيرازي الشوق والحركة الى الكمال هو ما تدعـوه الفيزياء الحديثة بالتفاعل الكوني للعناصر تحت الجوهرية ، كما تتفق النظرتان في تدليل مفهوم الحركة الكلية للوجود .

ثمـة حركة جوهرية للكـون ، الذي هـو كـون واحد حي ذو واعية ، ولا مجال لان نتصوره عناصر منفصلة ومتفردة لان كل ما فيه « يخفي حضور الحركة الكلية في كليتها » .

ثمة قوة واعية في الاجسام هي علة الحركات وهذا ينطبق حتى على الحركات الآلية بدليل **أن** حركة الجسم الذي يندفع بمؤثر خارجي يستمر في حركته بعد انفصاله عن المؤثر ويمكن ان يستمر في الحركة الى ما لانهاية ما لم يتعرض لعائق كابح لحركته ، والامر الثاني هو ان علة الحركة متحركة متجددة مبدعة ، اذ لو كانت ثابتةلكان مايصدرعنهاثابتامستقرا ساكنا،وينتهي الشيرازي بعدهذاالعرض الى النتيجة وهي ان **القوة الجوهرة في الاجسام التي هي** علة **الحركات العرضية والسطحية ، هذه القوة هي متحركة متطورة ، اي مبدعة .**

والحركة من حيث حدوثها تدل على حركة دائمة لا نهاية لها ، **وللحركـة جهتان : جهة تجدد وتعاقب** وبها يكون حدوث الجواهر والاعراض الحادثـة . **وجهة ثبات وبقاء ،** وثباتها هو ثبات التجدد ، وبقاؤها هو بقاء لانقضاءوالحدوث وبوساطة الحركة يرتبط الحدوث والتجدد والانقضاء بالدائم ــ الازلي ــ عين حقيقة الوجود ــ الذي هو قبل الحركة والزمان .

ويقدم برهانا : « ان التركيب من ماء وطين مثلا دل على الحركة ، والحركة دلت على اختلاف الجهتين : ولم يمكن اختلافهما الا بجسم محيط هو السماء وانه لابد وأن تكون متحركة على الدوام حتى يتصور حدوث الحوادث ، وهذه الحركة ليست طبيعية ولا حيوانية جسمية بل حيوانية عقلية » .

والسماء انسان كبير له جسم ونفس وان حكم نفسـه بجميع اجزائهالمتشابهة والمختلفة يجري مجرى انسان واحد بجميع اعضائه المختلفة الصور والاشكال ،

والسماء متحركة بالارادة ، ومحركها ليس عقليا محضا لا يقبل التغيير ولا طبيعيا محضـــا .

ان الجديد والابداعي في فلسفة صدر الدين الشيرازي هـو نظريته عـن الحركة الجوهرية ، وقد حاول اثباتها بشتى الادلة والبراهين ، ويرى ان الفكرة قديمة عند بعض الفلاسفة اليونانين ، وقد استند عليها الكندي في اثبات حدوث العالم حيث يقسم الحركة الى ١ ــ دائرية وهي حركة الذرات حـول نواتها ٢ ــ استحالية كحركة النطفة التي تتحول الى انسان ٣ ــ وجوهرية وهي حركة الانبعاث والفساد والانقضاء في الكون .

غير ان مفهوم الشيرازي عن الحركة الجوهرية مختلف ، اذ يرى انها تستمر في جوهر الاشياء من بدء الحدوث الى نهاية الكون في مسيرة دائبة نحو الكمال .



اخبـــار المعـــرفـــة

اعداد : محمد سليمان حسن

الثقافة العربية الاسبانية عبر التاريخ

بدعوة من وزارة الثقافة والارشاد القومي في الجمهورية العربية السورية ، يعقد في النصف الاول من شهر كانون الاول / ديسمبر / ١٩٩٠ في دمشق ، الندوة الدولية للثقافة العربية الاسبانية عبر التاريخ .

الغاية من الندوة الكشف عن الروابط التاريخية بين العرب والاسبان منذ اقدم العصور وحتى وقتنا الحاضر .

يشارك في هذه الندوة عدد من الباحثين العرب السوريين . اضافة الى باحثين عرب واجانب ، من اقطار عربية واجنبية .

تدور ابحاث هذه الندوة حول المواضيع التالية :

١ ــ التأثيرات بين المنطقة العربية واسبانية في العصور القديمة .
٢ ــ الفكر العربي الفلسفي ودوره في اسبانيا واوروبا في العصور الوسطى وعصر النهضة .
٣ ــ العلوم العربية في أوروبا ودورها في تطور العلوم .
٤ ــ ادب الرحلات ورسم الخرائط والملاحة العربية ، ودور العرب في الكشوف الجغرافية .
٥ ــ التأثيرات الثقافية بين العرب والاسبان (عمارة ، فنون ، لغة ، عادات وتقاليد) .
٦ ــ رؤى عربية واسبانية للادبين العربي والاسباني قديما وحديثا .
٧ ــ لقاء الثقافتين العربية والاسبانية : نظرة مستقبلية .
٨ ــ مصادر التاريخ العربي الاسباني .

تلقى الابحاث المذكورة باللغات : العربية ، لااسبانية ، الفرنسية ، الانكليزية

المؤتمر السنوي الخامس عشر لتاريخ العلوم عند العرب

بدعوة من جامعة حلب وبالتعاون مع معهد التراث العلمي العربي والجمعية السورية لتاريخ العلوم ، يعقد في محافظة الرقة بتاريخ (٢٢ ــ ٢٥ نيسان ١٩٩١) المؤتمر السنوي الخامس عشر لتاريخ العلوم عند العرب .

يهدف المؤتمر الى تقديم ابحاث جديدة فيما يتعلق بتاريخ العلوم والطب والتكنولوجيا والتراث العمراني والحضاري عند العرب . كما يبين دور العرب في هذا المضمار من العلوم ومدى ما أسهموا به في اغناء الحضارة الانسانية .

عن وزارة الثقافة صدر حديثاً

نظرية الرواية
قضايا وحوارات النهضة العربية (٢)

اعداد وتقديم
محمد كامل الخطيب

برنارد شو
سلسلة اعلام (٦)

تأليف
ايريك بنتلي

ترجمة
عيسى سمعان

موجز تاريخ الادب الامريكي
دراسات نقدية عالمية (٨)

تأليف
بيتر هاي

ترجمة
هيثم علي حجازي

أشكال الزمان والمكان في الرواية
دراسات نقدية عالمية (٩)

تأليف
ميخائيل بختين

ترجمة
يوسف حلاق

دعوة الى الكتاب والمثقفين العرب

- ترحب مجلة المعرفة بإسهامات الكتاب والمفكرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية .
- يفضل ان يتراوح حجم المقال بين ١٥٠٠ ــ ٤٠٠٠ كلمة ، وحجم البحث بين ٤٠٠٠ ــ ٨٠٠٠ كلمة .
- يراعى في الاسهامات ان تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي :

اسم المؤلف ــ عنوان الكتاب ــ دار النشر ــ مكان الطباعة وتاريخها ــ رقم الصفحة .

مع ذكر اسم المحقق في حال الكتاب محققا ، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً .

- ترجو المجلة من كتابها ان يقرنوا اسهاماتهم بتعريف موجز لهم .
- ترجو المجلة ان تردها الاسهامات بخط واضح وان تكون مراجعة من قبل صاحبها في حال طبعها على الآلة الكاتبة .
- تلتزم المجلة بإعلام الكتاب عن قبول اسهاماتهم خلال شهر من تاريخ الاستلام ولا تعاد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر .
- يرجى توجيه المراسلات الى المجلة على العنوان التالي :

الجمهورية العربية السورية ــ دمشق ــ الروضة ــ مجلة المعرفة.

تنويـه :

ورد في العدد الماضي مقال « دور » المرأة في الديانات والحضارات القديمة غفلاً من الاسم ، وقد تبين انه مقتبس من كتاب « لغز عشتار » للأستاذ فراس سواح قامت بالاقتباس سناء قولي .